روايات الهلال

مدد يا صاحب المدد



أبو القاسم أحمد رشوان

سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمي تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
غالى محمد

رئيس التحرير
محمد الشافعى

روايات الهلال

مدير التحرير
هالة زكى

المستشار الفنى
محمود الشيخ

سكرتير التحرير
وجدان حامد

تصميم: محمود الشيخ

البريد الإلكتروني: helalmag@yahoo.com
بريد الاشتراكات: subscription_dep@yahoo.com

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٩٦,٠٠جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٤٠ دولاراً - أوروبا وآسيا وأفريقيا ٤٥ دولاراً - أمريكا وكندا والهند ٥٠ دولاراً - باقى دول العالم ٧٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الإشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

الإدارة
القاهرة: ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا)
ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدي ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج.م.ع.
تلكس: Telex 92703 hilal u n
فاكس: FAX: 3625469

ثمن النسخة

- سوريا ١٢٥ ليرة
- لبنان ٨٠٠٠ ليرة
- السعودية ١٢ ريالا
- البحرين ١,٢ دينار
- قطر ١٢ ريالا
- الإمارات ١٢ درهما
- اليمن ٥٠٠ ريال
- فلسطين ٢ دولار.

الإصدار الأول/ يناير ١٩٤٩

رواية

مدد يا صاحب المدد

أبو القاسم أحمد رشوان

رقم الإيداع : ٣٦٠٤ / ٢٠١٤
الترقيم الدولى : 978-977-07-1625-0

مدد يا صاحب المدد

رواية

دكتور

أبو القاسم أحمد رشوان

دار الهلال

٢٠١٤

تقديم:

كاد الفقر يكون حظها المقسوم، وقدرها المقدور، لازمها منذ أن وُجدت، فما من حقبة من حقب تاريخها الطويل إلا والفقر، وما ينشأ عنه من مرض وجهل وظلم وقهر، وخوف من الحاضر، وتخوّف من المستقبل، وكسْر النفس، وسحق إنسانية الإنسان، هو الظاهرة المصرية التي تطغي علي ما عداها من ظواهر أخري.

كانت فترات الاستقلال الوطني قليلة جدا بالنسبة لفترات سيطرة الأجنبِي الذي غزا البلاد باسم التحديث والتقدم والتحضّر. أو باسم التدين، أو ادعاء الحرية والعدالة، والتحرر والمساواة. ولم يحدث شيء من ذلك، علي يد هذا الفريق أو ذاك. حتي في فترات الاستقلال الوطني كان ظلم ذوي القربي أشدَّ بطشا وفتكا. ومن ينظر في حجج الفاتحين من قمبيز الفارسي والاسكندر المقْدوني مرورا بكل الغزاة حتي بوش الأمريكانى. من ينظر يجد أن الرسالة واحدة وأن الأهداف لم تتغير.

كانت قرانا كما قال شوقى: من عهد خوفو لم تر القنديلا جهل مطبق، وفقر مدقع. حواري ضيقة، عشش متراصة متلاصقة.. أبواب غائرة كأنها فوهات جحور. تطل منها رءوس أطفال كأنهم فئران، أو كتاكيت زغب الحواصل، لا تزال تروض الجناح، تنهض تارة، وتسقط تارات، تتعثر في أثمالها إن وجدت أثمالاً، لفافات من الخرق البالية، رؤوس (شعث غبر، كأنها رؤوس الشياطين).

لم يكن نساء قريتنا ورجالها بأحسن حالا من أطفالهم، عريا وحفاء، وضعفا وهزالا، وذلا وهوانا. كانت ملابس بعض الشباب فانلة قديمة لا تتجاوز الركبة. ولا شىء تحتها. لم يكن الناس رجالا أو نساء ,قد اكتشفوا السراويل بعد.

الأمراض المستوطنة تحصد الناس حصدا، شيبا وشبابا، ذكورا وإناثا، ولم تكن المشافي التي يعالج الناس فيها إلا في المدن، وكان أقربها فرشوط، وهي شبه مدينة.

في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين انتشر مرض الجدري الذي أصاب بعض العيون، ففقدت الإبصار,لذا كثر عدد العميان كثرة لافتة، ولم يكن أمام أولي الضرر من سبيل غير حفظ القرآن أو أجزاء منه. وتلاوة الآيات وقصار السور في المياتم وعلي المقابر، وفي المناسبات المختلفة. نظير لُقيمات لا تقيم صلْب جائع.

فقد عُميان بلدنا أبصارهم منذ الصغر، لذا إعتادوا ممارسة الحياة، بلا مرشد أو معين، وأحيانا بلا عكاز يمشي الواحد منهم عارفا دربه تمام المعرفة، يحسبه الجاهل من النشاط والهمّة مبصرا. يمارسون اللعب واللهو في شقاوة، وكأنهم يستعيضون عما فقدوه.

الإهداء:

- إلي أعظم أبناء مصر. وقائد مسيرتها عبر الزمان، وأكثر الناس إخلاصا، وحبا، ووفاء، وبقاء علي العهد.
- إلي من أحبها فعشقته.
- إلي الذي لم يفارقها لحظة منذ أن قامت علي الأرض حياة.
- إلي من لم تُغْرِه هجرة إلي درهم ,أو دينار.
- إلي من لم يستهوه جِنْز، ولا همبرجر. وبقي صامدا يمزمز الفول، ويرتشف النابت، ويستحلب اللفت، ويلحس المش، وينحت الدوم، ويمصّ القصب، يرقع الثوب، ويخْصِف النعل، ويفلّي الشعر.
- إلي الذي شكل الحياة المصرية عبر القرون، وصاغ أدبياتها وأخلاقها وثقافتها.
- إلي آخر المودّعين لكل المسافرين في كل الموانى، وأول المستقبلين.
- إلي من أخرج لسانه لكل العائدين من هناك.
- إلي ابن مصر العظيم، وشيخها الجليل.

(إلي الفقر)

لقد تغير كل شيء، وأنت، أنت، حيث كنت.

مد الله في عمرك، وسلمت من كل غني. ودمت لمصرك تُباهي بك الأمم.

عشاقك من أبناء مصر

عنهم دكتور أبو القاسم أحمد رشوان

الفصل الأول

أولاد بلدنا

١- أيام الكُتّاب.

٢- بيضى ياعمدة.

٣- سلايف.

٤- فى انتظار الجحش.

٥- رُطَبا جنيا.

٦- المحمودى.

١- أيام الكُتّاب

-١-

افترش سيدنا حصيرة وأسند ظهره إلى وسادة محشوة ليفا. مال إلى الحائط يستقبل شمس الشتاء. مدّ رجليه.. على يساره مقطف صغير. أسقط الغلمان فيه البتّاو... مع آخر صبي. أحصى سيدنا البتّاو.

- من منكم لم يحضر المعلوم؟

- أنا ياسيدنا.

- لماذا؟

- أمى ستخبز اليوم وغدا آتى بأربع بتّاوات.

- لا تنتظر الغد.. لا تنسوا رغيف الاثنين. وقرش الخميس..

كان سيدنا يتنفس قرآنا. لا يند عنه حرف واحد. ما إن يسمع جملة واحدة إلا وينطلق مرتلا كأنه يقرأ من كتاب مفتوح. يعرف تماما أين انتهى كل صبي. كان ثلاثة منهم يكتبون من سورة الرحمن. وكانت ألواحهم مختلفة.

قال غلام:

فبأى آلاء ربكما تكذبان.

- قال سيدنا: والسماء رفعها ووضع الميزان.

- قال آخر: "فبأى آلاء ربكما تكذبان"

- قال سيدنا: خلق الإنسان من صلصال كالفخار.

- همس غلام يعنى: نحن بلاليص.

- همس آخر اسكت نحن أحسن من غيرنا.

- من هم؟

- الفلاحون: ربنا خلقهم من جالوص من طين.

قال حسين المحمودي: الذين آمنوا ياسيدنا لهم عذاب أليم.

انتفض غلام:

من أحسن ياسيدنا الذين آمنوا أم الذين كفروا؟

قبل أن يجيب همس غلام:

أحسن منهم جميعا الذين قالوا إنا هَوَّارة.. هم فقط الذين سيدخلون الجنة.

انتفض آخر وبصوت مسموع:

لن يرونها. ولا يشمون رائحتها.

قال ابن العمدة:

- العمدة حلف بالطلاق لن يسمح بدخول أى فلاح.

- الجنة ليست زَريبة.

وإذا لم يتعلموا الأدب فلن أسمح لهم بدخول النار أيضا.

قال ابن الفلاية:

- أنتم تريدون كل شيء.. دنيا وآخره.

قال ابن شيخ البلد:

- تركنا لكم النار تُبرطعون فيها.

- قال آخر كل الناس أولاد تسعة.

- ربنا خلق الفلاحين من طين كما يقول سيدنا.. وخلق هوارة من صلصال.

- لا وأنت الصادق خلقكم من مارج من نار.جدكم إبليس العاصي. عقص عمامته ووضع رجلا على أخرى. وقال على الطلاق ما أنا ساجد ولا راكع. ربنا قال له:

اذهب يارجيم يالمعون. أنت وأولادك هوارة إلى يوم الدين.

تشابك الأطفال نهرهم سيدنا .. وانهال عليهم ضربا باليمين وبالشمال.

- اقرأ ياحسين ياخبيث الآية من أولها.

"إن الذين يحُبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم"

تناقلت القرية حديث الصبية. استدعى العمدة شيخ الكتّاب.

على الدكة الوحيدة وسط ساحة الدوار الكبير ,انجعص العمدة واضعا رجلا على الأخرى. من خلفه خفراء ,وعن يمينه وقف نائبه. وعن يساره شيخ الخفراء. إخوته وبنو عمومته. وقد أغرق السقاء ما حول الدكة ماء ... صار التراب طينا. ألقى الشيخ السلام .. لم يسمع ردا. ظل واقفا.. دون ان ينظر إليه أحد.

- من سيدخل الجنة؟

- كلنا عباد الله.

استدار نحوه وكان فظا غليظا القلب. جافى الطبع. سيء الخلق.

- أنتم العبيد. أما نحن فأسياد. لا تلف ولا تدور، كلمة واحدة. (هوارة) فقط هم الذين سيدخلون الجنة. لفّ على كل الناس ومعك المنادى وبلغهم ذلك. وفى خطبة الجمع والعيد. ولا تقرأ فى الصلاة إلا آيات هوارة، وخذ على كل فلاح تعهدا بأنه ليس لهم قيراط واحد فى الجنة، ولا فى النار.

انبرى شيخ الخفراء:

- عليّ الطلاق لو رأيت فلاحا واحدا دخل الجنة فلن أعتبها أبدا. الهوارى هوارى فى الدنيا والآخرة. لو فكر واحد منهم فى الجنة أو ذكرها على لسانه حتى فى الصلاة سأطلق عليه النار فورا. ومن اليوم لا يدخل واحد منهم الجامع. وأولادهم لا يدخلون كتابا ولا مدرسة- سمحنا لهم بالصلاة طمعوا فى الجنة. أى أحد منهم يُهَوب ناحية الجامع اطْرده فورا.

- لا أستطيع أن أمنعهم من الصلاة.
- هل هو جامع أبوك. لا يصلون بعد اليوم. الصلاة لهوارة فقط.

تمتم الشيخ لو تركوها لخربت الجوامع. لا أحد منكم يركعها إلا يوم الجمعة.

قال شيخ البلد:

- يصلون فى جامع آخر.
- ليس فى البلد جامع تقام فيه الجمعة إلا هذا الجامع.

يصلون بعد أن نصلى.

- وخطبة الجمعة ؟؟
- قل لهم خطبة خاصة بهم. ولا تذكر فيها سيرة الجنة.. النار فقط.
- أخطب خطبتين؟
- هى خطبة واحدة عمرك ما غيرتها. كل الناس يحفظونها. اللهم انصر السلطان وعساكره.

اللهم صلى على النبي. عمرك ما قلت: ربنا ينصر العمدة ورجالته. ولا صليت على المرحوم أبويا. انصرف وبلغهم هذا الكلام.

انصرف وهو يتمتم " إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم"

- ماذا يقول الشيخ:
- يتكلم عن سيدنا فرعون.

أحسن ناس. لم يكن يسمح لفلاح أن يركب حماره. أو يلبس مركوبا أو طاقية. ولا يمر أمام بيوت هوارة.

- الشيخ يقول:
- يوم القيامة الجميع يتساوون.
- العمدة:

- الهوارة هوارة. دنيا وآخره وقيامتنا غير قيامتهم الشيخ (على) نفسه قال هذا الكلام.

- من أين أتى به؟

- من القرآن الذى أحضرته له من الحجاز.

قلت للبائع:

أعطنى ختمة هوارة. قرأ الشيخ لى وعينه فى عيني.

- واخد بالك ياعمدة ربنا يقول: " وفضلناكم على العالمين"

قال العمدة: الكبير.. كبير ياولدى.

-٢-

فى السابعة والنصف انطلق الغلمان مسرعين كالجراد يتسابقون أيّهم يصل المدرسة قبل الآخر. انطلق حسين المحمودى يسابق المبصرين. يسبقهم لكنه لا يعدو سور المدرسة. عاد الفتى كاسف البال حزينا ,

كل الغلمان دخلوا المدرسة وظل وحيدا يلاعب الرمال.

ويناجى الطين يصنع تماثيل يهدمها ويبنيها. منتظرا مشوارا هنا أو هناك. تتحسر الأم. تصطنع مشاوير تكلفة بها. يكافئه عمى (شفيق البقال) من وقت لآخر بقطعة حلوى ,أو لحسه عسل. يتوارى مع عميان.. يشعل سيجارة.

فى جيبه دس أربع بيضات. حبا على يديه ورجليه فوق كومة التبن.. تسلق الجدار"تدلدل" على أكوام سباخ. سقط على كلب نائم. كانت هبشة الكلب مؤلمة. صرخ الغلام.. سال البيض.. هُرعت الأم.. اختلط زلال البيض وصفاره بدم الصبي.. شاع خبره. سدّ منفذ البيض.. حرم الفتى حلاوة عمى شفيق البقال التى اعتاد شراءها بالبيض.

● ● ●

- ماذا يفعل الولد بجواليص الطين ؟
- يتسلى بها..
ليس له لعبة غيرها.
- طول وعرض... ولكنه..!!
- نصيبه هكذا.
هو أشطر من المبصرين.
- أخاف عليه من بعدى.
- البركة فى إخوته.

● ● ●

٢- بيْضي ياعمدة؟

-١-

صرخت المحمودية
- بيْضى ياعمدة
قال شيخ الخفر:
- بيضها كبير وباين.
قال شيخ البلد:
- أعرفه جيدا.
- رجل غريبة ياعمدة:

لا يستطيع حرامى واحد أن يعدّى قبلى الجسر. بلدنا ليس فيها حرامية. حرامية بحرى يسرقون: مواشي ،بنى أدمين. والقبليين حرامية جزم ،والحمد لله بلدنا لا تعرف الجزم ولا المراكيب. البلد الشرقية يصبغون الحمير. ومن يوم ما مسكنا (أبو عرام) فى سوق الأحد ،اختفت سرقة الحمير. وأهالينا على محطة (أبو شوشة) قطاطين ونشالين.. سرقات محترمة. ماذا أقول للمأمور؟: بيض ودقيق- وعيش.. وبلح.

– لن ابرح الدوار حتى تعيدوا لى البيض. عمد ومشايخ وخفر لا يستطيعون حماية البيض. إذا لم تُرجعوا البيض فسأذهب إلى العمدة الكبير فى البندر.

-٢-

وضعت يداها على خديها، وراحت تخط فى الأرض وتتمطق.

– كيف يختفى البيض. أنا لا أغفل عن البوابة لحظة، وإن غبت آذان حسين ترصد دبة النملة. تسلل أبو العشم مرة، تشمم حسين رائحة عرقه. تتبعه. قبض عليه، ربطه فى مربط الحمير.

عّجزتِ ياأم محمد. هل من الممكن أن يُعَجّز الناس فجأة؟ أنا لم أقصر، رجل بالنهار وست الستات بالليل.

– هديتى حيلى يا ولية. ألا تزالين صبية؟

– البنت التى تتزوج قبل البلوغ لا تعجز أبدا.

وعادت المحمودية تتساءل.

– من سرق بيضك يا بخيتة؟

-٣-

من مياه البلاليص صب الغلام على أكوام من التراب.. عجنها... شكل منها أشكالا. حصانا. جملا. حمل «جالوصا». خرج. يلهو.. يلعب.. يعبث بالطين.

قالت الأم:

– ليس له تسلية إلاّ هذا الطين.

تأمله مليا ثم قال:

– شكلك جميل يا ولدي. كأنك من أولاد العباسي.. ولكن!!

إنتفضت.

تمتمت:

– أولاد الكلب!! تقاويهم فى كل البيوت.

فى قلب «الجالوص» دفس حسين المحمودى عدة بيضات. انتحى مكانا قصيا. دلك البيض بالتراب. أزال آثار الطين. خرج بالجواليص تحت سمع الأم وبصرها

– ربنا معك يا ضناي.

لم يدر بخلدها، قط، أن بيضها فى «جالوص» الطين.

لأول مره يسمع عمى شفيق يقول:

– اغسلوا البيض قبل بيعه.

انقبض قلب الفتي. أوجس فى نفسه خيفة حسين.

–٤–

– اكتشف الرجل الأمر. لن أفعلها مرة أخري.

قال الشيخ عبد الرحيم الحداد:

– المعلم شفيق يعرف كل شيء. كل البقالين. لو دققوا فى الحلال والحرام لأغلقوا دكاكينهم.

– هو الحلال يوكل عيش

هكذا عقب الشيخ أبو الفضل، اكبر العميان سنا.

اسمعوا كلام العواجيز. الأراضى اتسعت... والبيوت زادت. والجرون عليت، والكروش كبرت والزمم...

قال الشيخ أبو الوفا النجار:

– هم أحسن من غيرهم.

قال الشيخ أبو الفضل العجوز:

– كل واحد نقول عنه فى حياته أحسن من غيره. وبعد موته تظهر كل عيوبه. كلهم بدأوا صالحين. وماتوا ظالمين.

- إلا هذا لا يمد يده أبدا.
- كل الأيادى تصله قبل أن يمد يدا.
- عمره ما دنى نفسه. وأكلها باردة.
- لأنه يحب المُولَّع. عاشق لأكل أموال اليتامى.
- نار ياحبيبى نار.

-٥-

ملأ الشيخ حسين حجره ترابا. خرج مسرعا.. لحقت به- شدت طرف ثوبه- سال التراب.. استوقفته مرات- تراب.. فى تراب. اطمأن قلبها. كفت عن ملاحقته ,ملأ حجره حبوبا- خرج مطمئنا. يتهادى ..

- ربنا (معاك) ياولدي. خد بالك مما فى حجرك.
- ماذا تريدين من عمى شفيق ياأمي؟.
- كف عن الهزار.. هو شفيق (يبيعلك بالتراب).

يقولون ياأمي:

- الحاجات (بقت) بالتراب.

-٦-

- قد يكون ثعبانا. أو قطا.. أو كلبا.

تفقدت المكان.. لم تعثر على آثر.

- يد امتدت ؟ ولكن من يجرؤ؟ من يفكر؟ إنه بيت المحمودي. لم يقفل له باب.. لم تسرق له دجاجة!

قال شيخ البلد:

تنوعت السرقات، سرقوا الدقيق والخبز، المراكيب، حصر الجوامع- أكفان الموتى. لم تشهد بلدنا شيئا من ذلك. قبضتنا من حديد: ولكن من سرق بيض بخيتة؟

-٧-

كان المحمودى الكبير صديقا للشيخ خليل نائب العمدة ربط بينهما نبوت التحطيب برباط من الصداقة والحب ,خاضا غمار كل الموالد.

● ● ●

اقتحمت مجلسهما:

– أنت صاحب كل الحرامية.

– البركة فى جوزك.

قال المحمودي:

بحسك ياأبو مَهْران.

واصلت بخيتة:

– لا يستطيع أحد أن يسرق شيئا إلا بعلمك.

– زوجتك فضحتنا يامحمودى.

واصلت.

– ترجّع كل البقر والجاموس، وتعجز عن رد بيضات بخيتة.

– سأعين عليكم حراسة.

استمرت الحراسة عدة أيام واختفاء البيض لم يتوقف.

قال الشيخ أبو الفضل:

– البيت مسكون. لابد من ليلة قرآنية لأولياء الله اجمعى سبعة مشايخ، واحضرى سبعة ديوك ممن يؤذنون فى الفجر. أديرى وجوههم للقبلة عند الذبح بعد الاغتسال الكامل، على أن يكون ذلك فى آخر جمعة من الشهر الهجري.. وسمى سبعا. وكبرى سبعا. ثم احشيهم بالمستكة وحب الهان وجوزة الطيب. وحمريهم وقدميهم لسبعة من أولى الضرر من حملة كتاب الله. حتى لا يروا الجان وهى تتصاعد فى السماء دخانا هربا من سماع تلاوتهم.

ظلت تطلق الباخور، وتفى بالنذور
ماتت المحمودية وظل السؤال
- من سرق بيض بخيتة!!

● ● ●

٣- سَلاَيف

-١-

- ربنا يعطيك الصحة وطول العمر- العيال كبرت نريد أن نعمل لهم شيئا للزمن:

- الخير كثير يأم الأولاد.

- خيرك لغيرك.

- أبى وأخوتي!!

- أولادك أولى. ليس لهم أحد من بعدك.. أولاد عباس. أعمامهم حرموهم بعد موت أبيهم وتركوهم يعملون عند الناس. حزموهم من كل شيء. الأولاد تُهان وتذل بعد موت الوالد. لاحقّ ليتيم ,ولا لامرأة فى عائلتنا.

- لا تتكلمى فى هذا الموضوع مرة أخرى.

● ● ●

-٢-

نحن سلايف لكن أكثر من الأخوات. هل يعجبك هذه الحال؟ رجالنا أفنوا حياتهم فى الحفر والزرع، وخيرهم لغيرهم: لأولاد صغار: واحد كفيف عاجز. والتانى صايع، وأبوهم يحبهم، ويمكن يكتب لهم الأرض. عيالك كثير، وفيهم بنات، وغيرك سيكوش على كل شيء. هكذا همست زوجة محمود فى أذن سلفتها.

- وماذا نفعل. أنا لا أستطيع أن أتكلم. الحاج أحمد عمى وربانى.

– أولادك أغلا من أى أحد. حتى لو كان أبوك. تصورى كيف تعيشون. لو تم ما يريده عمك.أتعملين عند زوجة الأعمى!!

● ● ●

-٣-

فى ساعة اللقاء الأسبوعى قال محمود المحمودى الابن الثاني.

– ما هذا القميص المشخلع يا بطة.. وكمان ريحه.. أنت لم تفعليها من ليلة دخلتك.

– لا أستطيع أن ألبس أو أخلع.

– لماذا؟

– لا آخذ راحتى فى هذا البيت. وبه رجال غير رجلى.

– لا أحد غير إخوتي.

– إخوتك أنت.

– لم نر منهم شيئا.

ربك على عبيده ستّار.

انتفض كمن لدغته عقرب. ماذا تقولين. ستار على ماذا؟

– لا داعى لخراب البيوت.

– تخْرب تعْمر. قولى ماذا جرى؟

– حاجات بسيطة.

– هل نظر إليك أحد منهم؟

– إن كان على النظر"زى بعضه".

لفّ يديه حول عنقها.

– إذا لم تقولى ماذا حدث فسوف أزهق روحك.

– أخوك ... أخوك..

– ماذا فعل؟

– وضع يديه على ظهرى. وحياتك . غصبا عنه. لم يكن يقصد، لا تكبر الموضوع، نغلق علبنا باب بيتنا.

– كيف؟

– بيت مستقل خاص بنا. نعيش وحدنا.

– وماذا أقول لأبى وأمى؟

– لا تقل شيئا أترك الأمر لى.

– ماذا تفعلين؟

– لا شىء. غيرنا سيفعل.

–٤–

شمرّت عن ساعديها... انكبت على الماجور.. راحت تضرب بقوة.

– على مهلك يا آمنة يا أختي. أنت شقيانة فى البيت وزوجك فى الغيط. كتب علينا الشقاء.. حتى أولادك كأنهم خدم.

– هم يخدمون جدهم وجدتهم.

– لو كان الأمر كذلك. لكنهم..

– ماذا تقصدين؟

– لا شيء. أنت حرة. لو مات الحاج الكبير أو كتب الأرض لأولاده الذين لا يفعلون شيئا. فستكونى أنت وأولادك خدما عند حريمهم.

– كله بأمر الله.

– ونعم بالله. لكنه لا يرضى بالظلم.

– وماذا نفعل؟

– لن أسكت على قوت عيالي.

–٥–

آوى محمود المحمودى إلى مضجعه.. قالت زوجته:

لا تنم قبل أن تغتسل وتغير جلابيتك ,منذ شهر لم نتمكن من غسلها. جلابية وحيدة. وغيرك يغير ويبدل. وأنت مكفى على وشك حتى يكاد ظهرك ينكسر. تتعب وتشقى لغيرك.

– لست وحدي. محمد كذلك.

– تعبكما لغيركما.

– لنا كلنا ولأولادنا.

– أنا سمعت كلاما آخر.

– ماذا سمعت ياأم العُريف؟

– يقولون: الشر بره وبعيد. سامحنى يا رب.. دا كلام الناس.

– ناس من؟ وماذا قالوا ؟

– سامحنى يارب.. ينقطع لساني.. لا أستطيع أن أنطق بكلمة مما سمعت.

– تكلمى أو اسكتى للأبد.

– خير إن شاء الله. لا تغضب نفسك ياابن خالي ,صحتك بالدنيا وما فيها. الزعل يشل الإنسان.وأولادك فى حاجة إليك. ونحن لا نملك إلا عافيتك.

– ماذا حدث؟

– الشر بره وبعيد.

– وبعد ذلك؟

– فال الله. ولا فالهم.

– من هم؟ وماذا قالوا؟

– يقولون إن الحاج. لا أستطيع أن أقول:

– اتخمدي.

– يقطع لسانى.

– سأقطع رقبتك إن لم تقولى.

- موّتني ولا أصدق كلام الناس.

جذبها رفع يده سأحطم رأسك.

- وهل هذا جزاء من ينبهك قبل أن تقع الفأس فى الرأس. ويمكن تكون وقعت.

-ليلتك طين.

- لست أنا من قال.. ولا من كتب.

جذبها بشدة

- أتركني واذهب دوّر على شقاك وشقائى وقوت عيالك. وابحث عن نصيبك.

نصيبى فى ماذا؟

- فى الأرض والسواقى والبيوت والبهائم.

- وماذا جرى لهم؟ كل شيء كما هو..

- يقولون.

- لمى خَلقَاتك وغادرى البيت فورا.

- وهل هذا جزاء من يريد مصلحة أولادك؟أنا لا أريد شيئا لنفسي.. سأعمل عندهم بلقمتي.

-كلامك يفور الدم. ويسمم البدن.

- الأولاد ضاعوا.

- من ضيعهم؟

- جدهم.

- لا إله إلا الله. ماذا فعل؟

- يقولون.. يقولون.

- قلت لك لمى خلقاتك.

- أنا لا أملك إلا هذه الهدمة. وجلابية الغيط.

– وماذا قالوا؟

– وحياة النبى لا تغضب حتى لا يصيبك مرض. الشر بره وبعيد. العيال محتاجين لعافيتك

– مرض.. موت.. خلصينى من العذاب.

– يحفظك الله. أين نذهب من بعدك. لا تزعل نفسك الأرزاق على الله. صحتك. حتى الآن. تساعدك على العمل عند أى إنسان. ولو عند إخوتك الصغار.

– وأرضنا أين ذهبت؟

– يقولون إن الحاج أحمد كتب ساقيتين واحدة للشيخ حسين. والثانية لعبده. وترك الثالثة لم يكتبها لأحد.

– سأهدم الدنيا على رأس الجميع.

– الشورة شورتك والقولة قولتك والخير خيرك وأنت التعبان. الشقيان.. وأنا لا أتدخل.. أنت رجل البيت وبيدك الأمر. أنا ولية مكسورة الجناح أسمع وأطيع ولا أتدخل.. أخدم فى البيت بلقمتى.. أخدم الصغير قبل الكبير.

–٦–

فى الغرفة المجاورة وضعت آمنة الخليلة يدها على رأسه.

– نمت يا أبا العيال؟

– لم يرد.

– أتركك تنام– أنت النهار كله شقاء وتعب. وإن كان الكلام لا ينتظر الصباح.

اعتدل.

– أى كلام؟ لا كلام عندنا غير الزرع والبهايم.

- ليتهم يدومون.

انتفض... ماذا حدث.. سُرقوا. ماتو. أنا متمم عليهم واحدة واحدة. ربنا يحفظهم.

- لو كانوا بهائمنا!!

- بهائم من؟

- ليس لنا فيهم غير نصف بقرة وربع حمارة.

- وهل قسمناهم؟

- ياليْت.

- والله ما أنا فاهم حاجة.

- حين كنت فى العزاء فى النجع الشرقى الشهر الماضى سمعت النسوان يتكلمون ويتغامزون عليك.

- وماذا عرفت من كلامهن.

- يا ليتنى مت قبل أن أعرف.

وانخرطت فى البكاء.

- إما أن تدخلى فى الموضوع أو تنامي.

- أصله يا ابن عمي.

- سأذهب لأنام مع البهائم أحسن.

- ليس لك مكان هناك. لا تزعل نفسك ربنا يعوض عليك.

- بواحدة غيرك. لأنام.

يقولون. منهم لله. إن الحاج أحمد المحمودى. أبوك يعنى.

- أعرف أنه أبى.

- لو كان أبوك بجد ما فعل ما فعل .

- وماذا فعل؟

- أحضر الخطيب وأعطى له الختم. وكتب أوراقا وختمها.

– هذه أوراق شركة على زرع بيننا وبين محمدين السوالمي.

– لا. هذا موضوع آخر.

– كفى عن اللف والدوران. أنا زهقت

– الحاج قال للشيخ.

وصمتت طويلا.

– اغْربى عن وجهي.

– قال: أنا خايف على الصغيرين من طمع الكبار. اكتب يا شيخ ساقية للشيخ حسين. وواحدة لعبده. واجعل ذلك سرا . بينى وبينك.. لكن الكلام تسرب.

– من قال هذا الكلام؟

– كل الناس عرفت إلا أنت وأخوك.

● ● ●

-٧-

فى السهراية استقبل محمد المحمودى شمس الشتاء.. أسند ظهره إلى حائط الساقية. وبخار الماء الجارى يتصاعد خفيفا.. وضع يده فى الماء الدافيء. غرف غرفة. قبض عليها. فتح يده فلم يجد إلا بللا. قلّب كفيه. تمتم. هذه آخرة الشقاء والكد والتعب.وممن؟ الحاج أحمد. أبى. وأخى وصديقى الذى يكبرنى بسبع عشرة سنة. كنا نلعب معا..

علمنى الجرى والتحطيب. كل الناس يظنونه أخى الكبير. يدى بيده منذ طفولتي: حفر وشق، وزرع. كد، وتعب وشقاء وعرق. كان دائما يقول:

– أنت أخى وصديقى وشريكى يا محمد.

– حتى جريه وراءها لم يكن أحد يعرفه غيري. سهراتنا الخاصة. جرينا وراء الغوازى فى الموالد. أخوتى الذين لا يعرهم أحد إلا أنا وأنت.

من وسط الشعير أطل محمود المحمودى عاقدا وسطه. ليس عليه إلا لباس طويل وبقايا قميص. يسيل عرقه عز طوبة. تسبقه رائحة.لا تفارقه. صماخ تبشر به. اختلطت فيها كل روائح الريف

– عيشة تزهق. الواحد عجّز ولا يستطيع التصرف كأنه طفل أو امرأة. النسوان أرجل: لا هدمة، ولا حتى صابونه.

دون أن يلتفت محمد المحمودى.

– ليت الأمر كان كذلك وفقط.

– ليس هناك غلب أكثر مما نحن فيه.

– هناك مصائب قادمة. ربنا يستر. سمعت كلاما لا يصدق. سمعت أن الحاج كتب عقودا لأولاده الصغار.

– والله لو كتب قيراطا واحدا لأى أحد. فسأهدم البيت على رأس الجميع. نحن أصلحنا وزرعنا قبل أن تولد العيال. فكيف نُحرم منها!!

– إجلس نتفاهم.

– لن أهدأ إلا بعد أخذ حقى كاملا كما أريد.

ألقى بفأسه. انطلق حيث كان أبوه وأمه يستقبلان الشمس.

– هاتى رغيفين وصحن رايب نفطر أنا ومحمود.

اقعد يا ولدى.

– لن أجلس إلا بعد معرفة حكاية الأرض.

– أى أرض يا ولدي؟

– الأرض التى كتبتها لعيالك وحرمتنا منها. لا بد من تقطيع الورق. هاتى الورق يا أمي. وسأحضر الخطيب فورا لكتابة غيره.

– لابد من تمزيقه وحرقه.

الوالد: نسمع ما فيه أولا ثم مزقه بيدك وبيد أخيك.

أنا الموقع أدناه أحمد محمد المحمودى المالك لثلاث سواق وما حولها من أرض وما عليها من زرع. وما ينبع من أحواش. والبيت الكبير. وما حوله من مساحات. أقر وأعترف أننى قسمت أملاكى بين أولادى على النحو الآتي:

أولا: الساقية البحرية وما عليها من أرض وزراعة ,وكذلك بقرة وحماره ومحراث وأدوات زراعة وهى ثلث ما أملك. وكذلك ثلث البيوت وأى ممتلكات تجد بعد ذلك. قد آلت من الآن ملكية كل ذلك إلى ولدى الثانى محمود أحمد المحمودى. وذلك عن طريق البيع. وقد قبضت الثمن كاملا. وهذا إقرار منى بذلك"

نكس محمود رأسه وانخرط فى البكاء وانكب على قدمى والده يقبلهما.

العقد الثاني. صرخ محمد أنا لا أريد شيئا يا أبى.

– قال الحاج أحمد. أنتم إخوتى ولستم أبنائى لكم أكثر منى. تسلموا أرضكم من اليوم وكل يزرع أرضه.

– لن نتركك يا أبى أبا .

– فليذهب كل منكما إلى زوجته فالحريم فى انتظاركما.

حين عادا إلى البيت كانت الحريم قد لحقت بأهلها.

● ● ●

٤– في انتظار الجَحْش

–١–

قريب من الساقية الغربية اقتطع المحمودى قيراطين. لفهما بعيدان الذرة وجريد النخل والسعف والليف. بلطّ الجميع بجواليص الطين المخلوط بالتبن. اكتسبت الأشياء تماسكا وصلابة. قسّم الحوش بعدة قواطع، فى الجانب الجنوبى المنتهى بجدار بيت (أبوالعَشَم)، كانت تقع حظيرة المواشى والدواجن. لتكون آمنة من اللصوص. فى الجانب الشمالى غرف النوم. وفى الغربى المطل على الصحراء شونة التبن. حصن الرجل

مملكته من جميع الجوانب...الجانب الشرقى المطل على بيوت بقية آل المحمودى للدخول والخروج.

كان من أهم جيرانه (أبوالعشم) لشهرته. ولا ترجع هذه الشهرة لجاهٍ أو سلطان أو مال. فقد كان الرجل متوسط الحال كبقية جيرانه، وهو ليس من آل المحمودى، بل من جيرانهم، تمثلت قوته ومكانته وشهرته أيضا فى (جحش) يملكه. كان أشهر شخصية اعتبارية فى القرية والقرى المجاورة.

متوسط الحجم قصير لكنه قوى متين. يحمل مالا يطيق غيره حمله، يعدو وعليه أبو العشم وحمل الطماطم وكأن لا شيء فوقه... يسبق الحمير جميعا.. قبل أن تصل الحمير بما عليها إلى سوق الطماطم البعيد يكون جحش (العشم) قد قفل عائدا، يلقاهم فى منتصف الطريق.

والأهم من ذلك شبقه الشديد. وعشقه لكل الحمير. وفسقه وفجوره. والحكايات التى تشبه الأساطير يضرب به المثل فى اغتصابه، وشذوذه أيضا. لا تسلم منه حمارة مهما كان وضعها، من عادة الحيوانات أن تشم بول الأنثى. ومن رائحته تعرف ما إذا كانت حاملا، أم لا. والذكر من الحيوانات لا يقرب الحوامل، بخلاف الإنسان والقرد وجحش (أبوالعشم) يلقى بما على ظهره وينطلق وراء أى حمارة. لا يثنيه عائق ولا حاجز ولا مانع. لا يكف عن الملاحقة حتى يعتليها، يطارد ويعض يقفز فوقها. يتمكن من عضها فى وسط ظهرها فتستسلم.

ظل يطارد حمارة السعودى من درب إلى آخر، والصبية يركضون ويهللون ،يتصايحون كأنهم يزفونه. لم تجد الحمارة أمامها من مهرب. قفزت فى باب الجامع الكبير، انطلق وراءها كالسهم. كان الباب الآخر مقفولا. تعثرت بين المنبر والمحراب تمكن منها. اتجه نحو الميضة مدّ رجليه. راح يرتشف الماء البارد. تزحلق فى الماء.

قال بعض الخبثاء:

– جحش طيب نزل يغتسل.

– تصدق بالله فيه ناس رأوه يصلى ركعتين.

حرام عليكم ياكفرة.

– دا أبوالعشم نفسه عمره ما ركعها.

– يخرج من ظهر الفاسق صالح.

كان جحش (أبو العشم) حديث القرى لعدة سنوات. بلغ من الشهرة ما لم يبلغه أحد من الناس ,من عادة الناس يسألون الرجل:

– من أى البلاد ياشيخ العرب؟

فإذا قال من بلاد المال كان السؤال الآخر حاضرا .... لا عن عمدة البلاد ولا شيوخها ولا أعيانها:

– أتعرف جحش (أبو العشم)

– ومن منّا لا يعرفه.

–٢–

اختفى جحش (أبوالعشم) الجحش ياناس.. أطلق مناديا وراء آخر.. فى الأسواق... فى القرى.. فى الخرايب.

– رأوه فى فرشرط .. فى البلينا.. لمحته فى مولد القناوى ... فى السيد البدوي. فى الحجاز

– أكلته الديابة.

– دخل بيت العتامنة وراء حمارتهم وسط الحريم. رآه (محمدين) وهو كاشف عورته ,ضربه بالفأس ودفنه.

– طارد حمارة.. دخلت القصب.. دخل وراءها ولم يعد..

– تاب وهرب إلى بلد لا يعرفه فيها أحد.

– أبو العشم سيبنى له مقاما.

- مدد ياسيدى. كل المقامات التى نزورها لا نعرف عنها شيئا. فى كل بلد تجد مقاما لسيدك العجمي. ولا أحد يعرف من هو؟ ولا فى أى المقامات دُفن؟

- الست خضرة الشريفة.

مدد.

- كانت فاتحة أكبر بيت فى نجع حمادي ,وكان اسمها وداد وبعضهم يقول إنها ناعسة.

- كانت ست خيرة تكْرم الفقراء والطلبة.

- كان الدخول عندها مجانا في رمضان مع وجبة سحور وتعميرة.

- ألف رحمة ونور.

- على من؟

- جحش (أبو العشم):

ظلت بلدتنا تحكى حكاياته. وأبو العشم ينتظر عودة الغائب. ويفتخر به. ظنه الأحفاد أحد أجدادهم..

● ● ●

-٣-

كل ما يقال عن قصة الجحش افتراء من نسج خيال الحاكين الذين زوّروا التاريخ، والحقيقة كما سمعتها من جدى المحمودى الكبير. ونحن أحفاد هذا الجحش. كان اختفاؤه حدثا جللا هزا الناحية كلها. ولا تزال آثاره باقية فى العلاقات بين الهلالية والمحمودية.

كان الهلالية من أغنى الناس فى هذه البلاد: أرض واسعة. حدائق. زروع. أحواش. بيوت قصور. خيل. بغال. حمير. أغنام. أبقار. جواميس. وكانت لديهم سلسلة من الحمير الهلالية ورثوها. كما يقولون، عن جدهم أبوزيد الهلالى. لها جمال الخيول، وقوة البغال، وصبر الحمير. القوام

والرشاقة والجمال قوام المهر. وعيون البقر ورقاب الغزال. ألوان جذابة: غرر فى الجبين ...,أهلّة فى الصدور... تحجيل فى الأرجل. كانوا يربونها كما يربون خيلهم. يعلمونها كما تتعلم، يطعمونها مما تطعم ,يضرب المثل بجمال عيونها ورقابها. يعتزون بنسبها وشرفها ونقاء سلالتها. من الممكن أن يطلب طالب يد واحدة من بناتهم. ولكن منذا الذى يحلم بقلادة واحدة من حميرهم؟ يعيشون فى عزلة مكتفين بما لديهم من مال ورجال فى نجع خاص بهم. ليس بيننا وبينهم أىّ علاقة .لا مرور لنا عليهم. لا يعلم الناس ما الذى رمى بجحشنا حول بيوتهم.

أبوابهم مفتحة. لا يجرؤ غريب أن يقترب. لمح جحشنا هلالية تتمايل تقطف مما تشتهى. اندفع نحوها كالسهم. كانت فى أيام شبقها. استقبلته. قبل أن يتمكن منها كان ملقى على الأرض لا يقوى على الحركة. سحبه الرجال. القوا به بعيدا... بعد أيام عاود الدوران حول منازلهم. أطلقوا عليه كلابهم جرحته بأنيابها ,وأظافرها. سالت دماؤه. فر هاربا.

حاول أبو العشم أن يمنعه فلم يستطع.. قفز من السور القصير. ظل يحجل فى قيوده. طاردته الكلاب آوى إلى ربوة ذات قرار مكين... ظل يرنو إلى أبوابهم يسترق السمع. يختلس النظر. يستنشق النسيم القادم من هناك. طال جوعه وعطشه. كلّ بصره. ضعف سمعه. اختلطت عليه النسائم خر راكعا. انقلب على جنبه. مات جحش أبو العشم.

-٤-

– لن أتقبل عزاء قبل أن أثأر له من قتلته. أو افتدائه بأكبر جحش من جحوش الهلالية وذكره باسمه. رفض الهلالية واستعدوا للقتال.

– قال عبد الرحمن شيخ بنى هلال.

–حقنا للدماء. خذ أحدنا مكانه.

صرخ الهلالية: لن يكون. نعوضه مالا. فليأخذ ما يشاء من مال.

– صاح أبو العشم.

معاذ الله مال الدنيا كلها لا يسد فى الغالي.

– تمتم سيد الزفر:

غالى عليه. لأنه أخوه من الرضاع. رضعا من حمارة واحدة.. لم يكن أحد يعرف من منهما الجحش.

قال الراوي: رحم الله العشم فقد كان بغلا حقيقيا يحمل من الأثقال ما لم يقو عليه بغل. كان يفكر بعقل عصفور. تزوج الراجحية امرأة ضخمة لا أحد يعرف على اليقين من أين جاءت. كانت تحسن التصرف فى الأمور كلها. أنجب العشم منها أربعة غلاظ شداد. بسواعدهم وعرقهم كونوا أسرة العشماوية. فى الأسواق. فى الحقول فى الموالد. التحطيب. سباق الخيل. أنت واجد واحدا منهم.

نهض المحمودى الكبير. صمت كل المحمودية:

أقبل الدية ياأبا العشم حقنا للدماء.

قال أبو العشم:

– ثلاثة فدادين كما أخذ الهلالية فى كبيرهم.

صاح المحمودي:

– اخرس. هو فدان واحد.

وافق الجميع. سجل المأمور وقائع الصلح.. ظل الفدان إلى الآن يعرف بفدان الجحش ،بعد أسبوع أشيع أن عشيقة جحشنا ماتت رحم الله الجميع.

● ● ●

–٥–

توافد الناس من القرى المجاورة. شيّع الشهيد ،كما أطلق عليه صاحبه، فى موكب مهيب. يتقدمه مدير المديرية والموسيقا الجنائزية. شيّع إلى مثواه

الأخير. دفن فى مقابر المحمودية.. فى الصباح نبتت نخلة طولها لانهاية لها سعفها عريض ملون. لها طلع نضيد يتساقط رطبا جنيا. واحدة منه تشبع جائعا. تَشفى من كل الأمراض. يخرج منها ليلا نور يبصره أهل البر الشرقي. تكاتف الأهالى والحكومة والأوقاف والأزهر وبنو المقام والمسجد والساحة. فى موعد استشهاده يحج إليه الناس من كل فج عميق.

– كان فاسقا فاجرا يستحق الرجم.

– مات منتحرا ؟

– مات شهيد الحب والغرام؟

– هل غسلوه وكفنوه؟

– هل صلوا عليه فى الجامع الكبير؟

– ولكن أين المسجد؟ وأين النخلة؟ وأين المقام؟

– يقال إن رجلا فاسقا وامرأة بغيًا فسقا فى المقام. فخر عليهما السقف من فوقهما. وغارت بهما الأرض من تحتهما. اندلعت الشماريخ نيرانا. تساقط الرطب جمرات. طارت غربان تحمل فى مناقيرها جمرات. لم يتبق إلا هذا الحائط. يطوف به الناس وينتحبون. يهتفون داعين. مهللين مدد ... مدد.. مدد يا صاحب المدد.

● ● ●

٥– رُطَبًا جَنيًا

– هلت بشائر الأحمر، والأصفر.

– عن أى شيء يتحدث الشيخ.

– لا حديث له إلا النسوان.

– نسوان لا كنسوان بلدنا:

الطول الطويل، والغصن الرطيب. جذوعهن النضار. الجمان على صدورهن ,الليف الأصفر كالذهب، تماوجت عليه شمس الأصيل كاللهب. طلعهن اللؤلؤ والمرجان. يتمايلن.. يتراقصن تهفهف شعورهن فى كل مكان، صامدات باقيات على الدوام. صابرات على الأزمان صامدات على الأيام. الأصول كارعة فى الماء، الفروع ضاربة فى السماء. تشمرخت الشماريخ، تعنقدت العناقيد، سال الشهد.. رضع الطير، مصمص، مزمز. حلمات أبكار. رضاب أطهار.

– لا فض فوك يا ابن النجار.

– أفصح يابن ست الدار. المصطلية أمام جمر النار. من غير رداء ولا إيزار.

– كف عن العبث. عن الهزار.

أصفر الصفار. أحمرٌ الحَمار.

– ابن يا ابن قاضم الخيار؟

– غُلب الحمار.

– كفوا عن النقار

– أبا الفضل قل:

صنوان وغير صنوان..

باسقات لها طلع نضيد.. رزقا للعباد. ونحن عباد الرحمن سنهز الجذع هزا يساقط علينا رطبا جنيا

– نخل ابن عيسى من ماء النيل شرب.

امتدت الجذور، غاصت فى الحمأ المسنون. ارتشفت مياه العيون، استحلبت مياه الصخور، رضعت أنقاه وأصفاه. تمايلت السوق، على عزف الرياح... رقصت الفروع. طالت فى الفضاء، علت فى السماء، زقزقت عصافير. نعقت غربان.

قال النجار.

– وصف النخيل ورد فى القرآن أكثر من عشرين مرة.

– وماذا يعنى هذا يا مولانا؟

النار والجحيم وجهنم وصقر. وكل أسماء النار أكثر من الجنة... الشياطين أكثر من الملائكة.

– ذِكْر عن ذكر يفرق.

قال الشيخ حسين المحمودي:

– العباسيون وحدهم. لا تسعهم نار عرضها السماوات والأرض.

قال الشيخ الحداد: فما بالكم بالمحمودية!!

قال مولانا أبو الفضل

سأسمعكم أبياتا لشوقى من أجمل ما حفظت

– قل أبا الفضل لا فض فوك

– يلعن أبوك

– لا تتحدثوا ياأزهرية بالإنجليزى كلمونا بالعربية:

تَطول وتقْصُر خلفَ الكَثيب إذا الريح جاء به أو ذهبْ
تخال إذا اتّقدتْ فى الضحى وجرّ الأصيل عليها اللّهب
وطاف عليها شعاع النهار مِن الصّحو أو من حواشى السُّحب
وصيفَة فرعون فى ساحةٍ من القصر واقفةٌ ترتقب
قد اعْتصبتْ بفصوص العقيق مُفصلّة بشُذور الذهب
وناطت قلائَد مَرجانها على الصدرْ واتّشحت بالقصب
وشدت على ساقها مئزرا تعقّد من رأسها للذنب
هذا هو النخل ملْك الرياض أمير الحقول عروس العِزَب
طعام الفقير وحلّوى الغنى وزاد المسافر والمغْترب

– شوقّنا الشيخ للبلح الطرى– الرطب الجنى.

- سأطعمك منه يا شيخ على.
- متى يا شقي؟
- الليلة يا زكى.
- الليلة.. الليلة؟
- قبل أنم تقوم من مقامك البَهي.
- تمر ابن عيسى كتمر أم عيسي، يتساقط. عليك رطبا جَنياِ.
- وكيف الوصول إليه يا ابن الجنيه؟

-٢-

من ليف نخيله فتل حبالا، ومن سعفها. خاط قففا ومقاطف. وكل ما ينفع الناس. ومن جريدها قفص القفاص أقفاصا.أحجاما.. أشكالا.أرائك.. أسرة..مقاعد.

- طلع طلعها العجيب.. نضج نضجها النضيد عقيق فى آذان الغيد.. كهرمان في جيد الحبيب.. هلت بشائره قبل نضيح التين والعنب.

- أبو عيسى سينهال علينا بالمراكيب

ويجعل وقعتنا طين..

كان نخالا ماهرا. يؤبِّر كل النخيل. يتسلق أطولها.. يدور حولها.. يطوقها.. يزحف كالثعبان.

هلت بشائرها. استل من بين سعفها وسلائها. وجريدها. وشماريخها بلحة

فرد ظهره ,مد يده عن أخرها... بالسبابة والإبهام والوسطي. قبصها ضم شفتيه. مد بوزه. بصوت مسموع" باسها" تأملها. انفرجت أساريره. فتح فاه. تلمظ.. سال لعابه. دسها في" عبه" مثنى وثلاثة ورباع.. توالى الكهرمان.. تتابع المرجان. عبعب العب. حاملا متم.

هبط يتحسس أصابعه ,كأنما يحمل بيضا.. الشمس على يمينه.. والقمر على شماله.. كنوز الدنيا فى عبه.

أسند ظهره إلى جذعها، فرد رجليه، بعناية شديدة. فى طبق الخوص مهد المهد للطلائع ,غطاها.

– أعطنى بنصف قرش.

– بيضتين

– بيضكم كبير ياشيخ حسين.

بلح واحى ياعم أحمد.؟

– الواحى لم ينضج بعد.

كثر تردد العميان. أطالوا الجلوس والتحسس.

-٣-

قال الشيخ حسين: أصغرهم سنا وأكثرهم شقاوة.

– هذه هى التى نضج ثمرها، وترطب رطبها، ووجب لحسها ومصها وزلطها. الليلة..

– الليلة؟

الليلة.. الليلة. سأتسلقها كالفأر، سأزحف كالثعبان.

قال الحداد:

– الليلة!!

– كيف ستعرفها؟

– سأدق فيها مسماراً. نتعرف عليها ليلا:

● ● ●

فى اليوم التالي. بقايا بلح متناثر. جز اللصوص سباطة كاملة. لم يحدث قبل ذلك. حرامى غريب؟ يسرق فى بلدهم ,كل البلاد بها نخل.

هكذا حدث أبو عيس نفسه.

– كل زباين البلح أطفال: بنات وصبيان، يقذفون حجارة، يلقون طوبة، العميان غلابة، يحفظون كلام الله، السرقة لا تتم إلا بعد زيارتهم.

– لن أكون بخيتة ثانية. ماتت ولم تعرف من سرق بيضها.

راقب كل داخل..كل خارج.. كل مار بالطريق.

– ابن المحمودى يتسكع. يتحسس النخلة، يدور حولها.

نادى عدة مرات:

– ياعم احمد يا–أبو عيس

لم يرد أحد .

– لا أبو عيس ولا أبو جاموسة

أخرج شيئا من جيبه، غرسه فى النخلة.

– مسمار يابن اللئيمة. ياأعمى الكلب. هكذا تُعلم النخلة..

استل ابوعيس المسمار، دقه فى جذع نخلة منقعر.قطع رأسها . لم يتبق إلا الساق الطويل.احتفظ بها، تصرف النظر تمنع الحسد.

تحسس المحمودى الجذع، احتضن السباق، تسلق... أسرع كأنما يرقى إلى السماء بسلم. بكل قوته طوح بيمينه، احتضن الهواء، عانق الخواء. سقط.. ارتطم بالأرض، ساكنا.

تحسس العميان السّباطة.

– لحم.. دم.. مات الشيخ حسين.

سقط من على النخلة.

– قتله أبو عيس، ونحن على ذلك من الشاهدين.

الفرار.. الفرار.

– المحمودية مخهم ناشف. سيصدقون شهادة المشايخ. هكذا ناجى أبو عيس نفسه!

كمش يراقب لم تصدر عنه نأمة.

لم نكن بالبلدة، بتنافى النجع الشرقي، نُحيى ليلة قرآنية.

– كل المشايخ سيشهدون.

– سنأخذ أول قارب . الآن. سيتحرك فى الظلام بعد ساعة سنكون هناك. نبيت ليلتنا.

تأكد أبو عيس أن الفتى لم يمت، وأنه مغمى عليه. لبد فى قارب صديقه. لا يشعر به أحد .

– من عادة المراكبى حين يصل.

ينادى البر:

– الشط يامشايخ:

فى عرض المياه، وسط اللجة، صرخ

– وصلنا يامشايخ.

فى لحظة تدافعوا وسط المياه، يحسبونه الشاطئ.

أمسك المراكبى بالشيخ الكبير. تفلت الشيخ

– دعوتى ألحق بزملائي:

ألقى بنفسه فى الماء. أنقذوهم من الغرق.. طافوا بهم. افتضح أمرهم.

هز أبو عيس رأسه إعجابا

– لن أكون بخيتة أخري.

● ● ●

٦–المحمودى

–١–

لم يكن المحمودى لصا ،لكنه كان صديقا لكل اللصوص. فأغلبهم من هواة التحطيب. ومع شهرته كان شديد التحفظ فى علاقاته. منكبا على زراعته ومواشيه التى يعلفها ويجوب بها الأسواق. كان بيت المحمودى آخر البيوت المجاورة للصحراء، قريباً من الجبانات.

بعد صلاة العشاء تنعدم الحركة فى القرية. لكن عين المحمودى لا تكاد تغفو.

- سأغفو قليلا. تنبه ياحسين. إذا سمعت حسا أيقظني. فالبيت مليء بالمواشى ياولدي. وليل الشتاء بارد وطويل ومظلم، فرصة للصوص المواشي.

كان المحمودى بقارا وجمسيا وخيالا وحمارا أيضا. خبير بالأعمار والأوزان والمواصفات والأسعار.. يستعين الناس به فى شرائهم وبيعهم فيهرع إليهم دون مقابل.قليل الكلام وقورا. ليس صخابا ولا حلافا. يرى الصدق والكرم والأمانة عنوان الرجولة.

يتشدق أهل قريتنا بالقيم النبيلة. لكن شظف العيش لا يساعد كثيرا منهم على شيء من ذلك.

تجاوز العشرين واكتمل قوة وشبابا وفتوة. وبدأ يتبوأ مكان والده ومكانته فى كل شيء إلا التحطيب. بيد أنه كان بطل رفع الأثقال: أجولة الحبوب والكيماوى وأحمال الرمال والأحجار. اعتمد عليه والده فى كل شيء بعد أن ترك التعليم واستقل إخوته بزراعاتهم.

بعد منتصف ليلة شتوية شديدة البرودة ,دامسة الظلام ,سمع الفتى حسا يتحسس.. حركة مبهمة خلف السور الغربي.

- هناك حركة غريبة ياأبي.

تسلل الوالد. دار حول السور لمح ظلاما مكوما على الأرض وأشباحا حوله، ظنه قتيلا يوارى فى التراب وكثيرا ما يحدث. تقدم فى حذر. سعل. سمع حركة سلاح.. تراجع... طال وقوف الأشباح. اشتدت حركة السلاح. صوب بندقيته. هتف:

من هناك!!

- ومن أنت؟

– أنا صاحب البيت

– ومن صاحب البيت؟

– أنا المحمودي..

– أنا الخالدى يامحمودي.

– وما الذى أتى بك فى نصف الليل.

– جئت ألاعبك.

تقدم المحمودي... بقرة باركة على الأرض.. حولها أربعة رجال.

– أولاد الذين طلبت منهم كيلة قمح. طردوني. وأنت عارف ثأرى ممن يظلمني. من شدة الإعياء سقطت البقرة ولم تستطع أن تكمل المشوار. تعاون الرجال على حملها. تأبط الفتى الضرير نصف البقرة واندفع إلى الداخل ,والرجال يحملون النصف الآخر:

– من هذا يا محمودى؟

– حسين ولدى.

– لم نره معك فى مولد ولا تحطيب. اتركه لنا نعلمه الصنعة.

همس فى أذن الخالدي.

– إنه كفيف.

بُهت الذى سرق.

● ● ●

–٢–

كان البيت الجديد منعزلا لا يدخله أحد، ولا علم لأحد بما فيه، والمحمودى يتردد على الأسواق، يبيع ويشترى، يصحبه هذا الفتى العملاق.

– ماذا نفعل فى هذه البقرة ياحاج؟

– سنعلفها ونبيعها للجزارين.

– وماذا يفعل بها الجزار؟

يذبحها ويبيعها لحما. ويكسب منها أكثر مما نكسب.

- وما الفرق بين ذبح خروف العيد وذبح البقرة؟
- لا فرق ياولدي. ماذا تريد؟
- أريد أن نذبح البقرة وتخرج من بيتنا لحما نبيعه لحسابنا.

كانت فكرة الفتى الضرير نقطة تحول فى حياة المحمودى.



-٣-

بعد عدة شهور طرق المحمودى باب عبدالمجيد الخالدي.

- من؟
- أنا المحمودى.

هُرع الخالدى حافى القدمين، حاسر الرأس، احتضن صاحبه فى عناق طويل.

- كنت فى السوق القريب . قلت الرجل واحشني. أشرب معه الشاي.
- شاي، وغداء ,وعشاء.

وماذا يحمل الفتى؟

- شمام وبطيخ ,وبصل وطماطم.
- لماذا كل هذه التكاليف؟
- كله من زراعتنا.
- هو أنت زارع لحمه؟
- هذا من لحم بقرتكم.
- أى بقرة يارجل؟
- البقرة إياها.
- يارجل. وهل كان فيها لحم؟
- علفتها: فولا وشعيرا وكُسبا... امتلأت لحما وشحما، ذبحتها وسلختها وقطعتها وحملناها إلى السوق. قبل أن ينتهى الجزارون من الذبح والسلخ. انتهيت من بيع كل اللحم. كان الزبائن فى انتظارى.

- سنغديك منها اليوم.
- أنا لا آكل اللحم الحرام.

ضحكا معا.

- خصمْتُ التكاليف. وهذا نصيبكم.
- هذا كثير جدا.

من الآن أنت والشيخ حسين النصف بعد خصم التكاليف.وسنملأ لكم الحوش بما تحتاجون.

توالت الأبقار ,استمر العلف والذبح والبيع ,ذاعت شهرة اللحم المحمودى.

- الحلال ثمنه فيه.
- فى كل عيد يذبح بقرة يوزعها على الفقراء.
- وعد يذبح بقرتين فى العيد الكبير.

توسع الشيخ حسين فى نشاط والده توسعا كبيرا مع جيل جديد من أولاد الخالدى والشايب.

● ● ●

-٤-

لم يفطن المحمودى لتلاشى وجوده فى البيت.. لم تعد الكلمة كلمته. ولا الشورة شورته. ذابت رجولته. انكمشت هيبته. استغنت المرأة بأولادها. لم تعد تهتم به .. شاب رأسه. وقل ماؤه وييبس ظهره. ولا تزال بها بقايا امرأة. إذا شاب رأس الرجل ,أو قل ماؤه ,فليس له من ودهن نصيب.

كانت امرأة شديدة الشبق تُقبِّل يديه ورجليه كل ليلة. تتفنن فى الإغراء والإثارة. لا تنام إلا إذا جلد الرجل بها الأرض جلدا. وهى تفاخر بذلك. كان قويا ضرابا تتغامزه النساء.

– صحيح أن الشباب لم يعد كما كان. لكن لم يمت.

جلس حزينا على فقد هيبته. على الرغم من مبالغتها فى العناية به. لكنه يحس أنها تجامله ,لم يعد قلبها ينبض رغبة. وجسدها يرتعش خوفا ورهبة. إن توددها لا يعدو ترحما على ميت. مع أنه لا يزال حيا.تملكته فزهدت فيه.

ويل لرجل تتملّكه امرأة. كلما تقدم السن زاد التعلّق بالمرأة. واّتسع زُهد المرأة فى الرجل. هو يريد أمًا ,وهى تريد ذكرا.

تسلل إلى أذنيه!صوت مزامير.. ضرب دفوف.. دق طبول.. أصوات تهتف " سُو يا سُو" !

وهى كلمات تقال عند بدء لعبة التحطيب.

انتفض ملقيا عن كاملة عبء السنين وغبار الأيام، وقهر الزمان, ونظرات النسوان، نهض.. هُرع إلى نبوته الذى كاد ينساه.لم يحمله منذ زمن.

إلى ساحة المسجد الكبير ,,شق الصفوف والناس يهتفون!

– والله زمان يا محمودى

– فين أيامك يا أبو الرجالة.

امتلأت الساحة تصفيقا، زغردت النساء، ارتفعت المزامير.. تعالت الطبول، تقدم لاعبون كل يريد أن يحظى بمنازلة الرجل الذى كان بطلا. ولكن ماذا بقى منه ومن نبوته؟

لم يكن هدفه اللعب كما كان. بل كان هدفه التخلص من حالة نفسية متردية. وليثبت لنفسه أنه لا يزال على قيد الحياة، وأن به بقايا رجل قديم وإن أنكرته المرأة.

أحجم الشبان احترما لتاريخ الرجل. وخجل الشيوخ من تركه وحده فى ساحة النزال. تقدم واحد منهم مجاملة، وهو ينوى أن يتظاهر بالهزيمة.

أحس بما يدور فى نفوس الرجال تغامز شبان.

- سألاعبكم جميعا.

توالت الرجال، وهو يصول ويجول كالأسد، يحطم أى نبوت ينازله.. لم يقو أحد على الصمود بضع دقائق. مع أول نبوت يهوى به الحاج أحمد يخر الآخر جاثيا على ركبتيه. لقد بدا الرجل يقتص من الزمن، وينتقم من المرأة، ويثبت للناس جميعا أنه لا يزال فتى القرية الأول، وانه عصى المنال، وأن نبوته سيد النبابيت. كاد الرجل أن يحطم كل شيء كالجمل الهائج.

أحاط به الناس. سكت المزمار. ضموه إلى صدورهم عاش البطل عاش المحمودى.

انخرط الرجل فى بكاء شديد. زفتّه الجماهير إلى بيته.

استقبلته بالزغاريد والأحضان والتقرب والتودد، بعد أن كانت قد نسيت أنها امرأته ,وأنه رجلها، نسيت اسمه. وصار الحاج الكبير. الرجل البركة. تكاد تترحم عليه.

فى المساء أعدت طعاما خاصا لم يره منذ سنوات، تخيلت ليلة دخلتها وما تبعها من أيام. تزينت وتمشطت ولبست قميصا جديدا ,وهيأت المكان لتنام معه فى حجرته التى تركتها منذ زمن .. ذهبت تسخن العشاء. عادت وجدته غلّق الأبواب من الداخل .

لم تفعلها مرة أخرى.

-٥-

ضعفت همته. كل بصره، عرف طريقه إلى الجامع .

- حفظنى الفاتحة ياولدي. وكم سورة. علمنى الوضوء والصلاة. وأنا أحكى لك كلاما لا يعرفه أحد غيرى . تاريخ البلاد. الناحية كلها.

فى نهاية كل حكاية يقول المحمودى!

- رحم الله ناسك. عشنا عل حسهم ,كانوا كبارا. لم يكونوا طماعين. أسياد البلاد بحق.

مات المحمودى وسره معه. ولم أفهم حتى الآن علاقته بناسى الكبار.

● ● ●

الفصل الثانى

الجِرْجاوِيَّة

١- قصر الباشا.
٢- العوامِرى.
٣- فؤاد الجرْجاوى.
٤- الشرقاوى.
٥- البَرديسيِّة.

١- قصر الباشا

-١-

لأول مرة يَرى الكهرباء.عربات الرَّش ,البطاطا..البخار المتصاعد. رائحة الفلافل تشق جمجمة الغلام اليتيم.. الباذنجان يُطشْطش. يْشكشك. البنزاهير يلسع الحلق. ارتشف الكوب. مصمصه ,لحس حافتّه. كتم تكريعة.

الفقر أبو التواصل. الغربة أم التراحم. كلما اشتد الجوع تقارب الناس. كلما قرص البرد تعانق الصبيان؛ يدفئ بعضهم بعضا.

أحسوا الدفء. رفسوا الغطاء. ضمها إليه. أدفأها. تمددت.. لدغتة. انسلّت.. انسابت..تتهادى.

تربع الشيخ الكبير على فروْته. مدّ يدا معروقة ,حرك أصابع كأنها مراود مكاحل. نقر عدة مرات على غطاء حُق (الساعوط) المحوّج. قبص قبصة بالسبابة. والإبهام- رفع ذقنه قليلا، دفع بالقبصة داخل خياشيم دقيقة كأنها خياشيم السمك ,استنشق عميقا ,شفط عاود الشفْط والشن، حرك الأرنية شمالا..يمينا. قلص شفته العليا. حرك أنفه عدة مرات. أخرج منديلا كبيرا. عطس. لا يجرؤ أحد على تشْميته..

دارت فناجين القهوة على الأعيان الوافدين من الأرياف لاستقدام قارئين فى رمضان. تبادل القراء التلاوة. الأعيان يستمعون. يختارون. يساومون. قبل بدء الشهر الكريم يخلو جامع المنزلاوى من القارئين.

● ● ●

امتلأت المدينة بالأنوار.. علُّقت الزينات.. أقيمت السُّرادقات.. فتّحت أبواب المساجد.. بدت المآذن كأنها ألسنة اللهب.. اشتعلت القصور والدور والحدائق نورا. جأر القارئون. ترنّم المنشدون- امتدت موائد المحسنين...

-٢-

إلى القصر الكبير الممتد عل طول الضفة الغربية للنيل توافد الناس على السماط المنبسط بين الزروع والورود تظلله الثريات المعلقة على جذوع النخيل الباسقات. تعانقت أنوارها الممتدة بالرطب الجني.. مُدّت سلاسل النور أسفل الجذوع الكارعة فى أمواه النوافير وأحواض الياسمين.

أغادير اللجين تتماوج يضرب بعضها رقاب بعض يكاد سنا برقها من شدة لمعانها وصفائها ,يضيء ,وقد انعكست عليها الأشعة المتجددة من أنوار الأعمدة فبدت سهاما من نار ونور. تجمّع الزبد كالعِهْن المنْفوش. تمايلت ظلال النخيل المنعكسة فى الماء...

أشباح راقصات خلف ستائر شَفيفة. تماوجت صورالنور والنوار, وعناقيد الكروم وشماريخ النخيل وما عليها من رطب ويابس ,وثريات مختلف ألوانها. ملاءات من الحرير رُصعت ياقوتا ومَرجانا.. غانيات تتراقص. تعددت ألوان.. تعانقت أشكال. تناجت أغصان.. عربدت أنوار...اصطفت نخيل فى تمام زينتها كأنها وصيفات فرعون. تكاد رائحة الطيب تشق عنان السماء.فبأيّ نعماء ربكم تكذبون.

-٣-

اصطحب الشيخ عشرى مساعد المحفظ عددا من زملائه.. شق بهم وسط المدينة.. ساروا جميعا فى طريق الكورنيش إلى ساحة القصر الكبير. قال الشيخ أبو بكر القادم إلى المدينة حديثا:

– من منكم أفطر هنا قبل ذلك يا مشايخ؟

قال عشري: كنت أصطحب أبى رحمه الله . وكان يقص على ماحكاه له أجداده عن كرم أصحاب هذا القصر.

– ومن أصحابه يامولانا؟

انبرى العوامرى:

– الشيخ الأنصارى يدرس التاريخ فى جامع السيوطي. قال:

إن أصحابه أسرة مصرية عريقة حكمت هذا الإقليم قبل الفتح العربى لمصر. وظلت تحكمه إلى عصر المماليك العبيد الذين اغتصبوا الحكم,ثم باعوه للبربر رعاة الغنم القادمين من أطراف الصحراء الغربية.

– واصل كلامه.

– هل سمعتم عن ثورة ١٩؟

– الشعب كله صار ضد الإنجليز.

– ومن هم الإنجليز؟ هوارة ولا فلاحين؟

– هم من بلاد بعيدة جدا.

– ولماذا جاءوا؟ أليس عندهم جامع يحفظون فيه القرآن؟

– هم عساكر: جيوش.. بنادق . خيل..نهبوا كل شيء.

– يخرب مطناتهم.

– ولماذا سكتنا عليهم؟

– خرج عليهم الجدعان: الشباب والفتوات وكل الرجال والنساء-بالنبابيت والمراكيب وكسروهم تكسيرا. وكان الفتوة الكبير رجل اسمه سعد زغلول، ومعه صعيدى جدع اسمه فخرى عبد النور. هو صاحب هذا القصر.

– قال أبو بكر: كانوا قبل النبى ولا بعده؟

–٤–

ضربتهم نسائم الريح الناعمة الطرية. محملة بعبق الشي. والقلى والطَّشّ.. تمايل المشايخ. ترنحو.

قال الراوى :

– وترى المشايخ سكارى وماهم بسكارى.. ولكن الطعام لذيذ.

رُصّت الموائد.. صُفَت الأواني. اصطفّ الصائمون والمفطرون. مسلمون ومسيحيون...

رفع الشيخ الأذان. طاف عليهم ولدان بأنواع من التمور.. وأشكال من الأباريق والأكواب.وألوان من الأعاصير. فرغوا من صلاتهم تحلقّوا حول الصواني. غاصت الأيدى فى مختلف الأطعمة التى اشتُهر بها آل عبد النور.

قال الشيخ البندارى. أكاد أبصر ماذا أرى؟

– قبل العيد سنبصر جميعا.

– جنة عرضها السموات والأرض.

– لو لم يكن من فوائد رمضان إلا هذا لكفى.

قال العوامرى:

– إنها دعوة سيدنا عيسى عليه السلام. تحققت مرة أخرى فى بيت واحد من أتباعه. قال عيسى بن مريم ((ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وأية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين)) وصاحب القصر هو آخرهم.

ظل الشيخ أبو العينين يصدح حتى مطلع الفجر. تسلل العوامرى.. فى ركن قصى من قهوة المعلم " طُزّة" كان الشيخ فؤاد يشد أنفاس السحور.

قال الشيخ فؤاد:

– صوما مقبولا يامولانا:

قال العوامرى:

– ونَفَسا مرفوعا ,إن شاء الله.

● ● ●

٢– العوامرى

–١–

كان المكتب المكان الذى ربط بينى وبين عميان بلدنا وظلت صداقاتى بهم قائمة. كلما زرت القرية أسَروا إلى بنوا درهم. ومغامراتهم. وكنت أقرأ عليهم بعض الكتب الذى كنا ندرسها فى الأزهر.

فى المعهد الدينى زاملت ثلاثة منهم: جمال البرديسى ومحمود العوامرى وفؤاد الجرجاوي. رفيقى فى الجامع الكبير. كان البرديسى متوسط الذكاء, قليل التحصيل ,لم يعتد الاعتماد على نفسه كزميليه، يعتمد على زميله وبلدياته سيد البرديسى. وهو شبه كفيف. وكان محل تقديرنا لقيامه على خدمة زميله الشيخ جمال الذى لم يكمل مشواره واكتفى بالشهادة الابتدائية التى أهلته للالتحاق بوظيفة مقيم شعائر فى بلدته، وانقطعت أخباره.

-٢-

تحلّقنا حول العوامرى الذى كنا نُلقبّه بالسامري؛ لكثرة مسامراته ,كان الرجل يجيد فن الحكي والقص والوصف والتشويق، يتركنا فى كل مرة ونحن نتوسل! أكمل يا عوامرى. أكمل وخذ ما تشاء .

– كلامى غال لا يُباع ولا يشترى. لا بدراهم معدودات. ولا دنانير مصكوكات.ولا سجائر ملفوفات

– بحقنا عليك. حق الزمالة والصداقة والمحبة.

– بالحب وحده أنت غالى عليّ.

كان العوامرى يحفظ أغانى أم كلثوم وعبد الوهاب بألحانها. بيد أنه لم يكن مطربا. يحفظ النص من سماعه مرة واحدة ولا ينساه بعد ذلك.

– إكراما للزمالة والصداقة سآخذ منكم نصف ثمن التذكرة.. ثلاثة قروش فقط.

– ستقول شئت أم أبيت وإلا ويعلم الله ما بعد إلا.

قال العوامرى: من يُطلع عيّلا على سره– يعش عيّلا. ويمت عيلا ويحشر فى زمرة العيال والغلمان.

وقبل أن ينوه العجوز بما كان يشاع عن مزاجه النواسي. استدرك العوامرى.

- وحسن أولئك رفيقا.
- ضحك الجميع.
- بلسانى لا بلسان الشيخ العقور.

قال العجوز:

- أى لسان تعنى؟؟
- لسان الحيزبون. وإلا أيضا...
- كان العجوز يساكن امرأة عجوزا. وكان متّهما بها.

قال الفتى الوسيم عزت:

- هل صحيح ما يشاع عنك ياصديقى.

قال العوامري:

- لو لا أنتم لكنا مؤمنين.

قال الشيخ كمال:

- العوامرى رجل طيب. لا تصدقوا الشائعات. "إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم".
- همس آخر.
- فى الذين آمنوا!!
- قال العجوز:
- الرجل أعلن توبته. وأنا على ذلك من الشاهدين.
- قال العوامرى:
- صدق العجوز: كنت قد وعدته بذلك فى آخر لقاء معه. توبة بعد هذه النوبة. لكن ذلك لم يحدث.

انهال العجوز عليه لكما وعضا.

-٣-

كانت السينما تعرض فيلما جديدا كل يوم اثنين. وهى السينما الوحيدة فى

الإقليم. لذا كان الإقبال عليها كثيفا جدا. وبخاصة فى اليوم الأول ,وكان العوامرى يصر على دخول الحفلة الأولى. يقف فى الطابور ساعات. الويل لمن يتخطاه.

تدخل العم مفتاح حارس الباب لفض العراك بين العوامرى وشاب جرجاوي. أمسك العوامرى بتلابيب الشاب. كاد يكتم نفسه. لم يستطع أحد أن يخلص الشاب من قبضته. حملهما مفتاح وذهب بهما بعيدا.

– فجأة وجدت نفسى معلقا بين السماء والأرض. حاولت أن أمسك بشيء من هذه الرافعة. أى مكان للخربشة. العض. الرفس لم أجد، تعاونت مع زميلى المرفوع معى فلم يجد ذلك خلاصا. تحسست... رأس جاموسة. بصوت مسموع. حياة أبوك ياجاموسة. سمعت قهقهة اختلط فيها خوار العجل بنهيق الجحش بصهيل الخيل، فى رفق شديد وضعنا تحت أساس الحيطة.. ومضى.. بعد عشرة دقائق عاد. أنهضنا .. أخذ بأيدينا. مد يده بكوب من عصير القصب.وتذكرة لكل منا– كانت صداقة العمر. لم أقف فى طابور بعدها. تولى عمّى مفتاح مهمة إدخالى السينما.

كان العم مفتاح رجلا فخما ضخما مهيبا. تحبه وتحترمه وتهابه.. أعتقه عبد النور الكبير فى من أعتق من عبيد، وأقطعه أرضا ظل على ولائه ومنها خفارة هذه السينما.. عمّت شهرته محافظتي سوهاج وقنا. كان سيدَ كل حلقات التحطيب بلا منازع. عَمّ الجميع ,على الرغم من حداثة سنه.

سار العوامرى علي كورنيش النيل يرافقه مفتاح .الشيخ نحيف رفيع وسيم خفيف ظريف– اعتاد الناس رؤيتهما معا.. كونا ثنائيا : الفيل والنملة.

– فيمَ تتحدثان؟

– قال العوامرى:

– أعلِّمه التحطيب.

بعد عام من صحبة العوامرى. أتم مفتاح حفظ نصف القرآن.. لم يكن مفتاح المهيب يهاب أحدا كهيبة العوامرى الذى علمه القرآن.

– أين مفتاحك ياعوامرى؟

– سيحضر ياقفل.

-٤-

قال العوامرى:

– فى فستان ناصع البياض قصير فضفاض به خطوط حمراء. بدت شادية كأنها فراشة تقفز من بستان إلى آخر.. صدر أملس ناعم لامع كالمرمر ,انغرست فيه رمانتان. كادت حلمتاهما تخترق الفستان ,أحسست بهما تخزقان عيني.. تخيلت طفلا يرتشف حبة من عنب برديس. انجعصْت على الكرسي. أسبلت عيني. أغفيت.

– لسنا فى حصة تعبير شفوي. استيقظ يارجل

نصف ظهرها عار. لم أستطع أن أرفع بصرى.. صعدت.. هبطت.. شعر قصير ناعم فاحم. تُحرك قُصتها فتخفق كل القلوب.. خَصْر كالمبن. عجيزة سبحان الخراط. تنزل العابد من أعلا الجبل. والزاهد من على المنبر. قوالب زبده– أقماع سكر. حاولت أن أرى ما تحت الفستان. لكن الظلام منعنى. صفق الناس وهى تغنى سوق على مهلك سوق.

والا كمال الشناوي. وشنبه. وبدلته– وحذاؤه. أبيض فى بنى.

– أكمل.

دق الجرس

"ذا إنذ" عصاة الشيخ تلحس قفاى.

٣- فؤاد الجِرْجاوى

-١-

ينتمى الشيخ فؤاد الجرجاوى إلى الطبقة المتوسطة من تجار المدينة: مدينة العلم والمال والقرآن.. اعتاد منذ الصغر أن يشق طريقه معتمدا على نفسه.. بمرور الأيام اكتسب خبرة بالحوارى والأزقة والدكاكين ,وتمييز الأصوات ولمْس الأجساد. وشم الأشياء. استعاض عن فقد الإبصار باستغلال أقصى ما تمده به طاقات الحواس الأخرى. فأبصر بأذنه ويده وأنفه وقلبه ولسانه ووجدانه. وخطواته التى حددت مواقع محلات التجار فى السوق الضيق الطويل الذى يخترقه فى غدوه ورواحه. يلقى السلام على كل صاحب محل لحظة وقوع قدمه فى منتصف باب المحل. لا يستقدم قدما ولا يستأخر أخرى عن عتبة أى محل.

حدد علاقاته بزملائه تحديدا دقيقا على الرغم من اتساعها.

- استمالته حكايات العوامرى عن النسوان، ونوادره عن الغلمان، فبدأ يحبو نحو جماعتنا التى لم تستغرق كتب التراث المقررة نشاطها الذهني، فراحت تبحث عن متسع لها فى كتب المنفلوطى والرافعى وطه حسين والعقاد، وقصص محمد عبد الحليم عبدالله وأمين يوسف غراب وتيمور، وإحسان والسحار. قبل أن نكتشف نجيب محفوظ.. الذى أصبحت رواياته الورد المورد. والراتب اليومى الذى لا نتخلف عنه. شرب فؤاد مع الشاربين وارتشف رحيق الحوارى والمقاهى وشد الأنفاس مع المعلم كرشه وأحمد عاكف، وهتف مع المعلم نونو ملعون أبو الدنيا. وذاب العوامرى فى محجوب عبدالدايم و(طظْ طظ) لكل شيء..

ساح الفتية فى الخان.والزقاق، وبين القصرين والسكرية. وسحرتهم الملاية المقلوظة. والعجيزة المدملجة. وفلقتاها تتبادلان الإيقاع. لقد اقتحمت

بصائر الغميان أدق ما سترته الأبدان من حميدة وعايدة شداد. وجليلة وإحسان شحاته وريرى ونور. وغاصت بين فخذى زبيدة حتى الثمالة.

كنا نقرأ الفصل من الرواية عدة مرات. ثم يتقمص العوامرى شخصية الكاتب ويصنع من خياله فصلا آخر. يلتقط الجرجاوى خيال الخيال ويسبح فى فضاء من الخيالات والتهويمات التى لا نهاية لها. كنا نتفنن ونتبارى فى تجسيد المستحيل.

يستعيض أُولو الضرر بتهيؤاتهم بما يفوق تصورات كل المبصرين. وبخاصة فيما يتعلق بالنساء. إن التهيؤات والظلال والإيحاءات التى كانت ترد على ذهن الجرجاوى لم تكن لتخطر لنا على خيال. ظلت شخصيات نجيب محفوظ تتلبسه، مدى الحياة. فتارة هو السيد أحمد عبدالجواد. وتارة هو حفيده رضوان. ولم تسلم فعال المعلم كرشة وعبدالرحيم باشا من ترك بعض الآثار.

حين جاء القاهرة بحث عن كل شيء زار الحوارى والأزقة والغُرز وبيوت العوالم والمرافق العامة! لم يفته مكان أو زمان أو فعل.

كانت مجموعة متعددة الهوايات. وكانت قراءة الروايات فسقا عند كثير من زملائنا ومشايخنا أيضا. لذا أطلقوا علينا ألقابا عدة.

– جماعة: الفسق والفجور.

– هؤلاء هم الكفرة الفجرة.

– جماعة الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف.

– شلة الأنس.

كان تفوقنا فى الخطابة والصحافة والإذاعة واضحا. لذا أطلق علينا شيخ مستنير.

– الراسخون فى العلم والأدب.

يستمر العوامرى يقص علينا أجزاء من الفيلم طوال أيام الأسبوع. وفى كل أسبوع فيلم جديد وحكايات لا تنتهي. وخيال لا ينضب. كنا نستغنى به عن دخول السينما عشقنا وفسقنا فى خيالنا.. شادية، وتحية، وسامية وحبيبة الطلبة سميحة توفيق

●●●

بعد السنة الرابعة عاد الجميع.

ولكن أين العوامرى؟ انتظرنا عدة أسابيع والسؤال يرنّ كل يوم!!

قال أحد بلدياته :

– سافر إلى القاهرة للدراسة.

قال ثان: للعمل.

ثالث: شاهده أحد بلدياته يعمل فى محل كراسي. فى باب الشعرية.

– قال رابع: هو يعمل فى محل ساعاتى فى الأزهر.

تاه العوامرى فى الزحمة انقطعت أخباره.غاب عن العيان. لكنه ظل ماثلا فى الوجدان. غاب عن المشاهدة. لكنه بقى متربعا فى الذاكرة.. لم يملأ مكانه أحد.. ولم يحك حكاياته أحد.

-٢-

كان الشيخ فؤاد ربعة عريض الجبهة. يميل إلى البياض. وجهه ممتلئ. برزت وجنتاه يتوسطه أنف فى عرينه شمم. غزير شعر الحاجبين. تميل أذناه إلى الكبر. فاحم الشعر الناعم الذى غطى جبينه وقذاله مكونا لامة حسنة. تنوس شمالا ويمينا. كان الأزهرى الوحيد الذى يلبس البنطال بعد خروجه من المعهد. وَيفْرق شعره ويتطيب.

تأبط صندوق (الطاولة). قصد بيت الحاج نعمان مأوى المغتربين. فى ساحة البيت. رواق الفلاحين,كما كان يسميه ,نقر على الصندوق .

–هل من مبارز؟ أنا أسد الله– أنا سيف الله:

أين عتاة قريش؟ أين كفار مكة؟

قال اليعقوبى:

- تقدم ياجحش الله.

قال آخر:

أتلعبون النرد يا جنود إبليس!!

قال فؤاد:

إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء. بل أنتم قوم مسرفون.

قال اليعقوبى: إنهم كانوا قوم سوء فاسقين.

واصل فؤاد دغدغة الزهر حتى منتصف الليل. تسلل إلى بيته. نام الوالد عقب صلاة العشاء. انتظرت الأم ساعة ,لم تستطع أن تواصل.

● ● ●

فى شارع فاروق الهادئ. الممتد من ساحة المركز حتى الخلاء الواسع، قبل أن تزحف المدن على القرى، وتطفح القرى على المدن.

شارع شديد الهدوء. على جانبه الأيمن قصور كبار القوم تحيط بها حدائق وأسوار من حديد. لا تمر به إلا عربات الحنطور التى تنقل بناتهم إلي المدارس.

يتعمد شبان التسكع فى أوقات العودة من المدارس، وأعينهم على الأرجل البيضاء المتدلية داخل الحنطور، والأحذية اللامعة.لم يخطر ببال المشايخ أن المرأة طرف فى العملية الجنسية، حتى هذا الاسم لم نكن نعرفه.

كان خيالنا لا يتجاوز اللقاء بين غلامين، ولنا فى ذلك أقوال مأثورة.

نظر شيخنا إلى غلمان يلعبون وقال:

- لولا أنتم لكنا مؤمنين.

– ما آخر عهدك بهم يامولانا؟

– يدوب مر علّى أربع وعشرون ساعة.

كانت الشائعات كثيرة جدا. ولم يتحقق أحد من واقعة واحدة.

فى هذا الشارع الطويل. انطلقت الدراجات يتقدمها الشيخ فؤاد الذى لا يكف عن الرنين.

● ● ●

-٣-

قال شيخنا الجرجاوى الكبير: ياشيخ محمود أنت طالب مجتهد وأنا أثق بعلمك وخلقك. وأخوك فؤاد بحاجة إلى من يقرأ له، ولا أجد من هو أصلح منك لهذه المهمة يابطل.

شاب فقير شديد التواضع يبدو أنه كان عزيز قوم ثم افتقر. فهذبه الغنى.

يحاذر الاختلاط قدر استطاعته. انكب على الدروس وكأنه يفترسها. ينزوى فى حجرة على مشارف الجبانة. أنس إليه الشيخ فؤاد– صادقه. دعاه إلى بيته ليذاكرا معًا. اعتبر الشيخ محمود وصية الشيخ الكبير فرض عين.

-٤-

لم يتبق من أولاد الحاج عبد الرحيم الأنصارى إلا أصغرهم، فقد ذهبوا إلى القاهرة للالتحاق بالجامعات. كان آخرهم أشرف لاعب السلة الذى انضم إلى فريق الزمالك. بقى البيت ذو الطوابق الخمسة خاليا إلا من شيخ كبير وأم عجوز. وشاب ضرير. أحاطاه بكل عناية ورعاية. بدا فى أجمل مظهر وأفخم ملبس. صادق الكبار والصغار ,أعيان وصعاليك، فى الحوارى فى المساجد فى المقاهي. رفعه انتماؤه الأسرى وزيه الأزهرى إلى المكان

العلى. كما نزلت به شقاوته إلى درك الغجر والغوازى المقيمين جنوبى المدينة حول المقابر. بقايا بيوت الدعارة.

خصص الدور الأول من بيت العائلة للشيخ فؤاد حتى لا يعانى مشقة الصعود - لم يكن يستهويه شيء كالسطوح. يتزحلق على حافة السلم من الدور الخامس حتى الأرض. كان يستعيض عن فقد البصر. بكل شاقاوات البشر.

٤- الشيخ الشّرقاوى

-١-

بعد صلاة العصر تسلل الشيخ محمود إلى منزل الأنصار؛ والأنصار إحدى العائلات الكبرى. لكن الحاج عبدالرحيم لم يكن من أعيانهم. كان تاجرا متوسط الحال. يقع منزله فى منطقة بين قصور الشمال ,وحوارى الجنوب، فى شارع المنزلاوى قرب الجامع الكبير.

على استحياء طرق الباب طرقا خفيفا. استقبله فؤاد وكأنه لم يره منذ زمن. لم يدر بخلد الشرقاوى أن يرى أزهريا يرتدى زيا غريبا - لم يسأل.

بمرور الأيام عرف أنها بيجامة- خلع نعليه... جاس خلال الدار. سجادة نظيفة,كنبة ,مساند، مكتب. ظل واقفا.

قال الشيخ فؤاد:

- تفضل اجلس ياشيخ محمود.

تردد. كرر فؤاد الدعوة. نفضّ جلبابه عدة مرات. لمس حرف الكنبة: وقدماه لم تطأ السجادة.

طرقت الأم باب الحجرة طرقة واحدة. فتح فؤاد الباب ربع فتحة. رجع يتأبط صينية. وضعها على طاولة أمام الشيخ محمود .. شاي- بسكويت- أنواع من الفاكهة.

قشر فؤاد إصبعا من الموز دفع به إلى الشرقاوى.

توالت الأيام: الشاى والقرفة وأنواع من الفواكه وألوان من المشروبات والمأكولات. والشرقاوى يأكل ويشرب ويشكر ويذاكر...

-٢-

لم يكن الشيخ الشرقاوى القادم من سفح الجبل الشرقى الذى يقتات أهله تفاخرا بأنساب مدّعاة. وأحساب صنعتها أوهام الجهل والفقر والهروب من الواقع. كلما سمعوا مجدا لاذوا بالانتساب إليه. فهم أحقاد كل أسيادنا السابقين: أعراب وعجم وبربر. وماغول وتاتار، وأتراك. وكل مرحوم: سيدنا: عدنان.. قحطان، يونان. رومان. جربان. جرزان.

تذكر الحصيرة التى يفترشها للنوم والأكل والصلاة. قراقيش ينقعها فى الماء يقضمها مع بصلة. شرائح من اللفت. كان خبز القمح بدون أى إيدام نعمة كبرى تستحق صلاة شكر عقب كل وجبة. من أجله فقط نجتهد فى دروسنا حتى لا نعود إلى قرانا وخبز الذرة.

نما الشيخ محمود نموا ظاهرا. طالت ساقاه. انحسرت الجبة عنهما ولم تكن أرجل كثير منا قد عرفت طريقها إلى الجوارب ,بدت السيقان الدقيقة وقد انحسر عنها كل شيء إلا شعيرات تناثرت هنا وهناك كأنهما ساقا نعامة. عنق طويل به أثر كي، ورأس دقيق. غُطى بعمامة كأنها غطاء زجاجة مياه غازية. لا يتلفت أصحاب العمائم كثيرا. عليهم مقامع من حديد.

-٣-

تأمل الأطعمة والأشربة والفاكهة. انهالت عليه أوصاف الجنّة. التى عرضها السماوات والأرض. وأنهار العسل واللبن. والاستبرق والقطوف الدانية، والأكل الدائم المتشابه وغير المتشابه، وفاكهة لا مقطوعة ولا ممنوعة، ولحم طير مما يشتهون. وتخيل الحور العين والولدان المخلدين : عاود النظر. مد يده. حمد الله على مضض.

تذكر قول محجوب عبد الدايم :

- ياقناطر يابلدنا وزعى الرزق على أولادك بالعدل.

تمتم: لماذا لم يكن لى والد غيرك ياشرقاوي. الله يرحمك يابا. فأنت الحى الميت. ثلاثة أربا ع عشائك نوم. علينا أن نتغدى حمدا. ونتعشى شكرا.

● ● ●

-٤-

وضع يده على خدّه.. أسبل جفنيه. تذكر أول يوم نزل فيه المدينة. لم يكن يعرف أحدا. حمل والده القفة ,قصد بيت زنوبة الشرقاوية التى كانت قد تزوجت حفار قبور منذ زمن. أسكنها عشة على مشارف الجبانة. بعد سنوات مات صابر الشرقاوى ولم يُعقب. بقيت زنوبة تغسّل النساء. كانت نفحات الزائرين تزيد على حاجتها.

- خالتك زنوبة كانت صديقة لوالدتك - رحمة الله عليها-.

رحبت زنوبة بابن الغالية.

- محمود حفظ القرآن وسيدخل الأزهر. وسنتركه فى رعايتك.

- أعيش وحيدة. ولدى غرفة خالية لم يسكنها أحد ,والماء قريب من هنا. والمعهد آخر الشارع طريق واحد.

قال الوالد:

- هذه زّوادته. سنرسلها كل شهر. وهذا جنيه أعطه قرشا كل يوم والباقى لك.

بالقفة قراقيش وخبز طري. وعلبة سمنة وعلبة جبنة. وفول وعدس وملوخية. وقمع سكر. وهذا كيس بلح.

كان محمود فى الرابعة عشر من عمره- عود سرح ينبئ بقامة مديدة. خفيف الروح طيب القلب، حلو المعشر، استعاض بها عن أمه. احتضنته المرأة التى لم تنجب.. ضمته فى ليالى البرد القارس. فى كل يوم جمعة تدلك

جسده بالليف والصابون، حتى كاد يبرق.. ذاق محمود اللحوم فى غير الأعياد.

مرت الأعوام والشاب يحقق نجاحا ملحوظا. بلغ الثامنة عشر من عمره ولا تزال تنيمه بجوارها.

-٥-

انزوى الشيخ الشرقاوى فى آخر مقعد. غالبه النوم كثيرا. بدا شيء من الاصفرار يتسرب. ذبلت عيناه.. اخْتُطِف لونه. تكرر غيابه.

لا أحد يعرف مسكنه!!

تتبع أحمد العجوز -خفية- مسار الشرقاوي. وصل الجبانة. عرف شيئا عن زنوبة. همس فى أذن الشرقاوي:

- إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء.

كان العجوز يكبرنا بعدة سنوات. كنا إخوته الصغار، وقد ارتضينا ذلك. كان ولى أمرنا دون أن يُعلن ذلك. أنسنا إليه.. استودعناه أسرارنا. لم يفش سرا قط.

-٦-

قال العجوز:

- كدنا نفترق ولم نستطع أن نفك طلاسم الشرقاوي.

قال آخر:

- سآتيكم برجل من رجال الآثار يقرأ لنا ما يخفيه أبو الهول.

قال العجوز:

- تكلم أبا الهول، هذا الزمان تكلم فيه كل شيء حتى الحجر.

قال الشرقاوي:

- ليس لدى أسرار أخفيها عنكم.

قال ثالث:

- ومهما تكُنْ عند امرئ من خَليقة وإن خالَها تخفَى على الناس تُعْلَمِ

قال الشرقاوى:

– لا خليقة ولا حليمة.

قال رابع:

– إياك وحليمة.

قال العجوز:

– كل شجرة عرضة لهزة ريح. حتى شجرة الجميز.

قال الشرقاوي:

– أخوكم صخرة صلدة لا تتزحزح.. صفوان.. جلْمود.

قال العجوز:

– صفوان عليه تراب.

قال آخر:

جلمود صخر حطّه العشق عليها.

قال العجوز:

– أخوكم صاحب مزاج حيزبونيّ. ولكن الحمد لله

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعُرِّى أفراسُ الصِّبا ورواحِلُه

قال الشرقاوي:

– عشقك شعر الغزل جعلك تشك فى كل النساء. كما حبب النواسى للعوامرى الغلمان

قال العجوز:

أم الحُليس عجــوز شهْربهْ تحب من اللحم عظم الرقبهْ

قال الشرقاوي:

لا عجوز ولا شباب

قال أحمد العجوز:

إلا عجوزا فى الغابرين.

أيقن الشرقاوى أن صاحبه أصاب المَحزٍ لم يعد للكتمان معنى.

-٧-

- انتهت صلاة العشاء بزمن ولم يعد محمود مدت بصرها ترنو بعيدا. بلغت الساعة العاشرة ولم يعد. هذه أول مرة يفعلها. لا أعرف أحدا من زملائه. ولا أحدا منهم زاره. كان محمود حريصا على إخفاء سكنه.

دخل عليها يرتعش من شدة برد طوبة احتضنته فى لهفة .

قال ضاحكا :

- زملونى زملونى. دثرونى دثروني.

- فركت يديّ بين يديها. نفخت فيهما. سرى الدفء. دلكت وجهى بكفيها الدافئتين. قبلت وجنتى.. احتضنتنى أحكمت الغطاء علينا. رفعت الجلاليب, وضعت وركها الممتلئ الناعم الحار فوقى. طوقتنى بفخذيها. ضمتنى إلى صدرها الدسم ,المدملج الذى لم يُرضع قط. لم تصدق أن الغلام صار رجلا.

- كنت أتمنى طفلا أُرضعه. رزقنى الله بك.

- ألقمتنى ثديها.

- ارضع ... وأرضعني.

- لم أستطع معها صبرا. دلتنى على الطريق.. راحت تفرغ هموم السنين.

قال محمود:

- نزلتْ من على السرير الذى كاد يتهدم من شدة وقعها وإيقاعها. خرّت ساجدة. أطالت السجود. بسطت كفيها إلى السماء. تضرعت تناجى.

- اللهم أدمها نعمة وأحفظها من الزوال. وهبتك نفسى ياشيخ محمود. أنت رجلى وحبيبى. لم أذقه قبل الليلة. عوضتنى حرمان العمر كله. ذهب الظمأ. ارتوت العروق التى تيبست. حركت الدماء التى كادت تجف. سقاك الله من ماء الجنة ونعيمها.

تشنجت.. انخرطت فى البكاء. ضممتها إلى صدرى أحست بالراحة والدفء. سكنت. سكتت. نامت على صدرى حتى الصباح. أيقنت أنها دعوة

مظلوم. صرخة محروم. غوث مكروب. نجدة ملهوف. فلم أشعر بالندم لحظة.دامت النعمة. تواصل العطاء.

شعرت بالزهو. أغثت ملهوفا . فرّجت كربة، اقتحمت عقبة. فككت رقبة.. واصلت الحج والزيارة. والغزو. مثنى وثلاث ورباع. أنستنى دعواتها وحمْدها وشكرها. الإحساس بالذنب.

● ● ●

٥- البرديسية

-١-

قال أحمد العجوز:

- إئتيا طُوعا أو كَرها.

قال فؤاد: أتينا طائعين أيها الشيخ العقور.

- أحسّت يدا تلامس ظهرها.. استدارات. رفعت يدها ,قبل أن تهوى بها على وجهي.

- خذ بيدى ياعم الحاج.. أخرجنى من الزحام..

ليس على الأعمىَ حرج.

أمسكت بيده أحس طراوة. وضع يده على كتفها. سارت به وسط الزحام. ويده تعلو وتهبط.

- لا مؤاخذة ياحاج.

- أنا ست ياشيخ.

- نزع يده.

ضغطت على يده سحبته خارج الزحام.

- أوصلينى إلى شارع فؤاد.

- أنا لا أعرف شوارع البلد.؟

أنت ضيفة إذاً.

- أنا منْ برْديس.

- أحسن ناس.
- جئت للزيارة ومشاهدة أيام المولد.عادة من أيام المرحومة أمي.
- أنت ضيفتنا الليلة.
- لابد أن أرجع فى قطار التاسعة.
- إذن العشاء والتذكرة على حسابي.

أخرج من جيبه خمسين قرشا.

- هذا كثير جدا.
- عربون محبة.
- متى تعودين؟
- غدا انتظرنى فى هذا المكان.

-٢-

دارا فى الحوارى والأزقة. اتّجها إلى ساحة المولد. كانت الشوارع شديدة الازدحام. لم يتبق إلا أيام. المواكب والهوادج تملا الطرقات..أناشيد وهتافات مدد يا أبوداهيس مدد. شيخ حسين يابندّري.. سارا على رصيف الكورنيش. المكتظ بهواة الخيل المدرّبة. وقف الخيالة على ظهور جيادهم. لوحّوا بنشاباتهم. رقصوا على طبول الحرب.

وضع (أبوستيت) كرسيا على ظهر جواده. من فوق الكرسى لوح بالزانة. تعالت الهتافات. دوّت التصفيقات.

كانت الموالد مهرجانا للألعاب الشعبية. يتوافد عليها هواة التحطيب. يستعرضون مهاراتهم. ووجاهاتهم وقوتهم وفتوتهم.. خلفهم جماهيرهم التى لا تكف عن التشجيع.

-٣-

لم يتبق على المولد غير ثلاث ليال وستغيبين.

- جرجا مدينة كبيرة نتسوق فيها كل أسبوع.
- الدوران فى الشوارع سيكون مكشوفا حين يخف الزحام.
- آتى إلى برديس.

- ماذا يقول الناس؟
- قولى أى شيء. لا أقوى على انقطاعك عني.
- وما العمل؟
- عندى فى البيت.
- وأهلك ؟
- أقيم فى شقة خاصة بى لا يزورنى فيها إلا الشيخ محمود
- وماذا نقول لهم؟ الشيخة فاطمة البرديسية.
- الشيخ محمود يلبس جلابية وعمامة. وهو فى جسمى تقريبا ولا يشعر به أحد. وأحيانا يبيت معى عدة ليال. اعتاد الأهل ذلك.

تأبط الشيخ ذراع الشيخة فاطمة بزيها الأزهرى ودلف بها .. وبعد قليل كان العشاء جاهزا. طرقت الأم باب شقته. وضعت الطعام أمام الباب وتوارت. لم يلمح الشيخ محمود ظل امرأة طوال سنوات تردده على البيت. غلّقت الأبواب انتزعت الثياب. حميت الأوطاس.. احمرت الأحداق.. باتا يتقلبان على بطونهما وظهورهما ،وجنوبهما تجافت الجنوب عن المضاجع أقفرت الأصلاب والترائب من المدامع. تبادلا إطلاق النيران الصديقة حتى مطلع الفجر.

فى أيام معلومات تحل على البيت الجرجاوى نفحات برديسية. ظل الود.. دام المنّ والسلوى.. سال العسل.. تدفق اللبن.

-٤-

بعد سنوات غادر الشيخ إلى القاهرة.. ركبت البرديسية القطار.. فى محطة سوهاج وقفت تمسح دموعها

- سألحق بكَ قريبا.

ظل الشيخ سادرا. كيف أعيش بدونها!! على رصيف محطة مصر.. شَفط آخر دمعة.

- ربك الرزاق. ربّ البرديسية هو رب كل النساء.

●●●

الفصل الثالث

أم الدنيا
بيت العدوية

١- الأسطَى حسن.
٢- جُبة العَدوي.
٣- الأسطَى سيد.
٤- حليمة السّعْدية.

١- الأسطي حسن

فى المسافة بين مسجد الخازندار ,وكنيسة (سانت تريز) على يمين المتجه إلى الكنيسة عدة شوارع ضيقة ,تصب فى ميدان الحافظية ,وهو مربع يمتد حتى شارع الترعة البولاقية.

فى هذا الحى المزدحم سكن الشيخ فؤاد الجرجاوي؛ ليكون قريبا من كلية أصول الدين قبل أن تنتقل إلى الدراسة.

كانت الست (فاطمة العدويّة) تملك منزلا من ثلاثة طوابق يحتل موقعا متميزا من الميدان الكبير، ورثته عن والدها الشيخ العدوى. أستاذ الحديث بكلية أصول الدين. و(بنى عدى) إحدى قبائل أسيوط الغنية بالعلماء والأدباء والخطباء ورجال القضاء والإفتاء وشيوخ الأزهر، ورجال المال والأعمال، وتجار السجاد وأصحاب المخابز.

فى الطابق الأرضى ثلاثة دكاكين دكان الأسطى حسن الخياط، لا يتسع لأكثر من كنبة، وطاولة لفْرد القماش، وكرسيين من القش وموقد صغير لصنع القهوة. يجاوره الأسطى سيد الحلاق، ومحل بقالة كبير تديره العدوية لحسابها بعد أن مات زوجها الثاني.

فى مكان قصى من حديقة المنزل غرفة بمنافعها تسكنها. حليمة السعدية أرملة شابة (بائعة سريحة) ومعها طفلها ، وأمها العجوز.

-٢-

بعد صلاة الفجر فى الجامع الكبير اعتاد الشيخان حسن الجرجاوى، وسيد البحراوى تناول الإفطار معا (فول بالزيت الحار، وفلافل، وخبز مفقّع، ومخلل، وبصل. ثم برّاد الشاى بالنعناع وسجارتين) ... طقوس لم تتغير منذ سنوات .

قال الشيخ سيد:

- نحن إخوة ياشيخ حسن.

– فى الله.

– فى الرضاع وأنت الصادق .

– كيف؟

– ألم نأكل من قدرة فول واحدة كل هذا العمر ؟

– إذن نحن إخوة فى رضع الفول.

– ومعنا كل الحمير ياشيخ حسن.

–الفول: إفطار الأمير. وغداء الفقير وعشاء الحمير.

–٣–

عدد كبير من سكان الحى من المغتربين حيث كلية أصول الدين ,ومعهد القراءات. وكان الزى الأزهري: (الجبة والقفطان) هو الغالب عليهم، وكانت له هيبته وجلاله ,حيث كان رجال الأزهر أجل من الملوك جلالة ومهابة، وأعز سلطانا، وأفخم مظهرا.

اشتهر الأسطى حسن الجرجاوى بإتقان صنعته، فهو يأخذ المقاسات، والقصّ، والتفصيل والحياكة بنفسه، ولا يعتمد على أحد من صبيانه. هكذا علمه أبوه الكتاتنى الكبير أشهر خيّاط فى جرجا. ولم يكن يستخدم الماكينة إلا نادراً. كل شيء عنده يدويّ يُحيكه بيده. والصبيان يشلّلون، ويكففون، والأسطى يرشد ويوجه. ويَدْرز غرزه فتظل الحياكة متماسكة إلى أن تبلى الجبة أوالقفطان. كان مقصه متميزا لا تخطئه عين لبيس ذوّاقة وكان المشايخ يتباهَوْن بأنهم من زبائن الجرجاوى.

● ● ●

–٤–

فى منتصف الخمسينيات من القرن الماضى. وفد على الحافظية شاب يحمل على كتفة مقْطفا بداخله رأس مكينة (سنجر) ومقصا.. على قهوة

البندارى جلس وأمامه مقطفه ..تكرر جلوسه من الصباح حتى نهاية السهرة .

- ماذا تعمل يابلدياتنا؟

هكذا سأله المعلم بندارى صاحب القهوة، ليبحث له عن عمل.

- خياط يامعلم

- على هذه القهوة ؟

- قادم من البلد منذ أيام وأبحث عن دكان.

- الإجارات غالية فى الميدان.

- ربنا يرزق يامعلم.

- ستبقى بدون شغل إلى أن يرزق !

- فرجه قريب يامعلم.

- يافرج.

- نعم يامعلم.

هات المرايل القديمة.. تسلى ياابن العم.

- محسوبك حسن الجرجاوي.

- نحن بلديات إذن. جرجا بلد اللبس! الجوخ والصوف والعبايات والجلاليب. ((الكتاتنى، والمهندس، والزيات والعبد والحاج محمود .مهندسون فعلا، من يوم أن انقطعت زيارتى لجرجا لم ألبس جلابية حلوة.

- ستلبسها إن شاء الله.

- حين أسافر.

- من غير أن تسافر.

- لم يعلق المعلم.

-٥-

بعد أيام انتهي الأسطَى حسن من للمة المرايل والفوط وكفكفتها ودرزِها. وغسلها وكّيها .رصت بعناية علَى بنك المعلم.

- منْ الذى أحضر هذه المرايل الجديدة .ولم يستأذنْ!!
- حسن يامعلم.
- من الذى أمرك تشترى جديدا؟
- ليست جديدة أنا أصلحتها وغسلتها وكويتها.
- يخرب بيتك ياأبو على رجعت جديدة.
- أنت أسطَى بصحيح. نشترى لك قماشا .تصنع لنا كم مريلة ؟
- جربنى فى واحدة.

بعد بضعة أيام دخل المعلم قهوته فظن أنه دخل مكانا أخر .(جوربى ولا الأمريكيين) مرايل مزركشة محكمة الصنع ,وطواقى طويلة ,طراطير مزركشة .

- كل هذا أنت صنعته ياحسن؟
- وكمان هذه اللفة.

فتح المعلم اللفة قلبها .. صديرى. وآخر !!

- بكم اشتريتهم ؟ولمن ؟
- هما لك يامعلم.
- بكم ياحسن ؟
- فضلة خيرك يامعلم.

اشتريت القماش من ناس بلدياتى فى الأزهر بسعر الجملة .بقى معى مبلغ اشتريت وشين وفصلتهم .واحد بزراير صدف ,والتانى قيطان بيروتي.

- ألاج بلدى حر... وسكاروته.
- غالى جدا ياحسن.

- لم أدفع من جيبى ٠

دخل المعلم الحمام وخرج.

- مضبوطين جدا ياحسن .لم أر مثلهم قبل ذلك.

- سترى أجمل منهما.

- من الغد سنبحث لك عن محل. ليس من عادتنا أن نسأل الضيف.

- أنا حسن عبد الله الكتاتنى الجرجاوي.

- الآن فهمت ابن الوز عوام .أبوك أشهر خياط فى مديرية سوهاج كلها.

لم يسأله عن شيء بعد ذلك.

-٦-

كانت جرجا من أهم مدن الصعيد فى تجارة المنسوجات بأنواعها المختلفة ,وكانت محلاتها امتدادا لتجارة الجملة فى الأزهر التى يملكها عدد من أبنائها ,ومن ثم راجت فيها حرفة الحياكة ,واكتسب عدد من خياطيها شهرة فى مديريتى سوهاج وقنا.

عبدالله الكتاتنى من أهم هؤلاء الخياطين.. زبائنه عيون أعيان البلاد.

وربما جاءتهم التسمية كتاتنى من تجارة الكتان.

-٧-

فى سُرّة المدينة، ميدان متوسط فى منتصفه صهريج المياه، وحديقة صغيرة. ومقام سيدى أبو الليف، حيث تعزف موسيقا الشرطة من صلاة العصر حتى المغرب، ستة شوارع رئيسية تصب فى هذا الميدان المزدحم دوما، تضاء هذه الشوارع ويشتد زحامها عدة مرات فى السنة حين يستقبل الميدان أشهر القراء لإحياء ليلة لأولياء الله الصالحين. يقال إن المعلم شوقى بركات الجزار يقيمها كلما نجا الله له صفقة من المخدرات التى كان يستغل فى تهريبها حقائب كبار المقرئين. وكنا ندعو له بالتوفيق لما ينفقه فى سبيل الله.

على هذا الميدان يطل مسجد كبير بجواره أشهر مطعم فى المدينة، ومحلات الذهب وتجارة المالح (الملوحة) وعمارة الأطباء، والعجوز أشهر بائع فول. وشركة بيع المصنوعات.

حين تصل إلى هذا الميدان قادما من شارع المحطة تنحرف يمينا إلى شارع السوق الكبير وفى منتصفه ,قبل أن تدلف إلى ميدان (الداودية) تميل يسارا نحو البحر. على يمينك، جحر غائر مظلم تنزل إليه درجتين. يتراءى لك شيخ دقيق ، وعمامة شديدة البياض. شال قد أحكم بعناية على طربوش مال قليلا على رأس الشيخ عبدالله الكتاتنى. لا يجرؤ أحد أن يناديه بغير ذلك، فهو شيخ لن يكون أسطى أبداً.

شُعلة وابور السبرتو لا تنطفى لا تفارقه كنكة القهوة، المعدة خصيصا لهذا الشيخ ,تأمل الرجل قطعة القماش.. راح يرجع البصر كرتين.. يتمتم، يتغزل، يسبح، يحوقل، يلامسها بإبرة كأنها مبضع طبيب ماهر .يحرك الخيوط بأنامل عازف موهوب.

مع طول المعاشرة. أكثر من خمسين عاما من الحب والعشق، منذ أن تمرد ابن التاجر الكبير على التجارة والتعليم ولازم خياطا بالقرب من منزل العائلة هربا من والده الذى كان يعده لخلافته فى تجارته. اكتسب حساسية خاصة بلمس القماش وشمه وتذوقه أيضا.

كان لا يقبل من زبائنه إلا أنواعا معينة من أقمشة المحلة وأخميم يفحصها جيدا قبل أن يتسلمها، فإذا لم يعجبه نوعها أو لونها. أو لا حظ على صاحبها قصورا فى الشكل والهيئة. أو عدم تنسيق فيما يلبس .اعتذر لضيق الوقت وكثرة المشاغل، وهو لا يكرر اعتذاره أبدا.

ليس فى دكان الكتاتنى مساعد. لا يرد سلاما .. ولا يرفع رأسه عن حبيبته لا يخاطبك إلا لتحديد الميعاد. وأقله ستة شهور. لا يستقبل زبونا جديدا إلا بتوصية من زبون قديم.

كان الرجل عاشقا للعلماء محبا للقرآن ورجاله؛ لذا حرص على تعويض ما فاته بتعليم ابنه الوحيد حسن، بيد أن الصبى كان يتظاهر بمساعدته، ولم يلحظ الوالد أن أبنه الشيخ حسن شرب الصنعة ولم تعْد به رغبة فى إتمام دراسته فى المعهد الدينى. وأنه يعمل خياطا (دون علم أبيه) عند خياط مغمور فى الشق القبلى. لم يستطع الفتى مواجهة ابيه وحمل رأس مكينته، وفر هاربا إلى حيث لا يعرفه أحد. كان زميلنا حسن الكتاتنى ثانى زميل ينفرط عنه عقد جماعتنا بعد الشيخ العوامرى.

-٨-

- شاى العصارى يامولانا.
- شكرا يامعلم.
- فنجان محوج من الأصلى يامولانا .والله ما أنت كاسفنى.
- أنا شايف عندك خياط ياسيد بندارى.
- رجل بلدياتى من جرجا تُلّف يده فى حرير .
- بلد العلم والعلماء .عميد الكلية جرجاوى
- قال المعلم:

لى عندك طلب يامولانا. والله لا تكسفنى يامولانا قل آمين. خلاص الشيخ وافق ياحسن.

- أعرف الطلب أولا.
- الدكان الصغير. وهو خال من عدة شهور. وما تريده من إيجار يامولانا نوافق عليه. الفاتحة يامولانا. ادع لحسن.
- المستأجرون متعبون يامعلم .
- أنا ضامنه. فى أول كل شهر تأخذ الإيجار منى. وهذان شهران مقدم .ادع له يامولانا .
- اتركنى يومين يامعلم .

– خير البر عاجله .كما علمتنا.ومن يفرج عن مؤمن، فرفش عن حسن ياامولانا.

– الله يجازيك يابندارى.

– انتظر يامعلم .

– عليّ الطلاق لأنت موافق .

– مئات المرات وأنا أنهاك عن هذا القسم .

– وافق يامولانا. وأنا على الطلاق لن أحلف. بالطلاق بعد ذلك. مبروك ياحسن الشيخ وافق والإيجار جنيه كامل. وربنا مع المفترى. وسيحضر لك المفتاح اليوم. توصى به حين يفصل عندك جبة بالتقسيط بعد عمر طويل. وهمس فى أذن الشيخ: نفسى أشوف لك جبة جديدة قبل أن أموت.

يجل كل منهما الأخر إجلالا كبيرا. فإذا اختليا ارتدا صديقين، وزال بينهما كل احتشام ورجع الشيخ إلى صباه كما يقول البندارى.

● ● ●

٢– جبة العدوى

بعد أشهر ترك العدوى جبته القديمة عند حسن لإصلاحها.

قال حسن:

– يامعلم بندارى جبة الشيخ لايمكن إصلاحها حتى لو أدخلناها القصر العيني. هذه بقايا جبة لا تليق بالشيخ.

قال البندارى:

– هل تستطيع أن تصنع له كسوة جديدة دون أن يحس بذلك؟

فى الجامع جلس العدوى يفسر (فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه). طال عليه الزمن، وأصابته العوادي، كما يصاب الرجل بالأمراض

التى لا شفاء منها، فيتمنى الموت راحة. اللهم اجعل الموت راحة لنا من كل شر. يعنى كما نقول زهقت الحيطة من حياتها.

- تمتم البندارى كجبتك .

-١-

آتاه الله بسطة فى العلم والجسم، ووجاهة فى الشكل، ووسامة فى الوجه، بياض خفيف مشرب بسمار خفيف، بدت وجنتاه كدرهم من الذهب البندقى، حواجب غزيرة شديدة السواد، عينان نجلاوان باديتا الحور ,أهداب طويلة سوداء كأنما ذر عليها الإثمد، حينما يرفعهما تحس أن قلبك يعلو معهما ويهبط.. أنف فرعونى ممتلئ قليلا، شفتان ممتلئتان، صورها البارئ بعناية شديدة، يزورّ عن وجوه النساء حتى لا تقع عيونهن عليه، يمشى منكس الرأس تحاشيا لهن قال الشيخ الأودن:

- أحق الناس بالنقاب؛ العدوى لأنه تخشى منه الفتنة.. بعض النساء لو مشين كما ولدتهن أمهاتهن لا يثرن فتنة.

ورث العدوى عن والديه عدة عقارات. وبعض المحال التى كان والده شريكا فيها ,كان ذا سعة فى المال ويسر فى الحال، بيد أنه كان يردد دائما "ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا" فيرد البندارى:

- ولا تغلل يدك إلى عنقك.

نسى العدوى نصيبه من الدنيا، عاش فقيرا يلبسّ كما يلبس الفقراء. يطعم طعامهم ويشرب شرابهم. ظل بيته كما تركه والده.

والبندارى يلمح:

- وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم .. ولا تنس نصيبك من الدنيا.

لكن العدوى تعمد ألا يفطن إلى شيء من ذلك. كان زهد الشيخ يضايق تلاميذه ومريديه . ولم يجرؤ أحد على التلميح .عدا البندارى الذى كان يلمح ولا يكاد يبين.

-٢-

كان المعلم بندارى تربا للشيخ نشآ معا فى بيت واحد . يملكه البندارى الكبير. لم يساكن فيه أحداً إلا العدوى الكبير. عدة سنوات قبل أن ينتقل إلى داره الجديدة قضيا طفولتهما لا يفترقان فى البيت. فى الكتاب، فى المدينة. جابا شوارع القاهرة. انضما إلى جمعية الشبان المسحيين. مارسا رفع الأثقال، وكمال الأجسام. زاملا حضر التونى، وجرج البهجورى، والدقن والعكش، خاضا غمار الليالى فى عماد الدين، وروض الفرج. معارك هنا وهناك، كان نبوت العدوى يلقف عصيهم كأنه عصا موسى. حاول فؤاد الشامى فتوة عماد الدين ضمهما فلم يفلح.

كانت ليلة الست ليلة مقدسة، ورثا الطرب عن العدوى الكبير. كان قارئا ومنشدا، وعوادا من طراز فريد. حين يختلى بالمقربين. يصدح بأغانى سلامة حجازى، وسيد درويش، وصالح عبد الحى ويظل ينشد حتى مطلع الفجر، يعيد توزيع الألحان بما يفوق الوصف.

دفع البندارى بالغاب إلى فم العدوى:

- اسحب العَيامُر:

كما اسحب الذين من قبلك.

التقم العدوى طرف الجوزة شد بأنفاس متقطعة، وهو ينقر على الغاب رقصت المياه ، محدثة شيئا من التنغيم، تعلو وتهبط تتلون وتتنوع. كأنه ينفخ فى ناى، وجمر النار يطقطق يكاد يشتعل

صفق البندارى وهتف.

- شد الجوزة شد.

- تحت العمة قرد

- شد الجوزة يا أستاذ

- تحت العمة وابور جاز

والعدوى يرد:

- شد الأنفاس ياراجل ياترباس

-٣-

انقطع البندارى عن التعليم منذ أن مات والده ،لكنه ظل محبا للعلم والأدب، عاشقا للشعر.

أدرك مبكرا أن الحارة لا تحب إلا العلماء ،ولا تحترم إلا الأغنياء، ولا تهاب إلا الأقوياء. وهو لم يكمل تعليمه، فلن يحظى بما سيحظى به صديقه العدوى. وعليه أن يكون محترما ومهابا أيضا. لن يترك الفرصة لأحد يقول نحن أحق بالجاه والسلطان والهيبة والاحترام من البندارى - اجتهد فى تجارة أبيه: القهوة، ومواد البناء. استطاع عن طريق مريدى الشيخ أن يحصل على توكيل للأسمنت، ثم آخر للحديد، ومغْلق للخشب حتى مزادات الخردة لم تفته.

- فى بضع سنين كان البندارى واحداً من أهم رجال المال والأعمال .

لابد للمال من رجال تحميه. أسس رابطة أبناء سوهاج. توافد عليه السوهاجية. ضيق الخناق على مدعى الفتوة والبلطجة دون أن يحتك بهم، حاول أن يجد لكل عاطل ما يشغله، بلغ عدد رخص الباعة الجائلين أربعمائة رخصة.. وعمال فى سوق الخضراوات. وحلقة السمك والمعمار. اختفت البلطجة من شبرا تماما.

أصبح البندارى سيدا مطاعا. قوله القول، وحكمه الفصل لا يرد له حكم. توددت إليه الحكومات المتعاقبة. فتوة فتوات شبرا والساحل وروض الفرج وجزيرة بدران والترعة البولاقية والعطار. دانت له دون أن يرفع نبوتا.

اشـتـرى الأسـطـى حـسـن مـن بلدياته تجـار الأزهـر أربعـة أمـتـار مـن صـوف المحلـة، ومـقطع ألاج بلـدى، وعـدة أمـتـار «سكاروتـة». وفـلنات مـوسـولينـى وحـزامين، وشـال مـن الغـوريـة .دفـع البنـدارى ثمنهـم. ظـل الأمـر سرا بين حـسـن والمعلم إلى أن فرغ من حياكة الجبة والقـفطان، لف الجـميع ودفـع بهم إلى بيت العـدوى، حين عـاد الشـيـخ من الكليـة وجـد لفـة كبيرة .

- أعادها إلى الأسطى حسن .

- هذه اللفافة جاءت إلى بيتنا خطأ ياولدى.

أين جبتى ؟

- هذه كسوتك الجديدة يامولانا .

- كيف؟

- أتسخر منى يابن قسورة .وأنا رجل كبارا، إن هذا لشيء عُجاب .

- ما شاء الله يامولانا .. إنها ملك خالص لك وحكى له الحكاية .

- قال العدوى :

- إن ذلك مقلب من مقالب البندارى قاتله الله .

سمع البنْدارى صوت الشيخ يجلجل .فهب واقفا.

- هو من حُر مالك يامولانا. وما نحن إلا خدمكم.

لقد أتيتنى فى المنام يامولانا وأجبرتنى بذلك ,وأمرك مطاع فى اليقظة والنوم . وهذه بعض كراماتك يامولانا . وهتف:

- مدد ياعدوى .

خشى العدوى من ذيوع الأمر. فعاد إلى داره والأسطَى حسن يتبعه

- سـألبّسك بنفسى يامولانا.

تطلع العدوى إلى هيئته فى المرآة التى تغطى ضلفة الخزانة فهاله أن رأى رجلا آخر لم يره من قبل تراءت له هيئات الأفغانى ومحمد عبده والمنفلوطي. تحسس قفطانه الحريرى وتمتم :

- اللّى شُفت قبل ما أتْشوفك عينى عمر ضايع مينحسبش من عمرى.

●●●

- ما هذا الذى يتراءى؟

- أنا هو ؟هو أنا ؟

- مستحيل.

ولمَ. لَمْ أكنْه؟

ألم تكُ يوما فتى الفتيان !!

تحولت المرآة .شاشة بيضاء، انعكس عليها الماضى كله (ووجدوا ما عملوا حاضرا). ماضٍ مشرف، ومخجل أيضا .المستقبل ابن الحاضر، وحاضرك مفعم بكل خير .

●●●

-٥-

- الزهراء شبت سريعا، ولن تبقى معك طويلا. والبيت كبير جدا. يحتاج إلى ونيس .يؤنس وحدتك ياصديقى :

- لن تغادر الزهراء بيت العدوي .

- سنة الحياة يامولانا .

- ستبقى فى البيت بعد الزواج .

- البيت كبير ولن تضايقها عروسك .سأبحث لك عن بنت لبوة.

- بنت لبون ياجاهل.

- فى وكالة البلح أصناف مُعتبرة ,مستعملة لكنها بحالة جيدة .

- بكر عوان. على الزيرو يابندارى .

-٦-

من منكم رأى اليوم فتى غض الإهاب، طويل النجاد رفيع العماد. منتفخ الأوداج. يمشى مشية الطاووس يتبختر تبختر العروس. يعجز عن وصْفه القاموس .

- رأيته يصعد الدور العلوى كأنه السلطان محمد على .

- إنه الإمام العدوى فى ثوبه الفضى، وقفطانه البهى. وحزامه الذهبى، وشالة الكشميرى. ومركوبه الفاسى .

- عمن تتحدث ياشيخ على .

- عن العدوى وملبسه الجديد النوفى .

- اتق الله ياعلى .ولا تسخر من الصالح التقى .

- هى جبة وحيدة عصرها . فريدة دهرها .

- تراث أبيهم الأقدم وجدهم الأعظم، حافر زمزم

- شهرتها طبقت الآفاق فى مصر. فى بلاد واق الواق .

فى مكتب العميد.

- همس المشايخ.

- شيخ غريب يزور الكلية.

- من أمريكا الشمالية .

- عبد الناصر يستورد مشايخ من روسيا.. قفطان - جبة - عمامة - حزام - حذاء - أذواق - ألوان - تفصيل - إتقان.

- من يصدق؟

- هل هانت الدنيا على العدوى ؟

- هل قارب الأجل النهاية ؟

- سبحان من يُغير!!



ذاع سر جبة العدوى فى أصول الدين، ومعهد القراءات.وبقية الكليات والمعاهد، وبين المقرئين والأئمة. طارت شهرة الأسطى حسن .توافد عليه هواة الجبب والقفاطين والعباءات والجلاليب من الأزهر والحسين .والسيدة والحسينية وبولاق وروض الفرج.

-٧-

– صبيانك كثير ياشيخ حسن فى كل حى.

– هم الآن أسطاوات يامولانا.

– شربتهم الصنعة بارك الله فيك. صدقة جارية، من علم لم يمت. أنت ياحسن خرجت أكثر من الكلية. علمت مالم نُعلّم.

– تلاميذك يملأون مصر يامولانا..

فى جنازة الأسطى حسن، كادت الجلاليب والعباءات، والجبب والقفاطين، تسد شوارع شبرا.

● ● ●

٣- الأسطى سيد

-١-

تذاكر.. تذاكر .. تذاكر.

لم ترد.. غمزها فى كتفها. من حركة الترام وزحمة الناس كانت الغمزة نغزة .استدارت مذعورة . سقطت الطرحة .انكشف الصدر. بان العنق . ارتطمت الرمانتان بصدره العريض الخشن .المبلل بعرق الحر الشديد. والزحام الكثيف. انغرس زرا الرمانتين فى صدره رأسا مسمارين عريضين كبيرين يضغطان. أحس ألما تيارا تسرب إلى الجسد... كورتان من البلور المطاطى دلكتا صدره كاد يشهق. لامست شفتها ثُغرة نحره .. جرت أنفاسها فى عروقه. أقرب إليه من حبل الوريد.

رفعت شفتين غليظتين ..خط رباني لا يقرأه إلا الموعود، التفليج واضح بين أسنان شديدة البياض دقيقة الاستواء ,كأنها اللؤلؤ المكنون.. زكمت أنفه أرواح الدنيا والآخرة ..الجنة والنار .أسبلت رموشها حياء ..جُن جنونه .رفعتهما انخلع قلبه .

حاولت أن تتفلت... الزحام شديد... دبابة بشرية حشرتها، هرمان من الشحم واللحم كادت تعصرها. جوالان من القطن المدكوك دكًا دكا.

أحاطها بذراعين كأنهما فرعان من خشب السَّنط.. مرقت من بينهما... فى أول محطة اندلقت. شقت الهواء بصعوبة بالغة لن أنزل ساعة الزحام مرة أخرى.

-٢-

عاودتها لمسة يده. احتكاك صدره.

ضمة ذراعيه حمتنى من السقوط...استغفر الله (توبة من دى النوبة) سامحنى ياأبو سيد..

سيد الذى لم تره: الخالق الناطق ,كل من يراه يقول: "من أنجب لم يمت" هو رجلى بعدك.

غصب عني. الجوع كافر. حرمت جسدى على كل شيء حتى الصابون والليف لم اغتسل بعدك!! لن أنطق باسم ذكر بعدك حتى لو كان ذكر بط.

الباب: بوابة، الشبشب: زنوبه ,الكانون: فرئة، الرغيف: لقمة، القميص: جلابية، المنديل: طرحة. لن أنطق بمذكر ولا آكل مذكرا. فجْلاية. بصلاية. طمطماية. بيضة. فروجة. أنت ديكى الذى لا ديك بعده ولا قبله. سأقفله بالضبة والمفتاح إلا لمفتاحك ياغالى.

- فى الجنة ونعيمها لا تتزوج من نسوان الجنة.(حكم أنا عرفاهم) الشيخ حكى لنا عنهم .. أنا قادمة إليك. بعدما يكبر السيد.

-٣-

لسته تطاردها .دبيب نمل فى عروقها ارتمت على حصيرتها. كل العروق تنبض. العظم ينشر. مناشير.. سخونة.حُمّى. هلوسة. نوم عميق.

هو أنت.. أنت هو..

صفارة.. زمارة. تذاكر.. تذاكر. تذاكر ياست. ارتمت فى حضنه.. قبلته. انهالت عليه تقبيلا.. جذبته من سترته . استلقت فى وسط عربة الترام .

انتفضت صرخت

تارة أنت.. تارة هو.هو.

دفسته فى صدره ألقت به من الشباك فوق كنيسة العذراء . فرد جناحيه. طار محمد فى السماء. تلوى الآخر تحت عجلات الترام..

صرخت استيقظت.. راحت فى بكاء عميق.

- سامحنى ياأبو سيد.

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

-٤-

- عفريت فى المنام كتم نفسى ياسيدنا الشيخ

- صفى لى ما حدث بالتفصيل.

- يادى الفضايح... نسيت يامولانا ,سأمر عليك حين أفتكر.

- اقرئى الفاتحة والمعوذتين.

- وأنا من أين آتى بعنزتين؟

- قولى ورائى..

-٥-

عدة ليال .. والحمد لله لا كابوس . ولا صفارة. ولا ترام. ولا تذاكر. لكن محمد وحشنى هو.. هو. أنت. أنت البيه صاحب الترام لا يعرفنى، ولا يعرف البيت، لا يستطيع رجل غريب أن يدخل البيت حتى لو كان البيه أبو صفارة..

محمد جوزى بعينه. لابس لبس الحكومة. كل من فى الجنة حكومة.. لا أحد فيها يلبس هلاهيل. الشيخ يقول يلبسون حريرا فى حرير .. رجال وحريم. وهؤلاء هم الأغنياء معهم فلوس يتصدقون ويبنون جوامع ومدارس. يوزعون لحوما فى العيد. وكستورا فى الشتاء. المعلم عبد الشهيد كسا الشارع كله. يدخل الجنة بفلوسه. الغلبان غلبان دنيا وآخره. الفقر وراثة، عاهة مستديمة. له ناس يعرفها وإن ماتت يتبع خلفتها.

محمد كان يقول: إن له جدا غنيا هو الذى أخذه تحت جناحه. دفع قرشين وأدخله الجنة، كله بالفلوس. يْدخل أولاد التجار مدرسة العساكر الكبيرة. من معه فلوس يفعل ما يشاء. الفلوس تحيى النفوس. ربنا يقول المال والبنون. المال قبل أى شىء هكذا يقول المشايخ. فى الدروس التى نحضرها بعد العصر كل يوم فى الجامع، أيام ما كان عندى وقت، أيام المرحوم.

– والله. والله وحياة سيدى الخازندار. والست تريز. أيمان المسلمين والنصارى، الذى زارنى هو جوزى محمد بعينه .. وشحمه ولحمه .وكمان عظمه .أنا لا أتوه عن رجلى الذى لم يمسسنى بشر قبله ولا بعده. طوله .. عرضه . عرق . رجلاه .. قدماه. وسطه بطنه ... كله محمد جوزي .

وضعت يدها على بطنها .

– مصيبة لو حملت !! ماذا تقولين للناس ؟ ملك من السماء كما حدث مع ستنا مريم.

لا أحد يصدق . سآخذ الولد وأهرب إلى مكان بعيد .

–٦–

– ماذا يفعل الناس فى الجنة ياَمولانا ؟

– يعبدون الله ..

– فقط ؟

– كفى. بعبادته شكرا .
– ماذا يأكلون ؟وماذا يشربون ؟
– فيـها فـاكـهـة كـثـيـرة لا مـقطوعـة ولا ممنوعـة .ولحم طيـر مما يشتهون .فيها أنهار من لبن وعسل مصفّى .
– والنسوان يامولانا ؟
– يخدمون الرجال .
– خدامين فى الدنيا والآخرة !!
– ماذا تقولين ؟
– ربنا يرحم الجميع.
– أليس حراما يامولانا أن يعشن مع الرجال بدون زواج ؟
– وزوجناهم بحور عين .
– يتزوجون مثلنا ؟
– تماما .
– ياخوفى لتكون عملتها يا محمد !! لو عملها لا احتاج لك فى المنام؟ كان عطشانا باين عليه محروم من النسوان. كسر ضلوعك يا بنت. لم يكتف بمرة ولا اثنين. وقال سيعود قريبا .
– ماذا تقولين ؟
– ربنا يرحم الجميع .
– وأولادهم يامولانا ..
– الناس فى الجنة لا ينجبون .
– ما معنى لا يُنجبون ؟
– لا حـمل ولا خلف ولا أولاد. بعـد الموت ينقطع عن الرجل والست كل ذلك. يمارسون حياة طاهرة لا حيض ولا نفاس ولا حمل ولا ولادة .

- الحمد لله .

- من غيرحبوب

● ● ●

-٧-

دخلت الحمام .ومعها الليفة وباقى صابونة بريحة من أيام المرحوم .ومقص وحلاوة .

- أكثر من سنتين جسمك وبر .شعر غزير وطويل ولا دقن الشيخ إبراهيم .دقنه بيضاء وهذا أسود ناعم.. خسارة يرمَى فى الحمام. سأضعه فى كيس . احتفظ به من رائحة الحبايب .

- لم يتبق بالجسم شعرة واحدة. أحمر من الشد والجذب. كأنه جزرة. رمان منفلوطى. برتقال بسرة. حرام الذهب يدفن فى الطين. عادت بكرا: بنت بنوت.

الشيخ يقول:

- شكر النعمة استخدامها.. الذى يكنز الذهب والفضة يدخل النار هذا ذهب وفضة. وعسل ولبن. ولحم طرى مما يشتهون. من يحرم الناس مما أنعم الله به عليه آخرته جهنم كما يقول الشيخ: أى نعمة يامولانا .

- أى نعمة يازينب. بارك الله فى من نفع واستنفع لا تمنعى الماعون يا زينب.

- تصورى يا بنت يازوبا أنك تزوجت وأنجبت - كما يقول الشيخ - ولم تكملى حتى الآن ثمانية عشر عاما. البنات أكبر منك لم يتزوجن بعد.

لبست القميص الذى دخلت به.. صبت على جسدها زجاجة أهداها لها من أيام الخطوبة.. استلقت على ظهرها .

- لبيك ياغالى لا تتأخر .. ليلتك الموعودة.. معك حتى الصباح.

تناومت. لم يغمض لها جفن.. تقلبت ذات اليمين وذات الشمال. ولكن هيهات. هرب النوم .

- خذى قرصين بعد العشاء.

انتظرت . خفّت الرجل فى الشارع، أقفل الشيخ إبراهيم دكانه. الطريق خال من المارة. يمكن يأتى فى أى وقت.. استيقظت على صوت بائع اللبن.

- حليب ياقشطة.

- لا شفنا حليب ولا قشطة!!

يمكن ما عندوش إجازة .. يوم الجمعة إجازة فى كل مكان.. الكنيسة قافلة . الجنة لا تقفل فى هذا اليوم المبروك؟ مرت ليال وجمع ومحمد لم يأت ..

- زعلان

وزعت على قبره جوافة وبلح. ولم يأت . دفنت جوابا قرب قبره. رآها التربي.

- ماذا تفعلين؟

- جواب لجوزى.

أخذه منها.

- سأرسله مع أول ميت.

- لم يرد على الجواب ولم يحضر. هو فى الجنة ولا أحد يذهب إليها إلا الملائكة كما يقول الشيخ : الملائكة ينزلون الجوامع بعد العصر .

- اكتب خطابا يامولانا .

- لمن ؟

- لمحمد.

- محمد من ؟

- أخى الصغير فى البلد .

- قولى ياست .

- حبيبى الغالي.

- هذا أخوك .

- أنا مربياه .

- وحشتني قوى قوى ..لك مدة لم تزرني .عملت لك كل ما تحبه .وحين تحضر تشوف بعينك والأمانة كما هي . جاهزة لاستقبالك يوم الخميس .والسلام ختام.

- العنوان :

- مع واحد مسافر البلد.

وضعت الرسالة فى مسجد الخازندار .أكبر مسجد فى الحي .بعد ثلاثةأيام لم تجدها. انتظرت الرد. مر أسبوعان.لم يصلها رد.

- الملائكة عندهم إجازات يامولانا زى الناس.

- لا ..هم ينزلون كل يوم.

- محمد لم يرد على.

- الملائكة ما علاقتهم بأخيك!!

- يهدونه على يامولانا.

- إن شاء الله سيرد قريبا. مادمت عارفة مكانه أذهبى بنفسك.

-لم ترد..انصرفت يائسة من الرد. تمتمت:

- شوفى أكل عيشك. الحى أبقَى من الميت .

-٩-

- اللف فى الشوارع غير البيع فى الترام. ربع تجارة والباقى شحاذة. الناس الكبار يعطفون عليك.. مرة شاهدت راكبا أخذ كيس بسكويت دفع ثمنه ثم غافلنى ورماه من الشباك. صعبت عليّ نفسى.

سرحت.. وقف الترام فجأة. كانت قريبة من الباب كادت تسقط. تلقفها.. أجلسها على أول كرسى.

ظلت جالسة. دار الترام دورته... عادت معه إلى الدوران. حاولت النهوض فلم تستطع.. ساعدها أجلسها على الرصيف. لا تزال قدمها تؤلمها.. ازداد الألم. أخرج من جيبه منديلا، شده على قدمها بإحكام .. تيار جرى فى العروق. عاودتها حمّى اللمس.

-١٠-

بعد ثلاثه بيوت على يسار الداخل أمام بيت الشيخ العدوى.

- كفاية يابيه روح للترام بتاعك.

- بتا ع الحكومة.

- والفلوس التى معك.

- فلوس الحكومة.

- كفاية حتى لايراك أحد .

- أنت تعبانة ولا بد من المساعدة.

- غرفة تحت السلم فى وش الباب .

- أنت محتاجة إلى دكتور .أوصل الفلوس وأعود إليك.

- والناس ؟

- ينفلقوا.

ساعدها على ركوب الحنطور .

- مستشفى الساحل ياأسطى .

- أسبوعان راحة تامة .تغذى جيدا..

ابتسمت

- حاضر .

على باب غرفتها

– راحة تامة .غذاء .

تمتمت:

بصلتين بدل واحدة .

– ماذا تقولين ؟

– حاضر يابيه.

تغذى!! من أين لبائعة النداغة الغذاء ؟ كل ما تحصل عليه لا يوفّر أكثر من طبق كشرى ...صحن فول .

– سأمر عليها .. صدقة .وأنت ؟ لا عيّل ولا تّيل

– يعنى إيه تيّل ؟والله ما أنا عارف .أهو كلام .

– لماذا كل هذا التعب يابيه ؟

– حاجة بسيطة ..كيلو فاكهة ونصف فرخه قسمتها معك .لقمة هنية تكفّى مية.

– توالت الأيام سمكتانَ من أسماك الدوران .

– ربع كبده من على الناصية .

– طول عمرى ما ذقت الكبدة .خليك عيانة على طول يابنت .

بدأت الخطوات تقترب ..المسافات تضيق.. الكلفة تخف .بدل الطرحة منديل.. جلابية بنصف كم.. بربع كم . تجرأت ما تتفضل شوية.

– لا يصح. أنا رجل غريب.

– ما غريب إلا ... ولم تكمل .. يقطعني.

كتر خيرك كل يوم مشوار بعيد عليك وسايب بيتك وأولادك.

– البَيت قريب فوق بقالة المحبة سلمتان وأكون فى الشقة نمرة ثلاثة أول شقة فوق الأرضى ليس هناك تعب ولا مشوار .ولا أحد يقلق عليّ ، مقطوع من شجرة .

لا يتخلف عن موعده كأنه تلميذ يخشى عقاب الناظرة.

- مر أسبوع لا جس ولا خبر. تماثلت للشفاء.. ركبت الترام. تذاكر.. تذاكر. فزعت. ليس هو.. دار الترام دورته... فى كل محطة تتأمل الصاعدين... الهابطين.. لا تعرف اسمه على من تسأل!!

- هل سافر الرجل ؟.. مريض .أعوذ با لله..!! البيت قريب أبص من بعيد يمكن..

طلعت السلم خطوة ... خطوة.. وضعت أذنها على باب الشقة - أطالت التنصت... لم تسمع شيئا.. أسندت رأسها على الباب - انفتح قليلا.. أحدث صوتا خفيفًا.

- من ؟

- ادخل ياسيد :

- لم ترد .ادخل :

- ماء ياسيد:

- قفزت بحثت عن الماء القلة فوق الطاولة الممتدة فى الصالة.

مُدت يدها.

- تفضل: س.. س سلامتك يابيه !

عرف صوتها حاول الاعتدال.. لم يستطع.. تكررت المحاولة. وضعت يديها تحت رأسه.. رفعته قليلا.. سقته بيدها.

- فى المطبخ على اليمين خبز وجبنة .. وشاى وسكر :

فى أقل من عشر دقائق . كانت الصينية الصغيرة وعليها خبز وجبن وكوب من الشاى .

- نسيت السكر :

هرولت .

- نسيت المعلقة :

أطعمته . لقمة ..لقمة ..وسقته الشاي ..رشفة ..رشفة .

– سأعد لك الغداء :

– الفلوس فى جيب الجاكتة :

-١٢-

عادت من السوق .وجدته نائما .. أعدت الطعام ...لا يزال نائما .

– أأتركه ثم أعود؟ قد يستيقظ فلا يجد أحداً ..

وضعت يدها على خدها .. جلست فى الصالة.. طال الجلوس.. همت بالخروج .اشتد سعاله .هُرعت إليه.

– سلامتك:

ناولته السلطانية.. لم يستطع أن يحتسى. بالملعقة سقته الشربة. جرعة.. جرعة. شفطة شفطة – بكل مشقة ابتلع شيئا من صدر الديك ..

أطالت الكمادة على جبهته – وضع يده على يديها ليرفع القماشة ..شهقت : حرارة الدنيا جرت فى جسدها . كأنما أدخلتها فرنا .

– شكرا لك يا ..

– خدامتك زينب.

– عاشت الأسامى:

– أتريد شيئا أحضره لك من السوق أو البقال أو الأجزخانة ؟

– سأنام ..خذى المفتاح معك .

– تصبح على خير.

-١٣-

فى صباح اليوم التالى طرقت الباب لم يرد ..أخرجت المفتاح من جيبها تحسست طريقها إلى المطبخ .

– الرجل نائم .غرفة النوم مفتوحة .

مدت يديها تجذب بابها – الغطاء مكوم .أشعلت المصباح .

– أين الرجل !! أين الرجل المريض !!

فى تمام الثانية فتح الباب.

– ليس بالشقة أحد . نظافة وترتيب رائحة طبيخ. خرجت قبل أن أجيء .

خلع سترته ذهب يتوضأ .الحمام مضاء .طرق بابه.

– ناولنى الجلابية .

– أين هى ؟

– فى الصالة .

– وأين الصالة ؟

– لا أستطيع الخروج من الحمام .

– مدّ يده .. ناولها بشكيرا كبيرا .

– لفى نفسك من الهواء:

– الجلابية .

لم يرد. دخل غرفته .. بدل ملابسه .. خرجت من الحمام واتجهت إلى المطبخ .. طرقت باب الغرفة . .

– الغداء جاهز يابيه .سلام عليكم .

– خذى غداك معك .

– عيب يابيه :

– طباخ السم يذوقه

آثرت أن تترك باب الأكل مواربا

– إن شاء الله فى المرة القادمة . سأمر عليك قريبا.

– خذى المفتاح معك .

-١٤-

لملمت أطراف قميصها حشرته فى لباسها أحكمت حشره. قبل الميعاد بساعة فتح الباب دون أن يحدث صوتا.فى وسط الصالة تزحف على ركبتيها ويديها. تمسح البلاط بهمة ونشاط وتدندن

- ياحلوة يلي ...قومى استحمى..

أدار وجهه نحو الحائط.

- يا ساتر.

ارتبكت .. حاولت النهوض .. تزحلقت فى الماء والصابون. لم تدر ماذا تفعل. مدت يدها تجذب قميصها. انحسر عنها جزء كبير من كل شيء. انكشف شيء مما لا يجوز كشفه .لا تدرى ماذا رفعت؟ ولا ماذا سترت. قطعة قماش واحدة فصلت منها قميصا وما بقى سترت به عورتها. اللون واحد. تشابه الأمر عليها انخرطت فى البكاء. ألقى بسترته عليها ... ساعدها على النهوض .أقفل باب غرفته . تلاشت الحركة تماما .

سمع باب شقته يقفل. قام مسرعا... نزل عدة درجات .اكتشف أنه بدون بجامة .. عاد مسرعا... نظر إلى الشارع لم يعثر لها على زوال .عاد إلى الطاولة ..أبصر المفتاح فى طبق .

- لن تعود.. أربعة أيام ولم تظهر هم عدة مرات يطرق بابها.. لم يعد يطيق على فراقها صبرا. اندفع نحو باب حجرتها... عدة طرقات لا تخلو من توتر.. فتحت مد يده بالمفتاح وانصرف... سقط منها على الأرض.. تناولته . وانسحبت .

مشى فوق السحاب.. ركب البراق.. قطف من أوراق الجنان وُرودا، وزهورا.. أشكالا.. ألوانا.. روائح وزع على كل الراكبين.. نفخ فى السور.

- تذاكر... تذاكر.

-١٥-

أنهى دورته.. عاد مسرعا .اتجه إلى باب حجرتها طرقه بعنف. فلتسمع كل الدنيا.سمع صدى طرقه يدوّى فى كل الشوارع والميادين التى يمر بها الترام رقم (١٠) أحب كل العشرات العشرة الطيبة والعشَرة السيئة. العشرة المبشرين بالجنة والعشرة المبشرين بالنار. أخرج من جيبه ورقة بعشرة قروش وضعها. فى فمه لاكها.. ابتلعها.

- من الآن فصاعدا لن أعرف رقما غيره.

رفع رجله من أمام باب حجرتها - دون أن يدرى بالمكان. أو أن يحس بالزمان. وضعها فى قلب شقته. لم يفتح بابا ولا شباكا. اخترق الحوائط. تخيلها كما كانت فى المرة الأولى. بكل عنف احتضنها. ذابت. شهقت.. تشنجت. على شعرها طبع قبلة.لاك خصلة. هتف.

- نتزوج.
- كيف؟
- الآن؟
- معى طفل.
- أعرف سأتخذه ولدا. عسى أن ينفعنا.

● ● ●

-١٦-

- يوم الجمعة لا طبيخ ولا غسيل.
- ماذا نأكل؟
- جمعة كبدة ومخ فى الحسين. جمعة كوارع فى السيدة.. جمعة فى القناطر.. جمعة فى الحديقة.. جمعة حمص وحلوت فى السيد البدوى.

عاشت أياما لم تحلم بها. أنستها الجنة والمرحوم. والذين خلفوه - الله يرحم الجميع - الحى أبقى من الميت. لم يعد المرحوم يخطر لها على بال ,لا فى يقظة ولا فى منام.

-١٧-

– الواد أكبر من سنه. كاد يختم القرآن. الشيخ على قال لازم يدخل المدرسة.

– مدرسة النهضة قريبة. غدا أمر عليهم .

– أين شهادة الولد؟

– لم يدخل مدارس

– شهادة الميلاد.

– ميلاد . ماذا تقصد؟

– الطفل حين يولد يُسجل في الحكومة.

مات أبوه قبل أن يولد ولم أفعل شيئا.

– مشكلة: بدون شهادة لا يدخل المدرسة.

– نسأل الشيخ إبراهيم حكيم وعارف كل حاجة.

– اذهبى به إلى المستشفى والدكتور يسننه.

– أسنانه سليمة ياشيخ.

– يسننه يحدد عمره كم سنة.

– أنا عارفة عمره وأحدده للمدرسة.

– عايزين شهادة من دكتور، كلام رسمى، كلام حكومة. تذهبين بالشهادة لوزارة الصحة وتابعيها خمس.. ست شهور.

– خمس ست شهور؟

– ويمكن أكثر.

– والمدرسة؟

– سنكتب لهم تعهداً إلى أن نستخرج شهادة الولد.

● ● ●

-١٨-

- الولد كبر لازم ينام وحده .

- تعودت عليه ولا أستطيع أن أنام بدونه .

- زى ولدك .

- زى !! لا أريد أن أسمعها منك. اسمه سيد محمد سيد عبد المقصود .لا يعرف له أبا غيرى . لا تقولى له شيئا غير ذلك.

- ربنا يخليك لنا!! قبل أن يكمل الغلام العاشرة من عمره مات محمد أفندى عبد المقصود .

-١٩-

- المكافأة قليلة جدا ولا أستطيع أن أستمر فى دفع الإيجار ومصاريف المدرسة والبيت. المدرسة هددت بطرده إذا لم يدفع .رجوتهم : أبوه مات .أنظف المدرسة .أنظف البيت ياست الناظرة كل ذلك لم يُجْد. طُرِد الغلام .

- الولد ضاع فى الشوارع ياشيخ إبراهيم: العسكرى سلّمه للنقطة.. هدد بأنه سيرسله إلى الأحداث.السجن يامولانا .

- سآخذه معي. أعلمه الصنعة

- لايزال صغيرا.

- بدأنا أطفالا.

-٢٠-

- تفضل يا أسطَى سيد - المريلة والشبشب.وقابل الزبائن.ونظف معى المحل- الهمة يابطل يدى بيدك الذى ينظف أسرع له مكافأة.. غلبتك اليوم يا أسطَى سيد .

- ياشيخ إبراهيم حرام عليك الولد كاد يختم القرآن .سنة واحدة .

- أمامك ياشيخ على وحفظه وحفظنى إن استطعت.

فى أقل من عام أتم الصبى حفظ القرآن. وقص شعر الغلمان. وحلق نقون الكبار. ارتدى البالطو الأبيض والطربوش وركب الدراجة. انطلق إلى بيوت المشايخ يحف الشوارب، ويهذب الذقون.

-٢١-

أعجب الفتى بالشيخ العدوى أيما إعجاب. حرص على أداء الصلوات خلفه .كان العدوى يجلس بعد صلاة الفجر قبل أن يذهب الناس إلى أشغالهم- يتحلقه المريدون يتعلمون علوم الدين واللغة .

- اقرأ يا شيخ محمد... غدا القراءة على الشيخ على من كتاب... وبعد غدٍ الشيخ سيد من كتاب ...أصبح الأسطَى سيد من أشهر قراء حلقة العدوى التى يؤمها الناس من كل مكان. أهل الحى فى الصباح، وآخرون فى المساء .والأسطى سيد يحفظ كل شىء.

●●●

-٢٢-

- تعبت من طول الوقوف فى المحل ياسيد ياولدى سأتأخر فى النزول.. واحتاج للراحة بعد الظهر ,كثرة الدواء تنّوم .

لم يعد يُرىَ فى المحل إلا لماما . يشرب فنجان القهوة أمام المحل مع أحد المشايخ .

- عشرة طاولة ياشيخ إبراهيم.

لاحظ الشيخ أن زبائن الأسطى سيد يتكاثرون يوما بعد يوم .

- راحت عليك ياأبوخليل. لا تكابر .تعيش زمانك وزمان غيرك. كل صبيانك أصبحوا أسطاوات. الولد (فتحي) فتح محل للسيدات فى الدقي .ومصطفى فى روكسى. والسيد قدامك شهرته وصلت البلد كلها.

- كلهم أولادك لايزالون يقبلون يدك. ماذا تريد من الدنيا أكثر من ذلك .الولد لا يقبل يد أبيه فى هذه الأيام. الحمد لله .سنية بألف ولد.

– إيراد المحل يصله كاملا كل ليلة .

– نصف الإيراد لك ياأسطى سيد.

– لا آخذ إلا أجرتي– كل الناس تقول يا أسطى سيد إلا المعلم الكبير لازم يقول ياولد ياسيد .

– المحل كله لك بعدى

– أطال الله عمرك أنا من بعدك أبحث عن عمل آخر

– اخطب لبنتك ولا تخطب لولدك. وأنت ولدى وسنية بنتى. لا أجد أحدا أستأمنه عليها غيرك ياسيد.. فكر طويلا وشاور والدتك ولا تتعجل ولا تخجل هذه حياتك.

– تمنيت ذلك – ولكن خفت الرفض والرفد .

–٢٣–

– مدد ياعدوى: تعال شوف تلميذك الحلاق الفصيح. ذاعت شهرة الفتى حلاقا فصيحا. وتلميذا من أنبغ تلاميذ الشيخ العدوى. يتوافد عليه شيوخ العلم. وطلابه

– فى أى كلية تخرجت ياشيخ سيد ؟

– فى كلية (نحن نقص).

– وأين تقع هذه؟

– حيث أنت يافتي.

– فى دكان!

– كل العلماء والشعراء والأدباء والزعماء تخرجوا فى مقاهى العتبة والأزهر والحسين. كان شيخنا العدوى الكبير يقول:

– العلم فى عقول العلماء وقلوبهم ,لا فى كتب الكتاب. العلم مشيخة. من لا شيخ له. لا علم عنده.

● ● ●

٤- حليمة السَّعدية

-١-

الريس عباس المليجى. أشهر متعهد أنفار فى الناحية. تربطه علاقات طيبة بكل ملاك الأرض ,وعمال التراحيل. يتوافدون عليه فى مواسم: الحرث والعزق والبذر والري ,والحصاد والجمع والضم والجنى والقطف ,لكل عنده عمل: الرجال والنساء ,والبنات والصبيان.

-٢-

فى ركن قصى من عربة التراحيل تقْر فصَتْ ((حليمة)). فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها، لم تخرج للعمل قبل ذلك، لكن الموت المفاجئ لوالدها أرغمها على الخروج للعمل.

كل الفلاحين يموتون فى شبابهم موتا مفاجئا، والحقيقة أن الأمراض المستوطنة تنخر فى أجسادهم لعدة سنوات، لكنهم لا يظهرون ضجرا، يتحاملون على أنفسهم حتى السقوط الذى يبدو مفاجئا.

-٣-

فى قرية العَمار، بلد المشمش، دلق اللورى حمولته من البشر. زحفت حليمة مع المتزحلقين. تكومت على زميلاتها وزملائها المجلوبين من كفور شتى.. سعل الجميع من روائح الروث والبرسيم والتبن. ومخلفات الأغنام والماعز. والحمير، والأبقار والجواميس. فهى مجهزة لنقل كل الأشياء. لم يكن هناك من وسيلة للنقل غير هذة السيارة المؤجرة من المعلم محمد أبو جاموس.

سلم المليجى الشحنة للريس بسطاويسى وانصرف.

- بعد ثلاثة أسابيع ستعودون إلى بلادكم

-٤-

لأول مرة تنزل الشغل. رأت أشجار المشمش ذُهلت... شجر طارح نور- لمبات تلعلع! أصفر وأحمر.

- عندهم فرح. ما هذا ياريس بدرية؟

- المشمش الذى سنجمعه .أول مرة تشاهدين المشمش ؟

خجلت من عدم خبرتها .

- جمعته كثيرا. لكنه هنا كثير .لم أر مثله من قبل.

فى الصباح الباكر جمعهم الريس بسطاويسى. سلم كل واحدة منهن طبقا من الخوص. وترك الريس بدرية تلْقى بقية التعليمات.

- الحباية التى تقع من واحدة تحسب عليها. لا تذوقوا أى ثمرة حتى لو كانت تالفة. التالف له زبونه. محلات العصير ,ومصانع قمر الدين .المشمش مستوى ,أمسكوه بخفة. سلموا المشنات للرجال- غداكم بعد الظهر ,كلوا بأدب. العمل متواصل. المشمش لا ينتظر أكثر من ثلاثة أسابيع .. أى حاجة أعملوها بالليل.

-٥-

الجلباب الفلاحى الواسع الطويل الفضفاض الجرار، لايصف ولا يشف ولا يكشف عن أى تضاريس، والطرحة السوداء تغطى الصدر والظهر .كل أجسام النساء سوداء ، سواد فى سواد ,سود غرابيب. ملابس تعوق الحركة وسط الأشجار الكثيفة ,والأغصان المتشابكة. لملمت البنات شعرها، وضفّرته، وأحكمت عقصه، وربطته بالمنديل، منهن من ربطت طرحتها، ومنهن من تخلصت منها. تكشفت صدور، برزت نهود. ظهرت تراقى. لمعت نحور.

كانت قد غسلت كل شيء جيدا قبل الرحيل، فقد جئن مؤملات منافع لهن، فكثيرا ما خُطبت فتيات بعد الإياب. تراءت رقاب الظباء، عيون المهاوات اشرأبت أثناء تماوجت أعجاز، خفقت قلوب البنين والبنات.

من تحت النطاق شُدت الجلاليب مكونة مظلة حول الوسط. كاشفة عن أجزاء من سيقان: الماعز والبقرى والجاموس. المعصعص. والمربرب. الناشف والطرى، والملفوف بشير الخير، دليل الأنوثة، والمعرقبة نذير الشؤم. قدم السعد، قدم النحس .

يبدأ جمال الرجل من أعلى، وجمال المرأة من أسفل. قدماها ساقاها. يسقط نظر الرجل أول ما يسقط عليها. يتصاعد.. يتسمّر عند خاصرتها. وهى تدرك ذلك تماما.. يتعمدن لفت الأنظار يضربن بأرجلهن، ليعلم ما يبدين وما يخفين من أنوثتهن، شهوة الرجال، لذتهم الكبرى، فى أقذر مواضع النساء. سبحان المذل.

كشف النطاق عن السوق والأعناق، والخواصر والأعجاز، والترائب والأصلاب، والأثداء والأرداف. وبسطاويسى يلاحظ ويتأمل، يهش بعصاه. لامست العصا موضع العفة، لم يعتذر خشية مظنة القصد.

ظنته السعدية البيه. الباشا الكبير.كان الناس يحبونه ويحترمونه ويهابونه. بقايا عز قديم، هذبه الغني. أدبه الفقر. يعتز بأصوله المصرية اعتزازا لا حدود له. احتقارا لكل الباشاوات، سلالة الأتراك والمماليك. العبيد الذين صاروا فى مصر سادة. كلهم مجلوبون، كما تجلب الجمال من السودان، عبيد أولاد عبيد. نصيبك يامصر لكل شىء نهاية.

فتوة ظاهرة. شباب غض.يعرف قدره فلا يعطى فرصة لأحد يتجاوز حده، حتى لو كان كامل بيه. بسطاويسى محترم بالفطرة، عيون النساء لا تخطىء فِراسة لاحد لها. قراءة عيون الرجال. استكشاف مبكر لخوائن العيون، وما تكنه الصدور. هكذا لمحت حليمة لمحة بالبصر، هزت كل ذرة، لخبطت كل خلية .

– هل أصابك مس من الجان. حمىّ شديدة. لو بقيت هنا يوما واحدا فستجن. فيم تفكرين، من أنت؟ وماذا تكونين؟ لو طلبنى خدامة لسجدت

من تحت النطاق شُدت الجلاليب مكونة مظلة حول الوسط. كاشفة عن أجزاء من سيقان: الماعز والبقرى والجاموس. المعصعص. والمربرب. الناشف والطرى، والملفوف بشير الخير، دليل الأنوثة، والمعرقبة نذير الشؤم. قدم السعد، قدم النحس .

يبدأ جمال الرجل من أعلى، وجمال المرأة من أسفل. قدماها ساقاها. يسقط نظر الرجل أول ما يسقط عليها. يتصاعد.. يتسمّر عند خاصرتها. وهى تدرك ذلك تماما.. يتعمدن لفت الأنظار يضربن بأرجلهن، ليعلم ما يبدين وما يخفين من أنوثتهن، شهوة الرجال، لذتهم الكبرى، فى أقذر مواضع النساء. سبحان المذل.

كشف النطاق عن السوق والأعناق، والخواصر والأعجاز، والترائب والأصلاب، والأثداء والأرداف. وبسطاويسى يلاحظ ويتأمل، يهش بعصاه. لامست العصا موضع العفة، لم يعتذر خشية مظنة القصد.

ظنته السعدية البيه. الباشا الكبير.كان الناس يحبونه ويحترمونه ويهابونه. بقايا عز قديم، هذبه الغني. أدبه الفقر. يعتز بأصوله المصرية اعتزازا لا حدود له. احتقارا لكل الباشاوات، سلالة الأتراك والمماليك. العبيد الذين صاروا فى مصر سادة. كلهم مجلوبون، كما تجلب الجمال من السودان، عبيد أولاد عبيد. نصيبك يامصر لكل شىء نهاية.

فتوة ظاهرة. شباب غض.يعرف قدره فلا يعطى فرصة لأحد يتجاوز حده، حتى لو كان كامل بيه. بسطاويسى محترم بالفطرة، عيون النساء لا تخطىء فِراسة لاحد لها. قراءة عيون الرجال. استكشاف مبكر لخوائن العيون، وما تكنه الصدور. هكذا لمحت حليمة لمحة بالبصر، هزت كل ذرة، لخبطت كل خلية .

– هل أصابك مس من الجان. حمىّ شديدة. لو بقيت هنا يوما واحدا فستجن. فيم تفكرين، من أنت؟ وماذا تكونين؟ لو طلبنى خدامة لسجدت

- يا ليلة بيضا. يانهار فلّي ياصباح مشمش ياغداء فُسدقي.ياعشاءً عنابي.

أخذ عباس يهزو، والبسطاويسى صامت.

بالقرب من الجامع الكبير. تقاطرت البنات .ترجلن يحملن بُقجا.لم يرفع عينه عنها .لملمت جلبابها.. دلدلت رجليها. ارتبكت كادت تسقط. هُرع بسطاويسى.. تلقفها. طارت فى السماء انداح فيها جرى فى عروقها. غابت لحظة دارت بها الدنيا. لم تعد ترى شيئا.. تجمّدت.. تسمّرت - تحركت بخطوات بطيئة مدت خطاها... عند أول منعطف أدركت أنها سلكت طريقا آخر ..

تنبهت. انتفضت استردت شيئا من قواها .

- كل شيء فيك يناديه. أسمع صوت يدى ورجلى.. ولا يكثر على الله .. يوم القيامة ربنا ينطق كل شيء ليشهد علينا، هو رجلك. يامجنونه. لن ترينه بعد ذلك . بالتأكيد متزوج.. حتى لو ربُعه. نعمة وفضل.

●●●

- أنت صغيرة وجميلة ونصيبك قريب. يابنتى.

- القرد فى عين أمه غزال.

- فَشر.

- هو الفقرُ يبقى على جمال ولا شباب يا أمى، الدنيا حظوظ.. زوجة البيه زى الجاموسة لاوش ولاقفا. لكن أبوها غنى.

أريد أن أفهم.هل الأغنياء أولاد أبونا آدم مثل الفقراء؟

قد يكون أدم أخر. جدتى تقول آدم واحد وأم واحدة.خلفّ كل الناس.

فلماذا لم يقسم الأرض بين أولاده .وهم أشقاء.

لو كانوا من عدة ضراير لقلنا يمكن البيض أمهم أمريكية. والسود أمهم سودانية، والسمر صعيديه. يقولون إنه كان رجلا طيبا .

– يا ليلة بيضا. يانهار فللّى ياصباح مشمش ،ياغداء فُسدقى.ياعشاءً عِنابى.

أخذ عباس يهزو، والبسطاويسى صامت.

بالقرب من الجامع الكبير. تقاطرت البنات .ترجلن يحملن بُقجا.لم يرفع عينه عنها .للمت جلبابها.. دلدلت رجليها. ارتبكت كادت تسقط. هُرع بسطاويسى.. تلقفها. طارت فى السماء انداح فيها جرى فى عروقها. غابت لحظة دارت بها الدنيا. لم تعد ترى شيئا.. تجمّدت.. تسمّرت – تحركت بخطوات بطيئة مدت خطاها... عند أول منعطف أدركت أنها سلكت طريقا آخر ..

تنبهت. انتفضت استردت شيئا من قواها .

– كل شىء فيك يناديه. أسمع صوت يدى ورجلى.. ولا يكثر على الله .. يوم القيامة ربنا ينطق كل شىء ليشهد علينا، هو رجلك. يامجنونه. لن ترينه بعد ذلك . بالتأكيد متزوج.. حتى لو رُبعه. نعمة وفضل.

●●●

– أنت صغيرة وجميلة ونصيبك قريب. يابنتى.

– القرد فى عين أمه غزال.

– فَشر.

– هو الفقرُ يبقى على جمال ولا شباب يا أمى، الدنيا حظوظ.. زوجة البيه زى الجاموسة لاوش ولاقفا. لكن أبوها غنى.

أريد أن أفهم.هل الأغنياء أولاد أبونا آدم مثل الفقراء؟

قد يكون أدم أخر. جدتى تقول آدم واحد وأم واحدة.خلفّ كل الناس.

فلماذا لم يقسم الأرض بين أولاده .وهم أشقاء.

لو كانوا من عدة ضراير لقلنا يمكن البيض أمهم أمريكية. والسود أمهم سودانية، والسمر صعيديه. يقولون إنه كان رجلا طيبا .

– ياسوسو.

– دخلت عجوز فى السبعين من عمرها.

– بسطاويسى طلب إيدك وأنا وافقت يا أمى.

قالت فى صرامة لا تنم عن مزْح .

– عمرى ما كسّرت كلامك. ما تراه ينفذ فى الحال.أين العريس؟

– هو الجالس أمامك ياسوسو. شاب حليوة سنه خمسة وعشرون عاما.

– كفاية عشرين .

تنهد بسطاويسى.أدرك أن العجوز تمزح.

– سيبت ركبى ياعباس .

– احتضنته. ربنا يخليك لشبابك ياولدى.

– ليس عندى غير هذه العروس ياريس.

– أريد البنت حليمة .تعرفها ياعباس.

– عز المعرفة. ناس طيبون.لكن حالتهم...

– مستورة والحمد الله.

– لا تملك إلا جلابيتها.

– هذا ما أريده.

–٩–

– منْ بالباب؟

– عباس ياست أم حليمة.

– تفضل ياريس.

– معى ضيف.

دخل عباس ومن ورائه بسطاويسى.

– ياست أم حليمة نحن نريد حليمة.

– انتظرها عدة أيام لتستريح ياولدى.

– ياسوسو.
– دخلت عجوز فى السبعين من عمرها.
– بسطاويسى طلب إيدك وأنا وافقت يا أمى.
قالت فى صرامة لا تنم عن مزْح .
– عمرى ما كسّرت كلامك. ما تراه ينفذ فى الحال.أين العريس؟
– هو الجالس أمامك ياسوسو. شاب حليوة سنه خمسة وعشرون عاما.
– كفاية عشرين .
تنهد بسطاويسى.أدرك أن العجوز تمزح.
– سيبت ركبى ياعباس .
– احتضنته. ربنا يخليك لشبابك ياولدى.
– ليس عندى غير هذه العروس ياريس.
– أريد البنت حليمة .تعرفها ياعباس.
– عز المعرفة. ناس طيبون.لكن حالتهم...
– مستورة والحمد الله.
– لا تملك إلا جلابيتها.
– هذا ما أريده.

–٩–

– منْ بالباب؟
– عباس ياست أم حليمة.
– تفضل ياريس.
– معى ضيف.
دخل عباس ومن ورائه بسطاويسى.
– ياست أم حليمة نحن نريد حليمة.
– انتظرها عدة أيام لتستريح ياولدى.

– لا نريدها فى شغل. الريس بسطاويسى طالب يدها

– كيف عرفها؟

– الريس الذى كنا نعمل عنده.

– سعدية حكت عنه.

– سعدية من ياخالة ؟

– حليمة – اسمها .حليمة السعدية.

من خلف الباب تمتمت:

– السعدية !! أمّال الفقرية أين؟ إذا كان ما نحن فيه سعد.فليذهب السعد إلى الجحيم.

– يا سعدية ناس يسألون عنك.

دخلت بجلابية البيت.

– الريس بسطاويسى طالب يدك.

– كادت تُصعق. جرت. انخرطت فى بكاء شديد، حاولت الأم تهدئتها فلم تفلح.

– الصباح رباح ياريس .

قبل صلاة العصر تم الاتفاق على المهر والشبكة وكتب الكتاب والدخلة.لم يكن لسعدية غير شرط واحد.

– لا أستطيع أن أترك أمى وحدها.

رحب بسطاويسى بالأم ترحيبا شديدا.

–١٠–

– عَمار ياعَمار.

هكذا هتف قلبها.

غرفة فسيحة.. أحكمت نوافذها، صُقلت مراياها كأنما طليت بها. مرايا شديدة اللمعان، سرير كبير يتوسط الحجرة.. ملاءة حمراء. وسائد

من عهْن منفوش. كنبة أسيوطى وكرسيان. وطاولة عليها غطاء مزركْش.

فتح البسطاويسى الباب.. كاد يجن... خيالات تتراءى.. أشباح تتكاثر- تتداخل، تتقعر.. تتحدب تعلو .. تنهبط ((تبلعط)) بلطَيه فى حوض ميّهُ تغشاه أمواج من فوقها ومن تحتها أمواج.

تراءت السعدية بغلالتها الحمراء كأنها قبس من نار ونور، جللته سحابة سوداء تماوجت على الكتفين، تراقصت على عجيزه مدملجة. تراءت من تحت قميص جهنمى. بدأت كأنها الشمس ساعة إشراقها تبزغ فى هالة من الضياء، أولحظة غروبها وسط شفق متعدد الألوان (إذا الشمس كورت).. بعد لحظات انداح لونه الأسمر فى أبيضها وأحمرها وأسودها. بدت أطياف قوس قزح تتصارع على الجدران حتى الصباح.

-١١-

قبل أن يبدأ العمل استدعاه كامل بيه.انتظر عدة ساعات قبل أن يؤذن له. ألقَى السلام فلم يسمع ردا. ظل واقفا.. دون أن يلتفت إليه:

- لسنا حكومة لا إجازة للخدم والشاغلين. هم وزوجاتهم ملك لأسيادهم. يقومون على خدمتهم فى الحقل نهارا. وفى البيوت ليلا.النساء قبل الرجال، من الغد تنضم الهانم زوجتك إلى بقية الشغالات فى القصر.

عاد مهموما

- البنت لم تسبّع بعد. ماذا أقول لها !! تزوجتك لتعملى فى البيوت . لم تخرج واحدة من بناتنا ولا زوجاتنا قبل ذلك. جار علينا الزمن ,لكن العيب عيب. البنت فقيرة. لكنها زوجة حفيد البسطاوية. كرامة المرأة من كرامة زوجها.. شابة جميلة. والقصر بؤرة فساد. سمعة إخوته فى الوحل. الخمور والحشيش أكثر من المشمش. كامل بيه لا خوف على النسوان منه .الخوف على الرجال .

عدة أيام والبسطاويسى لم يرد:

من فوق الحصان قال كامل بيه :

- الظاهر أنك تزوجت البرنسيسة... التى تتكبر عل الخدمة فى بيوتنا لم تخلق بعد. قبل أن تنزل العمل غدا: تكون الهانم فى السراية .

-١٢-

كان البسطاويسى أول من عمل من البسطاوية عند الغير. وقد اختاره كامل بيه لأنه يحمل اسم جدة الكبير، مؤسس الأسرة البسطاوية؛ ليتمرغ أنف المتكبرين فى الوحل.

يقال إنهم سموا بذلك لأنهم بسطو نفوذهم وسلطانهم على الدلتا كلها. ويقال لكثرة إنفاقهم وبسط أيديهم بالخير. أو لأن الله أتاهم بسطة فى الأجسام والأموال. ويقال إنهم البطالسة الذين حكموا مصر قبل الميلاد. ويقال إنهم جاءوا مع الفتح العربي. والراجح عندهم أنهم أحفاد العثملى سليم الأول. وأنهم حكموا وسط الدلتا كلها. واستقدموا خدما وعبيداً من بلاد العرب وأفريقيا، ومن بين ماجلبوا أجداد كامل الكلاف.

-١٣-

- هل أَمتثلْ لإهانات ابن الكلاف !!يريد أن يسحق آخر قطرة فى رجولتك. آخر بقايا كرامتك. كله يهون إلا الأعراض. النساء خط أحمر وأسود وكل الخطوط.لم يكن كلب غريب يجرؤ على شم ذيل كلبتنا . حاول جحش الشهاينة النيل من حمارة من حمرنا.أقام المفتى عليه الحد .رُجِم حتى الموت.

كان أكبر أجداده يتفاخر بأنة مساعد كلاف جحش البسطاوى الكبير.. كانت جدته بخيتة هانم العمشة أحسن واحدة تقّرص الجلة .كل الناس يعرفون عقده وكلا كيعه من أسياده .

جدى عبد الحميد البسطاويسى. كان اسمه السلطان عبد الحميد. رفض إشارة من الخديو عباس الأول. فصادر أمواله .طُلب منه أن يعتذر للخديو.

-١٤-

رفض.كان يقول:

إن محمد على اغتصب الملك من أجداده. كل البسطاوية يرددون صباح مساء ما كان يردده جدهم:

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبْطش حين نبطش قادرينا
بغــاةً ظالمين وما ظلمنـا ولكنا سنبدأ ظالمينـا
ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ الرّضيع لنا فَطامـا تَخر له الجبابُر ساجدينا

السراية بها خدم كثير. رجال ونساء. لا يريد ابن الكلاف سوى إذلال البسطاوية. كانت جداته ملك أيماننا. ربما تكون فيه دماء من دِماء خدم البسطاوية.

-١٥-

عاد مهموما .مغموما .لا يدرى ماذا يفعل. ولا ماذا يقول .

– قبل أن تكمل شهرا تخدم فى البيوت. لقد تزوجت لتتجنب العمل فى الحقول. بعد الزواج تخدم فى البيوت!! إذا كنت لا تصون كرامة زوجتك فلماذا تزوجت؟ أصغر حشرة تدافع عن بيتها حتى الموت.. أمها الغلبانة رفضت عملها فى البيوت .

-١٦-

دون أن يفاتحها فى شيء ، عقد يديه تحت رأسه.. تأمل الأشباح التى تراءت فى سقف الغرفة.. أسبل جفنيه هل تغشاه النعاس؟ هل مات؟ لا يدرى.

– الأموات أكلوا وجهى يابسطاويسى، هذه خلفتكم يابسطاوية. حفيدك يعمل عند الكلاف. انظر: نظر من شباك القصر. رأى الكلاف الكبير مادا

رجليه أمام ركية نار. أمره بالوقوف تباطأ انهال عليه خدم البسطاويسى ضربا بالمراكيب.

انقلب على جنبه رأى حليمة بالجلباب الذى جاءت به أول مرة – بيديها عود (سريس) مسحته في ثوبها. استلت لقمة ناشفة غمستها فى الماء قضمتها. اغْترفت من الترعة عدة أحفان – شربت تجشأت – توضأت:

– الحمد لله . اللهم دمها نعمة واحفظها من الزوال.

–١٧–

دفعة جديدة قضوا نصف المدة ,إفراج بمناسبة المولد. اصطفوا أمام باب الجنة. لمح البسطاويسى الكبير محمد الكلاف يقترب من الباب.

– علّى الطلاق ما أنا قاعد فيها ساعة هزلت ,الخدامون يقعدون مع أسيادهم.

– إلى أين؟

– إلى أى داهية ليس فيها أحد من أولاد الكلاب.

– ليس هناك مكان أخر إلا النار

– أرحم الواحد يعيش بكرامته .

–١٨–

قبل أن تشرق الشمس. وضع شاله على كتفه.

– لا تنشغلوا إذا غبت عنكم يومين.. ثلاثة..

–١٩–

– (رحم الله امرءا سمحا إذا باع وإذا اشترى).

– هكذا قال.. تجار السوق. قول مأثور حفظوه عن أجدادهم.

– خف ياباشا. بيوت كثيرة مفتوحة من فضلة خيرك.

– تاجر ابن تاجر.

– عدم المؤاخذة يا باشا .لماذا يسمونك... وأنت باشا ابن باشا ؟

نظر المعلم زيدان إلى الكواملى نظرة استنكار!!

– دعه يا معلم وأنا أحكى لكم حكاية الكلاّف .

– كان جدى الباشا الكبير.

– ألك جد كبير يا ابن كلاف الحمير .

((هكذا همس بسطاويسى المختبئ خلف الستار))

يجْلب الجواميس والأبقار ,والخيل والجمال ,والماعز والأغنام.والخدم والعبيد والأنفار.. من الحبشة والسودان . ويعلفها تبنا وفولا ,وكسبة وشعيرا.وذرة وبرسيما . فتمتلئ لحما وشحما . يتوافد علينا التجار من كل بلد قريب أو بعيد، لجودة لحومنا وشهرتها ورخصها أيضا ,لهذا سُمى الكلاف لما تتكلفه مواشينا من أعلاف. كما أنه دائما يشترى وسايا وعزب , ويسجلها فى الحكومة وهذا التسجيل يُسمّى تكليفا . ولكثرة تكليفه هذا سمى الكلاف. كما أنه كان يكلف حكام المدريات بجمع محاصيله وتحصيل الإجارات. فسمى كلافا.. هو تاريخ مجيد نعتز به.

على الرغم من حججه الواهية لم يعترض أحد .

– أصيل ابن أصول يا كامل باشا .

كان كامل بيه قميئا قصيرا شديد السواد، اشتعل رأسه شيئا قبل أن يبلغ الأربعين . ولقصره كان لا يخاطب الناس إلا وهو على ظهر دابة، أو داخل عربة. كان نسب الكلافين مغموزا يساعد على ذلك سواد بشرتهم, وتجعيد شعرهم، وفطس أنوفهم. كل شيء يقول إنهم عبيد . على الرغم من ادعائهم الشرف – الأشراف يدعون أن جدهم سيدنا فلان أو علان .فمن جد هؤلاء؟

– يقال إن جدهم الحجر الأسود .

حاولوا تغير جلودهم بمصاهرة سلالات أوربية. فجاء نسلهم مختلف ألوانه. جدد بيض . وغرابيب سود. أشبه ما يكون بسكان جنوب أفريقيا. كان كامل بيه فلاحا ناصحا، أدرك أن غزه وشرفه فى ماله وما ملكت يمينه . أفاد من زراعته أقصى ما تكون الفوائد ,فهو لا يبيع حدائقه ولا شيئا من زراعاته على أرضه.ويشترى كذلك محاصيل الآخرين. لديه القدرة على الإنفاق من ماله الخاص ,فهو أول من أدخل الكيف إلى البلد. ومن أرباحه أنفق على مزارعه ومواشيه ,فلم يحتج إلى مقدم أو سلفه.لذا فهو يبيع بالثمن الذى يحدده، وفى أى مكان. فلديه أسطول نقل إلى كل الأسواق. ولديه رجاله المدربون على ذلك.

بسطاويسى أهم رجال الكلاف – أتاه الله بسطة فى الجسم، وفصاحة فى القول، وقبولا لدى الناس أجمعين. كما أن سمعة البسطاوية القديمة لا تزال محترمة، على الرغم من محاولة الكلاف إذلالهم والتقليل من شأنهم .

كان بسطا كما يدلعه المقربون يرافق سيارات الخضراوات,والفواكه,والغلال إلى الأسواق الكبرى فى القاهرة، وطنطا والإسكندرية ,ويجلس للبيع قطاعي، لا يحرم تاجرا. كبيرا أو صغيرا من نصيبه. لذا اتسعت دائرة صداقاته واحترامه وحبه.

–٢٠–

– حمد الله على السلامة يامعلم .

– م علم مرة واحدة .

– أين سياراتك ؟

– جئت بدونها.

– خير إن شاء الله.

– حكاية طويلة ياسيد المعلمين .

جلس بسطاويسى يحكى حكايته وحيرته ويبث شكواه

قال المعلم الكبير :

السوق تحت أمرك. أنت صديق عزيز .وفاهم فى كل شىء، ولم نسمع عنك إلا كل طيب أحضر أهل بيتك. لن يمسك سوء. وإن حاول الكلاف النيل منك. فستكون نهايته. التجارة شيء وحمايتك شيء أخر، السوق كله يد واحدة .

- ألف شكر يامعلم :

- نرسل معك عددا من الوِلْد؟

- لا حاجة سندبر الأمر فَلَا يشعرنّ بنا أحد.

- نراقب الطريق ؟

- بعد خروجى من البلد الطريق آمن.

-٢١-

لم يتغيب بسطاويسى كثيرا. عاد إلى عمله فى نفس اليوم .. فى صباح اليوم التالى ذهب بزوجته إلى قصر كامل بيه. قضت يومها ثم عادت. استمر الحال عدة أيام .

الجمعة إجازة البسطاويسى. أعلن أن زوجته ستزور خالها فى طنطا, أستأذن من كامل بيه، ركب القطار. صلى الظهر فى السيد البدوى. قبل صلاة المغرب. طرق باب المعلم زيدان فى روض الفرج .

- الجماعة وصلوا يامعلم.

-٢٢-

وضع المعلم يده على خده، وغاب تماما,لم يسمع للبسطاويسى رِكْزا .

على حافة الترعة تقرفص عدد من الصبيان، ليس عليهم إلا ما يستر العورة، الفقر لا يعرف الاحتشام ,تطلع الشمس فى وجوههم، وتغرب فى أقفيتهم. يملأون بطونهم من ماء الترعة الدسم بالطمي ,يخترق الأمعاء

الخاوية كأنه شقة سكين، فيصيبها بالغثيان، ما أشد ألم الماء على معدة خاوية . اصطاد سمكة التهمها كما هى. كل ما فى البحر حلال: ضفادع، جعمص قراقير. خشاش الترع. ما تنبت الأرض من بقلها. لاحت قناديل الذرة مصفرة تعلو وتهبط. انسحب معها قلبه. تسلل. أمال عودا. قضم قضمتين فتح فاه. لم يستطع إقفاله .مسامير انغرست فى قفاه . طوقت عنقه قبضة من حديد وكز القابض.. رفسه هبشه. تفلت.. مرق كالسهم. اندفن فى غابات الذرة. انطفأ كبرق برق لحظة ثم ذاب. تعالت أصوات.. نبحت كلاب..

غاص فى الماء كالسمكة. على الشاطئ الغربى انتحى جانباً. مكانا قصيا. كمش فى الهيش. فلما جن الليل تسلل إلى الطريق بعيدا حيث لا يعرفه أحد. عد الفلنكات ... ابتعد تماما. انبطح على سطح قطار الليل.. بعد ساعات دفعته قوة فى رجله.

انزلق بين القضبان قبل أن يقف القطار تماما. نام بين العربات القديمة مع من نزل معه. وجد رفيقا يؤنسه، رفاق الطريق كالكلاب الضالة سرعان ما تتآلف. البؤس صداقة. والجوع أخوة، والفقر رحم بين أهله. "وجعل بينكم صهرا ونسبا". هو دون غيره.

تسلل إلى قطار الليل مرة أخرى. سطح. تنقل. تسلل بين العرْبات .

– تذاكر .. تذاكر.

مرق .. اندس فى الحمام .طرق لا ينقطع.

قبل أن يتوقف القطار فى محطة المنيا. قفز من الشباك .عد فلنكات.نام على أبواب جوامع كنائس. خرائب. نبحته كلاب . لفظته حقول بعد ثلاثين يوما وجد نفسه فى قلب القاهرة.

● ● ●

-٢٣-

سوق الخضار قبلة الصعايدة. يأتون إليه حفاة عراة.وكأنهم يرتدون ملابس الإحرام متوسلين داعين ألا يعودوا كما ولدتهم أمهاتهم.

- اللهم حملنا مالا طاقة لنابه.

- اللهم اجعلنا ممن يكنزون الذهب والفضة.

- اللهم ابن لنا قصورا فى جحيم الساحل وروض الفرج.

حكايات.. أساطير سمعها. كل أصحابها عدوا الفلنكات.

سيارات. وعربات من كل نوع. خيل. بغال حمير. لن يجوع. بقايا فواكه. طماطمْ .بطيخ شمام تملأ أرض السوق. يدوسون النعمة تحت أقدامهم. قشر البطيخ يلقى على الأرض. أقوات العباد. تحت أقدام العباد. أقدام السوهاجية.

زحمة.. ناس داخلة وناس خارجة. لم يسأله أحد لماذا دخل؟ وماذا تريد؟

سوق وصاحبه غائب. صياح.. صراخ. دوى كالنحل.

أكلك تحت الأقدام. والنوم فى أى مكان! ليل السوق نهار. ونهاره ليل: متى ينامون؟

- ياولد: وصل المعلمة. هات عربة.

قبل أن تأتى العربة. كان قد نتع كل حمولة الست على كتفه.

رفعت المعلمة يديها. رنّ الذهب. شخللت الحلقان. خلخلت الخلاخيل.. سار خلفها يطوح يديه كأنه لا يحمل شيئا. نظرت إليه وجدته لا يرفع عينيه عن ظهرها. رقّصت فلقتيها كاد يغمى عليه. لم ير نسوانا قبل ذلك. المرأة الوحيدة التى كان يراها أمه. إن كانت نسوانا.

لم يكن يفرقها عن أبيه إلا الشنب. أمام باب السوق وضع حمولته. دست يدها فى صدرها، انكشف جزء من ثديها كاد يشهق. ناولته خمسة قروش،

وقف مذهولا... تناولها برفق أخفى دهشته دفن يده فى جيبه ولم يخرجها. سمع عن اليد التى خرجت بيضاء.

- شهرين ثلاثة. سأرسل لأمى خمسين قرشا. أول حاجة ستعملها أمى نفسها فى لحسة عسل. جبنة قديمة. قطع قلبها المش. والله. والله. لألبسنك مركوبا وطرحة.

نسيت اسمك يا أمى. هو أنت لك اسم آخر غير القرعة. نصف عربانة. ربع كارو. شراكة فى ربع نقل. عشق البيع والشراء. حب التمليك. عبد المال. حلم بالوجاهة والسلطان. قلد الكبار. عباية. مركوب مغربي. لاسه. شال كشمير. مسبحة كهرمان. عصا خيزران. بدأ مقطوعا من شجرة. تعافه كلاب السكك. امتدت جذور، نبتت أصول، اخضرت فروع، أورقت سيقان. تفتحت أكمام. أينعت ثمار. دنت قطوف.

● ● ●

انتبه على صوت الشيخ الدرويش. فاق من سكرته. رجع من غربته.

- ما هذه الصورة الجميلة يامولانا.

- هذه شجرة العائلة سلسلة نسبكم الكريم.

زيدان بن محمد بن عبدالله بن رشوان بن على بن عثمان بن عفان. ابن سعد بن وقاص. ابن عمرو بن العاص. ابن عمرو بن هشام. ابن عمر بن الخطاب بن عمر بن عبدالعزيز. ابن عمر المختار. ابن معاوية. ابن أبى بكر الصديق. ابن أبى لهب الزنديق بن خالد بن الوليد بن سليم الأول. ابن خوفو بن خفرع بن منقرع. ابن خليفة الزناتى وأبوزيد الهلالي. ابن جبريل بن آدم. ابن روض الفرج - رضى الله عنهم آجمعين - هذه سلسلة نسبكم الشريف فأنت خيار من خيار.

- ليس خيارا يارجل هو منجَى وتفاح.

– إشـارة منك ياابن القـرعـة تقـفل السـوق والوكـالة ,والحلقـة والمراكب السايرة. هتف فى سره:

مدد ياقرعة مدد.

● ● ●

زيدان ياابن زيدان
أنت العدل.
أنت رمّانة الميزان.
كلمة منك تهد الدنيا
من البحر للدوران
فى حمايتك
لا جائع ولا عريان
أبو الفقير
حبيب الغلبان
عايز عروسه
والسوق مَليان نسوان
قال شيخ أخر
– شوفوا للجحش أحلى أتان
– عايز مهر وجبة وقفطان.
– بردعة واشوال كمان
– اتكتم ياجربان
ياسلطان ياابن السلطان
هتدفع ولا نقول كمان.
نقلب على الوش الكحيان
بلغة فاسى

مركوب من مراكيب زمان

... ...

– وجهه كفة ميزان.

بوزه كيلو بازنجان

أنفان نضاختان

فيه من الحمار أذنان.

فبأى ألا ربكما تكذبان.

– الله يجازيك يا شيخ عمران.

انداح الماضى فى الحاضر... وانساح الحاضر فى الماضى . كان المعلم يتذكر ويحلم دون أن تأخذه سنة من النوم . ماضى لا يغيب عنه لحظة.

– زمن فتّاك قادر على هدمك فى لحظة. الهدم أسهل من البناء. البيت الذى تسكنه كان ملكا لصاحب هذا السوق. كانت أملاكه من بولاق حتى شبرا الخيمة . باع كل شيء فى عام واحد.

لم يخلق الفقر خوفا فى نفس زيدان لم يترك سمة تشير إليه. عضة الفقر فى الصغر تترك ندوبا فى النفس، تصدعا فى القلب، ضبابا فى العقل، اهتزازا فى الوجدان. تظل رواسبه تطبع صاحبه بطباعها، يتخلقون بأخلاقها: أخلاق الشح والبخل والأنانية والأثرة، وتمنى ما عند الغير. تصرخ فى أى بادرة للجود، أو إثارة من كرم. تغل الأيدى تربطها إلى الأعناق بسلاسل الماضي. تبسط يدها للأخذ والسلب والنهب، وتغلها للعطاء، تأمرها بالمنكر وتنهاها عن فعل الخيرات.. يتراءى لها فقر النفس والخلق والضمير على الرغم من تملكها شهوات الحياة الدنيا: المال والبنون. القناطير المقنطرة من الذهب والفضة. المركبات المسومة. الأنعام المنعمة.

لن تستطيع أن تفعل بى أكثر مما فعلت أنزلتك من على كتفى. ألقيتك فى اليم. تتقاذفك أمواج البحار. استللتك من دماء أبائى وأجدادى. وأحفادى إلى الأبد. ليس لك عندى إلا الحذاء. لن تدخل السوق ما دمنا فيه.

هكذا همس زيدان فى أذن الفقر والعجز والكسل. وراح يمد يده يبسطها بالليل والنهار. فياضة كالسحاب، واضلة إلى من لم يظن أنك واصله.

-٢٤-

لم يشعر المعلم بالنداء. كرر بسطاويسى القول:

– الجماعة وصلوا يامعلم.

أفاق من سكرته:

– والشقة جاهزة. غرفتان. وصالة ومطبخ وحمام وفرش كامل وكل ما يلزم من أدوات.

لم يعلق أحد. كلما حاولت خليمة نهرتها أمها.

انخرط البسطاويسى فى عمله بهمة ونشاط. استعان به تجار لفحص ما يشكون فى جودته. تقدير الحمولات قبل المزاد. لا تنقص شيئا. نسبة التالف كذا.

– كم كيلو يامعلم؟

– بسطاويسى قال: إنها تبلغ ألف ومائة.

– على بركة الله.

مضت الحياة بعيدا عن ابن الكلاف.

– مكسب كبير مهما كان الثمن.

نال ثقة البائعين والشيالين

– رفرفت السعادة على عشك ياسعدية، لا مطمع أكثر من ذلك تندفع نحوه تعانقة كأنه قادم من الحج .

– لا تؤخذنى طالت غيبتك

– بضع ساعات!!

– بضع سنوات.

– يابنت اتلمّى.

– لا استطيع يأمى غصْب عني.

-٢٥-

فى معركة بين تجار السوق. رفع نبوته دفاعا عن معلمه.

– ابتعد يابسطاويسى أنت غريب.

– لا أستطيع يامعلم وأنت محاصر. لابد من طردهم . طوح يمينا وشمالا. تراجعت جموع. صمم على إجلائهم عن السوق كله. دوّت أعيرة فى كل مكان. شعر بسائل فى جنبه الأيسر، سائل حار واصل التقدم، اشتدت حماسته. على باب السوق سقط. داسته الأقدام المذعورة. مات البسطاويسى.

– دم البسطاويسى دين فى عنقى وأولاده أمانة فى رقبتى.

● ● ●

-٢٦-

لم تستطع من وقع المصيبة أن تصرخ. لم تقو على القيام – ارتمت على الأرض. حاولت الأم أن تفعل شيئا. فلم تستطع. ظنت ان ابنتها ماتت. صرخت. الجموع مشغولة بما يجرى فى روض الفرج.

– لن يسكت الجماعة على رجلهم.

– سيقفل السوق.

– خراب بيوت.

قوات الشرطة تحاصر السوق. الحى كله. من شارع شبرا حتى البحر. لا أحد يدخل ولا أحد يخرج.

- هناك مفاوضات تجرى مع الشرطة لفض الأزمة.
- الزيدانية يرفضون الصلح. وجماعتنا يقولون لم نقتل أحدا.
- طلقة طائشة من حرس السوق. تنهى المشكلة. كما حدث قبل ذلك.
- هذا يصلح إذا لم يكن وراء القتيل من يطلب بدم.
- المزارعون طفشوا إلى الأسواق البعيدة.
- هم على حق من يأمن على ماله وسط هذه الفوضى. السكان لا يغادرون بيوتهم.
- والحكومة؟
- قبضت على كثيرين.
- السلاح يملأ البيوت. تدفق من كل مكان ,السيارات التى كانت محملة بالخضراوات تنقل الآن السلاح من كل نوع.
- والتفتيش؟
- من يجرؤ على تفتيش النساء!!
- بدون الصلح سنهلك جميعا.

● ● ●

-٢٧-

- زحمة الأحداث أنستنا أولاد المرحوم .
- جماعتنا يمرون عليهم كل يوم . زوجة المرحوم تعبانه جدا.
- هات لها الدكتور .
- لا أحد يستطيع الدخول.
- هات الولية أم لطفي .
- قالت إن الست حامل. ويلزمها حكيم. تلفع عباءته ,رفعت الرياح أطرافها فبدت كأنها قلع مركب. شق صفوف الشرطة كالجمل الهائج. حاولوا منعه صاح.

- الأوامر يامعلم.
- أنا صاحب الأمر والنهى هنا
- الحكومة.
- أنا الحكومة والشرطة.

تناول تليفون الشرطة

- صباح الخير يامعالى الوزير.
- كيف الحال عندك يامعلم؟
- نجلس فى البيوت كالنسوان. رجالك حبسونا.
- كلها أيام وينتهى الموضوع .
- اسحب رجالك ونحن ننهيه الآن.
- وجب يامعلم . نحن زملاء .
- ألا تزال تذكر ذلك ؟
- قال زبدان : شكرا يا باشا ، سلم لى على الصعيدى المجدع.
- ولا تنسى حكيم قل ((لأبى النور)) المعلم يقول لك: لا تنس ليالى روض الفرج.وسيارات الزيدانية وبيوتهم.

-٢٨-

لم تكن المدة التى قضاها بسطاويسى فى السوق طويلة. لم تتردد خلالها زوجته على السوق قط. فلم يرها أحد. كانت ترد على من يطرق الباب من وراء حجاب.. منذ أن تزوجت ورزقها يأتيها رغدا. ظلت كذلك بعد وفاة زوجها.

بعد موت المعلم الكبير. بدأت الأشياء تخف وتتناقص. تقطعت... ثم انقطعت تماما.نسى الناس الرجل الغريب. ومن لا يزال يذكر. لا يريد أن يتذكر.

- لم يعد لنا أكل عيش فى هذه البلد يا أمى.

– ولا فى غيرها يا ابنتى نساء كثيرات فى مثل سنى يجلسن حول السوق يلتقطن أرزاقهن.

– شحاتة يا أمي.

– يشترين ويبعن. أو يعملن ((شيالات)) سأجرب حظى من الغد.

– العمل شاق يا أمى دعيه لى.

– أنت شابة وجميلة والسوق كله رجال.

– أولاد البلد يعرفون العيب يا أمي .

كل عضو فيها يصرخ أنا أنثى. أنا امرأة. أنا اللذة أنا المتعة أنا شهوة الحياة الدنيا ,وجه أبيض ألقت عليه الشمس رداءها. خلعت له القمر جلبابها، بدت وجنتاه: مشمشتان حان قطافهما أنف قصير ممتلئ قليلا، تحته شفتان مكتنزتان، فم يميل للاتساع. صدر شديد التكوّر يكاد يخترق الحجب. وسط يكاد لدقة وليونته ينبتر. عجيزة وما أدراك ما هي. حين كانت تتجرد من غلالتها. كان بسطاويسى يهتف:

– نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة.لبيك.. لبيك

ارتدت ثوب أمها الأسود الطويل الفضفاض. كانت الأم ممتلئة. فلم يظهر الثوب أى تضاريس. لفت رأسها وعنقها ووجهها فلم تظهر إلا جزءا من فتحة عينها، فيما يشبه الملاءة. سترت باقى قوامها كان بعض نساء السوق يفعلن ذلك. فلم يكن مظهرها نشاذا .. بنصف ريال ابتاعت كومة من الطماطم.فى جانب قصى من السور كومت طماطمها أكواما

قبل أن ينتصف النهار . عادت وقد ربحت خمسة عشر قرشا.

خمسة أرغفة. وطماطم وباذنجان وفلفل وبطاطا.

-٢٩-

- لا يتركون الغلابة يسترزقون. منهم لله. عمال البلدية. يطاردون المستجدين.

على ناصية شارع رفعت، بعيدا عن السوق . حطت مقطفها. انتصف النهار، ولم ينتصف البرتقال

- ماذا تبيعين ياشابه ؟

- برتقال ياأمي.

قالت العجوز:

برتقال فى شارع رفعت !!

-٣٠-

- لو بقيت هذه المرأة هنا. لقطعت أرزاق كل البوابين.

هكذا قال العم حنفى:

قبل أن تشرق الشمس كانت النواصى والأرصفة غارقة فى برك من المياه والطين.

لم تجد مكانا تضع فيه مقطفها. وضعته على رأسها. تجولت فى الحوارى البعيدة... صعدت الأدوار العليا... طرقت أبواب الشقق. باعت بأقل الأسعار.

الفاكهة ليست رائجة فى الحوارى الشعبية. كما أنها تتسلل خفية بعيدا عن أعين البوابين الذين يمنعونها، أو يفرضون إتاوة،ومنهم من يطمع فى أبعد من ذلك.

- ضعى القفة هنا واصعدى بما فى السبت:

- حين رجعت لم تجد قفتها.

- أين القفة ياعم؟

- فى الحفظ والصون.

– أين هى؟

– فى الحفظ والصون خشيت عليها من السرقة فأدخلتها غرفتي. تحت السلم على يدك الشمال.

– هاتها.

– صاحب الشيء أحق بحمله.

ألحت لم يتحرك..وقفت حائرة لا تريد أن تتشاجر مع أحد. تقرفصت وضعت يدها على خدها انتظرت الفرج .

– ماذا تريدين يابنتى؟

حكت له حكايتها.

– قال صاحب البيت .

– ادخل أحضر القفة.ومعها ملابسك.ولا ترنى وجهك بعد اليوم.

انحنت على يد الشيخ تقبلها شاكرة.

– الفواكه زبونها قليل يا ابنتي. عليك بما تُنبت الأرض من بقلها وخيارها وطماطمها–وقثاتها وبصلها: الخضراوات.

–٣١–

وضعت رجلها فى الماء الملح. مناشير تنشر فى ركبتيها.. انكفأت على الأرض. راحت فى ثَبات عميق. وضعت الأم يديها على خدها. تساقطت دموعها.

– ليتنى أستطيع أن أحمل عنك شيئا. الحمل ثقيل. واللف فى الشوارع مُهْلك. لكنها مستورة . ليس أمامنا شيء آخر.

–٣٢–

كثرت طلبات الزبائن. لم تعد تُطيق حمل مشترياتها.

– هذه العربات الصغيرة تؤجر فى اليوم بعشرة قروش.

استأجرت واحدة. دفعتها بيديها. سارت الأم خلف ابنتها تلهث. والطفل يعبث بأطراف الخضراوات.

من فوق حافات البلكونات اندلقت أثداء غنية دسمة رجراجة. مختلفة الأحجام كأنها ضروع أبقار ،منها الرطب ومنها اليابس، العناب والحشف البالي ،قِراب أفرغ السقاء ماءها.

تأرجحت "الأسْبات" وتمايلت مع الهواء الرطب. تتقارب حينا... تتباعد حينا... تتراقص كأنها لِعْب العرائس ،طالعة نازلة كأنها أشطان بئر.

– كيلو ياسعدية.

– نصف ياست.

– تشكيلة خضراوات.

– مسقعة ياأم السعد.

– تسلم يديك ياأم البسطاويسى

كان ذكر البسطاويسى يسكرها، فتغرق بلا حساب.

●●●

كان إيجار السكن يرهقها، تراكم عليها. لم تشأ أن تبوح لأمها.

– السكن بعيد ياأمى. نشوف لنا غرفة فى الحى الذى نبيع فيه.

– ما ترينه ياأم الغالي.

فى الركن. حجرة مهجورة سكنتها الفئران والصراصير لها باب على الشارع الخلفى من بيت العدوى. استغرق تنظيفها عدة أيام. انتقلت السعدية وأمها والغلام الذى بدأ يشب بصورة ملحوظة. وجه مستطيل امتزج فيه بياض أمه ،بسمار أبيه فبدا نحاسيا لامعا، تزينه جبهة عريضة وعرنين أشم ووجنتان بارزتان، وذقن مستدير، فكانت تبدو عليهما الصلابة. كل شيء ينبئ برجولة وقوة. تقيس أمه طوله وعرضه كل أسبوع مستعجلة نموه.

- طلبات الناس كثيرة جدا ياأمى .

- نبحث عن جدع ابن حلال يساعدنا ويقف بجانبنا. و..

- لا تكملى ياأمى. لن يدخل حياتى رجل آخر.

-٣٣-

قبل أن تشرق الشمس كانت قد كومت كل ما يلزمها من الطماطم, والبصل ,والبطاطس ,والباذنجان ,والفلفل والخيار. وأنواع شتى من الخضراوات. رصها حمال على العربة وأحكم ربطها. ودفع بها خارج السوق.

- هذه بضاعتك ياست.

حاولت دفع العربة فلم تستطع زحزحتها.

- أين مكانك ياست؟

- بعيدا جدا.

- طنطا أم إسكندرية؟

- قرب الدوران.

- فركة كعب.

- دفع بالعربة سار بخطوات سريعة واسعة وهى تركض كأنها تسابق بغلا.

أمام مسكنها توقفت.

- انزل البضاعة هنا. كم أجرتك؟

امسك خيارة كبيرة وقضمها بصوت عال.

- كم أجرتك؟

تناول أخرى وهرسها بين أسنانه.

- أجرتك خيار؟

- لأننى لم أجد برسيما.

- لابد أن تأخذ أجرتك.
- أخذتها.
- خيار!!
- خيارة وقضمها جحش. إذا كنت ستبيعين هذه الأشياء فلماذا تنزلينها من على العربة؟

دفع بالعربة. وقال اتبعيني.

قبل صلاة العصر. عادت العربة وليس عليها إلا ما احتجزته لنفسها.

ظل الوضع هكذا عدة شهور. يجوب معها الشوارع.. البيع يتكاثر. الرزق ينبسط. وهى لا تبخل عليه. وهو لا يكل من اللف والدوران فى الحوارى والأزقة.

لم يتذكر وجه أبيه. لكنه لن ينسى وجه أمه، وجد فيها حنان أمه فعشقها لم يكن يدرى أن ذلك حبا ,ملك عليه كل خلجة من خلجات النفس، وكل دقة من دقات القلب. تعلق طفل فى الخامسة والعشرين بأم حرم منها.

- كتر خيرك
- أنا اسمى محمد أبو عبد السميع من سوهاج.

●●●

-٣٤-

فجأة اختفى محمد عبدالسميع. سألت عليه كل الشيالين.

- هذا الاسم غير موجود فى السوق. لا تتعبى نفسك.

كررت التساؤل فلم يجبها أحد. أسابيع وهى لا تكف...أمام بيتها سمعت صوتا.

- عيل تايه يا أولاد الحلال.

نظرت فإذا هو. هو. إنه محمد عبدا لسميع. اندفعت إليه كادت تحضنه.تحركت العربة فحالت بينهما. كفكفت دمعا من خلائقه الكبر. ابتلعت دموعها فشرق حلقها.أدارت وجهها وتساءلت:

- سألت عنك فلم يستدل عليك أحد.

- سألت عن من؟

- عن محمد أبوعبد السميع:

- ضحك ضحكة أشبه ماتكون بنهيق حمار.

- أزعجت الولد.ماذا يضحكك؟

همّ أن يعاود الضحك. رفعت يدها حرام كل الحمير نهقت حين سمعت ضحكتك.

- أخوتى من الرضاع. حين تسألين عنى اسألى عن اسم الدلع: محمد الجحش كل الناس سيدلونك.

وضعت يدها على فمها وابتسمت.

● ● ●

-٣٥-

قل لى يا..

- قولى ولا تنكسفى. ركبت على من زمان. الناس تركب الجحش. وأنا الجحش راكبنى.

- من أين يأتى تجار السوق بالخضراوات؟

- ينهبونها من الفلاحين الغلابة بثمن بخس.

- وأين هم الفلاحون؟

- قريب جدا.

- أين؟

- فى المنيا.

- المنيا بعيدة.

- منية السيرج قريبة جدا.ولو عبرنا السكة الحديد بعد المزلقان لكان ذلك أفضل ,وكلما ابتعدنا كانت الخضراوات أجود وأرخص.

قبل أن تشرق الشمس كانت السعدية تعبر "مزلقان أبو وافية" أكوام من الخضراوات، أقفاص الطماطم والخيار ,وأجولة البصل والبطاطس. شَحنت عربة كارو.

-هذا رخيص جدا يامحمد..

وجدت البصل رخيصا. ابتاعت عربة كاملة.

– هذا كثير . ماذا تفعلنين ؟

– سنرميه للجحش.

– لا تؤاخذنى يامحمد ياأخويا

أنزل الجحش حمولة الخضراوات.

انطلقت بحمولة البصل مرت على أصحاب المحلات والخيام ,بعد وقت قصير عادت وقد باعت البصل جميعه.



-٣٦-

لم يعد اللف فى الشوارع مناسبا. اتسعت التجارة- كثرت الطلبات تقاطر الزبائن...

– على الناصية محل للإيجار.

محل ياسعدية مرة واحدة .

صباح الخير يابا الحاج.

– يسعد صباحك يابنتي. البقاء لله. كانت المرحومة حماية لك يابنتى.

– أنا فى حمايتك ياحاج.

أعطاها الله ملاحة فى الوجه. ما أن ترفع رموشها إلا والقلوب تعلو ولاتهبط ,وسرعان ماتستقر احتراما وهيبة . كان المقطف على رأسها تاجا تعتز به اعتزازا ملأها ثقة. فبدت شديدة الوقار والاحترام .

لم يقو الشيخ على مواصلة النظر. فأدار وجهه.

- أى خدمة يا ابنتى؟
- عشمانة فى كرمك يا أبا الحاج.
- العفو يابنتى. أى خدمة؟
- عشمانة فى المحل المقفول.
ابتسم الشيخ متعجبا من قولها.
-لا يصلح للسكن.
- أريده دكانا لبيع الخضار.
- المحل كبير وإيجاره غالى عليك.
- لا شيء يغلو على ابنتك.
تمطق الشيخ.. ازدرد ريقه.. كاد حلقه يشرق وتمتم.
- بمائة وخمسين قرشا في الشهر .
- عشمى كبير ياحاج.
- مائة وأربعين. لأجل هذا الوجه السّمح.
وأمسك بذقن الغلام يداعبه .

عادت تدغدغ عواطف العجوز.. رفعت رأسها. تتطلع إليه. انحسرت الطرحة عن خصلة قطعه من الليل ,ورقبة كالبلور ,صدر مكتنز ريان دسم. تكاد حلمتاه تفقأ عين المتلصص. لملت شعرها بأنامل غضة ,وكف ريا. وهمست.

- وعلى شان وش...
ولم تكمل.
أدار وجهه.
- آخر كلام مائة وثلاثين:
وهمّ بالانصراف.
مقبول من وشّك يا...

-٣٧-

حـاول الشـيخ أن يقطع السلم وثبـا. تناسى سنّه رفع ثوبه.هم بتسلق الدرجات... عاد يغالب الإعياء ممسكا بالمفاتيح التى تهتز وتطقطق بين أصابعه المرتعشة المعروقة. احتضنت يده بين يديها الريانة الدافئة، همت تحضنه ثم أحجمت واكتفت بتقبيل يده. أحس بأنفاسها تصك ركبتيه... التفت الساق بالساق. نزع يده .هرول إلى دورة المياه.

-٣٨-

محل طويل عريض. له بابان كبيران. يحتل ناصية الشارع الكبير. أمامه فضاء كأنه ميدان فسيح. تصب فيه عدة شوارع. تتفرع منها عشرات الأزقة والحوارى التى تصب فى الميدان. يزحف البشر منها كطوابير النمل فى صمت رهيب... فى بقية النهار تطل من فتحات البدرومات رءوس الغلمان تظهر وتختفى كالجرزان. يتنطط غلمان... تجرى وتعود مسرعة كأنها قطعان الأرانب. تبرق عيونها وتتسمع آذانها.. ترصد حركات السابلة.

وسط الزحام تكثر الأرزاق.

– رزقك تحت أقدام هؤلاء الحفاة العراة. سأنتزع الملاليم انتزاعا، سأنقل إليهم ما يحتاجون. سأكتفى بأقل القليل. لن يجدوا أرخص من بضاعتى . ستصل الطلبات إلى البيوت. سأقتسم معهم لقمة العيش. كلهم غلابة مثلى، لا أطمع إلا فى عيش مستور. لن أرد طالبا مهما قلت ملاليمه. لن يبيت بيت واحد بدون طبيخ.

-٣٩-

من البر الغربى حيث المزارع التى لا نهاية لها. أطنان من كل شيء. ملأت دكانها: أجولة من البطاطس والبصل والثوم والباذنجان. وأقفاص من كل أنواع الخضراوات.

تقرفصت البنات ينظفن، ويربطن. على كل سعره. جلست السعدية خلف الميـزان، والجـحش يحـرس وينظم ويراقب. طارت شـهـرتهـا فى الدوران والحدائق وخلوصى وفكتوريا، يأتيها الناس من كل زقاق بعيد.

-٤٠-

بعـد سنة واحـدة سـيـذهب بسطا إلى المدرسـة الكبـيـرة عند حـديقـة الحيوانات.

– الدكتور أحمد بسطا..المحامى.. الضابط. كل الشهادات حتى الدبلوم.

– صباح الخير ياأم السعد. مبسوطة يابنتى؟

هكذا قال الحـاج عبد العاطى الأسيوطى صاحب البيت الكبير تاجر السجاد.

– لست مبسوطة ياحاج.

– كفى الله الشر يابنتى. لماذا؟

– السكن ضيق. والولد كبر، وأصحابه يريدون زيارته، وهو محرج منهم.

– ابنك صار رجلا. ومن حقه سكن مناسب.

– ساعدنى ياوالدى.

– الشقق كثيرة. اسألى البوابين.

– لكنها بعيدة عن المحل. وأنا وحدانية، وأخاف على نفسى. أريد رجلا طيبا شهما، أعيش فى حمايته ورعايته.

– وأين هو يابنتى؟

– موجود.

– دلنى عليه وأنا أذهب إليه.

– هو معك دائما.

– لا إله إلا الله. حيرتينى يابنتى

– شابة كما ترى.

أمسكت طرحتها من طرفيها. فردت ذراعيها قليلا برز صدرها. لاح عنقها. افتر ثغرها، غمزت غمازتاها. أسبلت جفنيها، رفعت حاجبيها. انخلع قلب شيخها. أحس تيارا خفيفا يسرى فى عروقه. وندى يبلل جبهته.

– شابة مثلى تريد رجلا طيبا يحميها من عبث الرجال. تأمنه على مالها وولدها ونفسها. لو وجدها.. لا مؤاخذة. يسترها. تضع رأسها على كتفه. تشكى له وجيعتها ,الوحدة مرة ياأخويا. وانخرطت فى البكاء.

– لا تحملى هما. سأبحث لك عن سكن مناسب. اليوم إن شاء الله.

– طلبي عندك.

– عندى أنا!!

– الشقة الخالية فى الدور الثاني. أنت لا تحتاجها. ومتى تريدها نسلمها لك. سأدفع لك ما تريد.

مدت يدها إلى صدرها، دفستها بين ثدييها، شدت فتحة الصدر. حركتها جانبا، بان جزء من اللحم. نصفه الأعلى أسمر من لفح الشمس. والأخر شديد البياض..

كبشت كبشة مدت بها إليه.

– خذ ما تريد.

– الشقة ليست جاهزة للسكن.

– سأقوم بعمل كل شيء على حسابي.

قبلت جبهته

جرى إلى المسجد يجدد وضوءه.

عاد من صلاته يحوقل. أدارت وجهها كأنها لم تره. انكفأت ترفع باب محلها. انحسر جلبابها عن رجلين ممتلئين. وعجيزة لافتة جاذبة لأى نظر. بربش الشيخ، عض شفتيه، غض بصره. أدار وجهه. يسعل.

– انتفضت كأنها فوجئت.

- صليت يا أم بسطاويسى؟
- الحمد لله ياحاج.
- حين تفرغين من عملك اصعدى لتطالعى الشقة.

●●●

ثلاث غرف. وصالة واسعة. مطبخ كبير... حمامان
- تحتاج إلى ترميمات: سباكة.. كهرباء. محارة. نقاشة...
فى أقل من شهْرين فرشت فرشا يليق بدكتور مهندس.. ضابط كل الشهادات...

-٤١-

منذ سنوات ونحن نتاجر فى الخضراوات، ولم نصل إلى أصغر تاجر فى السوق. ملأنا المحل: بصلا طماطم. بطاطس. كل لوازم البيوت.
- حتى لو ملأت البحر فلن تكونى مثلهم.
- لماذا يا...
- نفسى أسمعها منك. هم يتاجرون فى الصنف.
- أعوذ بالله. مخدرات!!
- الصنف يعنى الفواكه. مكسبها أكثر من المخدرات.
وضعت يدها على جبهتها - جلست تسائل نفسها.. ثم قالت باستغراب:

- فواكه!! الكارو مشحونة بالبرتقال واليوسفى وكل يوم نبيع.
- البيع غير التجارة. تجارة الجملة. شاحنات... لوارى . تبيعين قفصين ثلاثة.. عشرة. مكسبهم جنيهات. نأكل ونشرب ونعلف وندفع إيجارات. ماذا بقي؟ البيعة الواحدة فى الجملة، بالصلاة على النبى، فيها خمسمائة.. ستمائة لحلوح.. رُزم.. رزم. كل ديك ينقر عين أخيه.

وضع يده على خده وهتف.

- معسلة قوى يابطاطا طا طا .

- خليك جد.

- الله.. الله على الجد. والجد: الله.. الله عليه.

- ادخل فى الموضوع.

- السوق أبي.. السوق أمي. لا أعرف لى أهلا ولا ناسا غيره.

- واكل ناسك يعنى.

- أين هم؟

طلعت للدنيا وجدت نفسى تحت أقدام الحمير. أنام معهم .. آكل من أكلهم.

- إياك أن تأكل من فول الجحش.. بقايا خضراوات مما يتبقى من أكلهم.

- كان للمعلم الكبير جحش كبير. يقولون إن السيد والده ليس جحشا. بل كان حصانا.

أخذه.... إبراهيم باشا.

- من إبراهيم باشا؟

- الأسبوع الماضى كنافى العتبة. وقلت ما هذا ؟

قلت لك . هذا إبراهيم باشا، وهذا الحصان.الكبير الذى أخذه من زيدان الكبير. كان الحصان مربوطا فى السوق. قفز الباشا عليه وفى نطه واحدة، نزل فى العتبة، ومن يومها وهو واقف مكانه.

وهو عائش حتى الآن؟

- الكبار لا يموتون. لو ماتوا من يحكم ؟ من يضرب؟ من ينهب ؟ من يسرق؟

● ● ●

بمرور السنوات زالت الكلفة بينهما تماما.

أحست السعدية إحساس التوأم، تتصرف بتلقائية. لن تصدق أن ما بينهما حب امرأة لرجل.

– شعور مبهم.

– لا أدرى من هي. حرمت من الأم والأخت والبنت. والعمة والخالة والجدة. والزوجة والحبيبة. فمن السعدية؟ هى جميعهن. كيف تعرف من هي. وأنت لا تدرى من أنت؟ ولم تجرب حبا قط غير حب الحمير.

نشأت تحت حوافر حمير السوق، آكل مما تأكل، وأشرب مما تشرب، وأنام حيث تنام. أحببتها حبا جما. أسهر على رعايتها وخدمتها. تطلعت كثيرا إلى خدمة الباشا.

– الباشا؟

– جحش الباشا.. باشا.

حين مات سيد الحمّار خادم الجحش الكبير، تمنيت أن أحل محله. لكن الباشا الكبير، سيد المعلمين، استأجر خواجه.

مع طول العشرة تعلمت كثيرا من الحمير: النظافة، والصبر والتحمل وطول البال والذكاوة. مشوار واحد، لا يضل طريقه بعد ذلك، ولا ينسى .. لا يعثر فى حفرة واحدة مرتين. من روض الفرج، إلى إمبابة، إلى الدراسة، والقلعة، والعباسية، يخترق الشوارع، وأنا لا أدرى إلا حين نصل.. أول الطريق ثم يكمل، ثم يعود بنا من حيث أتينا.

كان الباشا الكير يطعم جحشه بيده ,لا يأكل من غيرها قط. إذا غاب سيده امتنع عن الطعام والشراب مهما طالت مدة غيابه. يطعمه (حمص وسودانى وسكر.) وكان صاحب مزاج. ينفث الكبير الدخان فى مناخيره، والجحش يشنف ويبتسم.

– جحش يضحك.
– هذا ليس كغيره. يقولون إن جده الكبير نزل من الجنة مع سيدنا آدم. كان مبروكا يحلف الناس به. حين انتقل إلى رحمة الله ظهرت بركاته فى أربعين بلدا .. له فى كل بلد مقام وجامع، موالد وزوار، ونذور.

فى المقطم مقام كبير أعلى من الهرم، مفروش من رمل الجنة. مدد ياسيدى الجحوشي. لا مؤاخذه، لو واحدة لا تنجب. تضع فى الصندوق سبع برايز، وسبع شمعات، وتتمرغ فى ترابه سبع مرات. تدخل غرفة المقام بسبع أثواب تخلع واحدا واحدا. المقام ظلام كحل. ليس به إنسان ولا جان.

كابوس كتم نفسها، كسر عظمها. ارتعشت، تصببت عرقا، همس فى أذنها:

– أنا زوجك فى الجنة. أحصنت فرجك فنفخ. الروح فيه. بعد أشهر.. هلت البشائر.

– الله يجازيك . كيف عرفت كل هذا؟ هل نفخ فيك أيضا؟

– لا أحد يعرف السر غيرى. كنت أذهب ببعض النسوة إلى الحسين والسيدة، وأسواق العطارة والصاغة. وقد تعود الناس على ذلك,أذهب إلى أى مكان تريده النسوان، والرجال مطمئون على حريمهم معى. لا أحد يقترب. حتى قطاع الطرق. أو فتوات بولاق، والعطوف والدراسة الذين لا يسلم من رذالتهم أحد، يحسبون ألف حساب لحمير السوق. خيل الحكومة تتوقف. لا تمر دون أذن.

مرة استوقفتنى زفة أمام السلطان أبو العلا. حجزوا الكارو. نزلت. همست فى أذن المعلم هريدى فتوة بولاق والسبتيه والوكالة وأبو طالب وشركس. صاح:

– توقف كل شىء، حتى موج البحر. شق الموكب نصفين، كل نصف كأنة جبل المقطم. عزفت الموسيقا سلام مربع لجحش الباشا..

- أنت ولا هو؟

- هو طبعا:

- انطلقت الأعيرة، والزمامير، والزغاريد. وجحشنا الأخضر. يهز رأسه، يرد التحية بأحسن منها.

- وهل هناك جحش أخضر ؟

- سموه أخضر. لأنه بركة.. من ذرية الأكابر. فى العودة. تعيد الواحد منهن كل ما حدث لها. لكثرة الحالات حفظت كل شئ.

● ● ●

- ثالث زيارة ولم يحدث شيء.. تزوجت مرتين ولم يحدث شئ!!

- قالت السعدية: نسينا موضوعنا.

- أى موضوع؟

- موضوع الفاكهة.

- أكمل لك حكاية الحمار.

- ألم تنته بعد؟

- حكاية حميرنا لا تنتهي. وآخرهم المرحوم الذى تشرفت بخدمته. تيتمت بعد استشهاده. فجأة مات الباشا الكبير انقلبت مصر كلها. كانت جنازته ولا جنازة الزغلولى باشا.

- من الزغلولى باشا؟

- تاجر بلح كبير. زارع أرضه كلها بلح، البلحة الواحدة كيلو. اسمه بلح زغلول. كان مدوخ الانجليز.

بعد موته صنعوا له تمثالا على كبرى الأسود؛ لأن وجهه وجه أسد.

● ● ●

احتفظت حميرهم بأصولها، لم يخالطها دم آخر. عشقت حمارة منهم مرة جحشا غريبا. قتلا معا رميا بالرصاص. تتزوج حمارتهم جحشا منهم

ولا تنجب إلا مرة واحدة يحتفظون بعدد من الإناث ويقتلون الباقى. بمرور الزمن ضعفت السلالة كادت تنقرض كان آخرها هذا الذى أحدثك عنه.

امتنع آخر الكبار عن الآكل والشرب، ظل واقفا لا يتحرك والدموع تجرى من عينيه. حاولنا إطعامه فلم يقبل. لم يفلح معه كبير الدكاترة: مصريون وخواجات، رفس كل من يقترب منه. بعد أيام طويلة برك على الأرض. نام على جنبه الأيمن. مد رقبته، استقبل القبلة. فتح فاه عدة مرات ,فاضت روحه. دفن فى مقابر سيدى الجحوشى الكبير. ظل العزاء متصلا ثلاثة أيام.

بقيت بلا عمل إلى أن قابلتك أمام باب السوق. هذه حكاية الجحش والجحوش.

- كنا نتكلم فى ماذا؟

- كنا ياسيدتى نتحدث عن الفواكه والمزادات.

- غدا - إن شاء الله - نذهب إلى المزارع، بعد السكة الحديد. أو نعدى البحر.

- الفواكه ليست فى هذه المزارع، فى الجناين. فى بلاد بحرى.

- بلاد بحرى واسعة؟

- أنا ذهبت معهم كثيرا.

- تعرف الطريق؟

- الجحش يروح المشوار مرة واحدة. لا يتوه.

فى السوق تحسس الأخبار. المزاد الكبير بعد عشرة أيام فى (كفر شكر). جناين محيى الدين.

اشتراها مرسى الأسكندرانى. سيبيع المحصول لتجار الأسواق.

-٤٣-

فى الساعة الثانية عشر فتح المزاد. توالت المزايدات.

- الحريم تزايد!!

- سلكوها بقرشين.

- ولا برتقالة.

اندفعت كالمجنونة.

- مبروك عليك المقلب.

- خاذوق مغرى.

- خلليه.

- أعصريه.

- وزعيه على روح والدك.

- لن تدخل السوق ببرتقالة واحدة.

أمام دكانها رصت الأقفاص الكبيرة . امتلأت الأرصفة.

- أمامك مهلة أسبوعين. لابد من دفع باقى الثمن. خراب بيوت، وسجن.

شحنت أربع سيارات ربع نقل إلى سوق التوفيقية والعتبة والمغربلين والناصرية.

- الذين اشتروا البصل ,سيأخذون البرتقال.

- المكسب لا يقل عن ثلاثمائة جنيه.

- نسدد فلوس الناس أولا. ونكتفى بأقل ربح.

قبل صلاة العشاء قرأت الفاتحة فى السيدة زينب. وقفلت راجعة إلى شبرا.

- الحمد لله فى يومين فقط ,بعنا كل البرتقال، بأقل الأسعار. ربحنا كثيرا.

- لو تاجر آخر كان مكسبه أضعاف أضعاف.

- هذا ليس مكسبا، بل سرقة . أكل أموال الغلابة. تجار صنف كما تقول.

● ● ●

لم يكن للسوق من حديث سوى حديث المرأة الهبلة.

- تريد أن تكون معلمة.

- لم يظهر برتقالها فى السوق.

- رمته فى الشرقاوية.

- فرقته على روح المرحوم.

- غارت فى ستين داهية.

- آخرتها سجن القناطر.



-٤٤-

فجأة اقتحمت السوق إلى مجلس الكبار.

- السلام عليكم.

لم يرد أحد.

- نرميها بر السوق ياباشا؟

- عيب دى امرأة.

عادت وكررت السلام.

- السلام لله.

- ما عندناش.

- ما فيش فكة.

- ربنا يحنن.

- عليك بباب السيدة.

بعد أن هدأوا

- صلوا على النبى يامعلمين.

- تلزم خدمة يا أبلة؟

- أنا جئت أعتذر عن الذى حصل.

- هو إيه!!

- موضوع المزاد.

- مزاد إيه!!

- البرتقال.

- لم نسمع عنه.

- اسمعونى للآخر. أنتم معلمون كبار وأنا ست.

- لا تتمسكنى ياشاطرة.

- ورينا عرض كتافك. جمال خطوتك.

تعالت الأصوات.

من شرفة مكتبه أشار بيده. كفت الحمير عن النهيق.

- لا أحد يفتح فمه. الست لا تعمل ما عملته. ثم تتجرأ وتدخل السوق منفردة، عمل لم يعمله معلم فى تاريخ السوق، واجب عليكم أن تسمعوها.

- أنا قلت إنى جئت أعتذر.

- همس هامس.

- عندها عذر شرعي.

- عذرك مقبول. ومن يدخل علينا بيتنا نحميه حتى ولو كان قاتلا: تفضلى قولى كل ما تريدين.

- البرتقال الذى وقع مزاده علي.

تمتم أحدهم .

- بالهنا والشفا.

قال آخر:

- صحتين وعافية.

نقر المعلم على مكتبه.

- تفضلى بالجلوس أولا.

- لأول مرة يجلس أحد أمام الباشا. المأمور لم يفعلها قط.

- امرأة تجلس فى مكتب المعلم زيدان!!

- مرة فعلها مأمور غشيم. بات ليلته فى أسوان.

سرحت قليلا:

بسطاويسى حكى لى تاريخ كل المعلمين. جاءوا من أقصى الصعيد مشيا، حفاة عراة. بدأوا شيالين، ثم باعة سريحة. الله يرحم أجدداهم: عطشان وجربان وغلبان وأبو قمصان.

- تفضلى ياست: البرتقال بعناه كله فى ليلة واحدة، مكسبه يفوق التصور، بعناه بضعف ما تبيعون. فى أماكن لا تستطيعون الوصول إليها، وفى هذه الحقيبة عرابين الصفقة القادمة نحن نبيع قبل أن نشترى. نعرف مكسبنا قبل أن نخرج من بيوتنا. نحن أول من تاجر فى الصنف. فى صدرها همست

- الجميع يكذبون:

واصلت.

- البلد تغيرت، لهذا كنّ رجالنا، اختفوا وسيعودون. وسيعرف الجميع من نحن.

اشتد انفعالها، الست التى تقللون من شأنها، جربوها. هل سمعتم عن الجنة التى طرد منها أبونا آدم؟ من الذى اشتراها؟ جدنا الكبير.

- همس رجل. باين عليها بنت سيدنا إبليس.

- هو إبليس سيدنا!!

- كل ما تيجى سيرة واحد غريب يقولون سيدنا.

- لن أعطل عليكم مزادا بعد الآن، ولا أريد إلا شيئا واحدا

كل فاغر فاه. عقدت الدهشة ألسنتهم. لم يجرؤ أحد على سؤالها.

- أريد أن أنهى كل مشاكلهم التى أوقفت الحال. وأطمعت فيكم تجار المدن الأخرى.

قلب الجميع أكفهم. ابتسم من ابتسم، لم ينطق أحد حتى المعلم الكبير.

- دعوها تقول ما عندها ثم نتصرف. ما بيننا عجزت عن حله حكومات وأعيان، ومعلمين وفتوات.

- قبل أن آتى إلى هنا عرفت عنكم كل شيء. كيف يفكر كل واحد فيكم؟ ماذا يريد للأخر ما أخبار جناين الخانكة يامعلم شعلان.

- همس- كيف عرفت!!

- خشى فى الموضوع وبلاش كلام فى هذه المسائل الخاصة .

- من أجلها أتيت. نقرأ الفاتحة دون أن نقلب الماضى.

- لن يتم صلح قبل أن نأخذ حقنا. لنا عندهم دم.

قالت: ليس لأحد منكم دم عند الآخر.

- كيف؟

- أنا صاحبة الدم. دم بسطاويسى زوجى، وهذا الشاب ابنه. ونحن متنازلين عن حقنا.

وأخرجت من حقيبتها ما يثبت قولها.

الفاتحة بالسماح والخير والبركة.

اهتز السوق... دوت آمين دوى النحل.

الله أكبر تحيا المرة. الله يعمر بيتك

- الله هى اسمها إيه؟

- بنت بشاوات

- المعلم بشندى قال إنه عارف أصلها وفصلها، بنت أكابر أعيان الصعيد الجوانى.

– أحبت بسطاويسى الذى كان حارسا عندهم.

– تزوجت بدون رضا أهلها وهربت ,بعد أن مات. عادت إلى أهلها. ورثت أموالا وأطيانا وعمارات..

● ● ●

-٤٥-

– لابد من الأصفر، وإن طال السفر. هكذا كان يقول المعلم الكبير:

– نحن نتاجر فيه منذ عدة مواسم.

– الكهرمان ياست الستات.

– كان كامل بيه يحمل مسبحة كهرمان. أتريد أن تسرح بمسابح وجلدة للبطاقة ,وحلقان وغوايش.

– الأصفر ياست المعلمين. الأصفر.. الأصفر..

سكت طويلا. هرش فى قفاه.

– فزوره؟

– لا فزوره، ولا عصفورة ولا.. ولا.. الأصفر.. الأصفر..هو.. هو.. المش.. مش م ش م ش .. ال.. ال عمار.

● ● ●

انحطت على الكرسى.. أغمضت عينيها.... راحت تستعرض شريطا طويلا من الذكريات:

الريس عباس.. الشحن فى اللوري... الريس بسطاويسى. أول يوم فى الجناين المنورة. كأنها الليلة الكبيرة فى مولد السيد ,نور فى نور... نور على نور. المشمشاية منورة، وأنت يابنت. ياغزالة كما تقول أمي. غزالة يعنى إيه ياأمى؟ والمنديل. والحزام. تحسست عجزتها. والظهر تلتهمه العيون. والأرجل التى تتعرى لأول مرة.

سيدة البرعى تقف خلفى دائما. حاولت تحتضنى مرات. تلتصق بى وأنا نائمة. تحسست جسدى مرة. نهرتها

– نحن ستات– نخفف عن بعض. سأغنيك عن معاشرة الرجال. لا عيب ولا حرام جربينى مرة واحدة .أنا بسطت نصف البنات والستات. أجدع من أى رجل. اسمعى كلامي. ولا حوجة للرجال.

– خذى بالك. من الشوك. أول مرة تجمعى المشمش.

– يدك لم تأخذ على العمل بعد

قال الريس: ما شاء الله تعلمت سريعا.. يدك تلف فى حرير. ما اسمك ياصبية.

– خدامتك حليمة.. حليمة السعدية.

أول كلمة غزل أسمعها فى حياتي. سمعت كثيرا لكنها كانت معاكسات. أحست أن لكلامه مذاقا خاصا. تمنت سماعه مائة مرة.باتت ليلتها تتأمل يديها، تتحسس مفاتنها وتردد

اسمك إيه ياصبية؟

ليلة زيارته... أيام الزواج... الهروب ليلا من بطش الكلاف... سنوات الشقاء والعذاب. الولد الذى صار رجلا

قال الجحش صاحية ياست؟

–٤٦–

رأسها حجر.

لن تتنازل.

– المزادات كثيرة.

– نحن فى أول الموسم.

– هذه الصفقة. ستحدد الأسعار.

– لا يزيد أحد عليها أكثر من ذلك.

- مبروك يا معلمة.
- الورق باسم من؟
- أحمد سيد على .

لم تشر إلى اللقب بسطاويسى.

ملأت دكانها مشمشا.. رشت الأرض مشمشا ,نامت عليه. تمرغت... تغطت به. دلكت كل جسدها. انخرطت فى البكاء.

- الله يرحمك يابسطاويسى.

اصطحبت معها عمالا للفرز والتخزين والتوزيع. كان أول مشمش نزل السوق.

- سأشترى المشمش كله. سأوزعه على الغلابة.
- المشمش كان زمان ياست. أيام كامل بيه الله يرحمه.

فكرت قليلا. كأنها لم تسمع عنه من قبل.

- من كامل بيه؟
- كامل بيه الباشا الكبير .
- لم أره.
- مات من عدة سنوات. خلف عيالا لا يعرفون الزراعة. ولا قيمة الأرض. أمهاتهم من البندر. عليهم ديون كثيرة للبنوك ,وللأهالي ,قسموا الأرض باعوها. لم يتبق إلا القصر الكبير والجناين التى حواليه. محجوز عليهم. أمامهم شهران إما الدفع أو البيع.



-٤٧-

- أرسلوا فى طلب البسطاويسى.
- أرسلنا إليه عدة مرات.
- الفلاح الخرسيس عامل زعيم.

- توسع فى كل أرض القليوبية.
- سنجرده حتى من ثيابه.
- نحن خديو مصر أمرنا بما هو آتى.

يفك زمام جميع أراضى القليوبية، وتعود ملكيتها إلى جناب خديو مصر. ويجرد البسطاويسى من جميع أملاكه، وتعطى لأقل خدمه .

صفى الكلاف حسابه وحساب أجداده مع كل الناس، طغى وتكبر وتجبر. عاث فى الأرض فسادا. عذب وشرد. قتل رجالا . سبى نساء.

- لم تعد الحياة محتملة.
- لا نطيق صبرا
- رجالة فى كل مكان. لا يستطيع أحد الوصول إليه. كل الحكومات معه.

- لا بقاء لنا فى هذا البلد. لابد من الهجرة.
- عيون رجاله فى كل مكان.
- من يستطع منكم الهرب فليفعل.

● ● ●

-٤٨-

لم يكن لما ملكت يمين الكلاف من الأنفس والأموال، والأرضين والزر وع والثمار، والأنعام، والخيل المسومة، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة. لم يكن لذلك حدود. حدائق منبسطة حتى حدود الغربية والمنوفية والقاهرة، فيها من كل أنواع الثمار والكروم. نخيل باسقات وكروم واسعات. امتلأت حبا وعنبا ومشمشا ورمانا وبرتقالا مختلف أشكاله وألوانه. حدائق غلبا، فاكهة وأبا ,استوى كل شىء على سوقه. ظن صاحبها أنها لن تبيد أبدا. طغى الكلاف وتجبر، عصى أمر ربه، قال أنا رازق الفلاحين، أجْتبى منهم من أشاء، وأقتل جوعا من أشاء

– أنا أكثر الناس مالا، وأعزهم نفرا، سلطان خالد وعز دائم.. نفوذه على الدلتا كلها، لا يدخل القاهرة، أحد إلا بعد أن يستأذن، رجالى يسدون كل الطرق.

كان من نفسه وأمواله وأولاده عدو له فلم يحذره.

– كل نسائكم ملك يميني.

لا يخجل من فعل فاحشة على قارعة حقل . يأمر بمضاجعة نساء وهو يشجع. ويصفق، جوائز للفائزين.

لم يكن أولاده بنين وبنات وقد تجاوز عددهم العشرين من عدة سيدات بأقل منه فسقا. هربت إحدى بناته مع شاب يهودى. تردى أولاده فى الفجور حتى النخاع. لم يكن الرجل يملك من أمرهم شيئا، يرغمونه على ما يشاءون، باعوا وأجروا وهو لا يعلم، كل منهم دق ختما لوالده، يبيع أحدهم ويشهد الآخرون، لم تكن زوجاته يخجلن من مضاجعة الرجال فى أحواش البهائم، كما كان يفعل. أهملت الزراعة خويت الحدائق على عروشها. أصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها. مات كمدا.

-٤٩-

معقول ابن البسطاويسى الخفير، ملاحظ الأنفار.

– الريس بسطاويسى– الذى أبقاه كامل بيه ليذل آخر ذرية البسطاوية.

معقول يدخل قصر الباشا. بطلى حلم يا مجنونة. ولماذا لا يكون معقولا!!

"هى الحياة فلوس، ولا علو اجنوس". غلبها النعاس. قاومت.. استسلمت. راحت فى ثبات عميق.

– بسطاويسى واقف. رفع كامل بيه الكرباج.

أنت ياولد ياواطى. تمتم. انهال عليه.

جرى بسطاويسى. وقع الكرباج.. ناوله الكرباج. ركله كامل بيه عاود الضرب والبصق والسب. جذب البسطاويسى الكرباج بشدة. سقط كامل بيه

فى البركة، داس بسطاويسى على رأسه فى الوحل. بقبق البيه.. فى عرضك ياريس. حرام عليك يابسطاويسى بيه. أنت سيدى، وابن سيدي. أنا واطى. كلب وابن كلب.

– ركب البسطاويسى الحصان، لفحنى وراءه، والكلاف يركض وراءنا حافيا.

طبول. مزامير. هتافات. زغاريد. القصر كله مشمش منور: السقف– الحيطان – الأرض. أولاد الكلاف. بناته– حريمه. وسعوا للهانم.

– ركعوا.

– كلنا خدم تحت أقدام الهانم يابسطاويسى باشا.

– شكرا ياولد يا كامل.

– كنسنا ونظفنا كل الحظائر.

– لا تفعل يا كامل. نحن نعرف الأصول.

– شكرا ياسيدى.

● ● ●

– استيقظى ياأمى. الساعة التاسعة.

قامت مذعورة.

– أين كنت ياسعدية؟

– كنت فى الجنة. سأحكى لك حين تعود.

● ● ●

–٥٠–

– الأرض أرضنا، ولن يدخلها غريب. أهل البلد مقدور عليهم.لن يزيد المزاد عن سداد الديون. وقرشين للأولاد. وهم لا يطلبون أكثر من ذلك. آخركم أربعة آلاف. هكذا قال عمدة العمار لرجاله.

توالت المزايدات. ختمها العمدة.

– خمسة آلاف جنية بزيادة ألف جنيه عن قيمة الأرض إكراما للمرحوم كامل.

– فى العد الثالث. شقت امرأة الصفوف.

– عشرة آلاف جنيه.

– صاح العمدة. امرأة مجنونة. عشرة آلاف يشترون الزمام كله. هى لا تعرف ما تقول، ولم تر الألف فى حياتها. لو أخرجت من جيبها عشرة جنيهات لتنازلت لها عن العمدية.

قالت: هذه الحقيبة بها عشرون ألف فلتأخذ اللجنة منها ما تشاء.

وسط الجموع الغفيرة التى تداعت من القرى والكفور، لمشاهدة سقوط دولة الكلافين.

وقف عمدة العمار ملوحا ومهددا.

– علىّ الطلاق لن يدخل أرض العمار غريب.

– الحكومة ستسلم الأرض للمشترى وستحميه ياعمدة.

– لن نسمع لرجل غريبة تدوس أرضنا.

– الأرض: باسم من تكتب ياست:

– باسم المهندس: أحمد بسطاويسى على السيد بسطاويسى.

– بسطاويسى من ياولية ؟

– بسطاويسى الكبير ياعمدة. صاحب الأرض، وسيد البلد كلها.

– البسطاوية كلهم تركوا البلد من زمن بعيد، آخر واحد منهم . تزوج غجرية، وسرق من كامل بيه، وهرب.

– أنا الغجرية ياعمدة. واسمى حليمة. كاسم زوجتك الأولى. والثانية التى تزوجتها سرا فى طنطا اسمها عواطف. وأنت ياشيخ البلد سلم لى على نبوية. أنا عرفاكم واحدا واحدا. والحكومة لها ورق. تفضل ياحضرة الضابط قسيمة الزواج شهادة وفاة زوجي. شهادة ميلاد ابنى. شهادات المدارس والجامعة.

- الأوراق كلها سليمة ياعمدة.

- سأطعن فى كل شيء. لن يستطيع أحد حمايتكم منى. لن تستطيعوا أن تعيشوا فى هذا البلد.

تشققت الأرض. خرج البسطاوية كالفئران ,تداعوا من كل فج عميق. رفعوا أحمد البسطاوى على أكتافهم.وهتفوا:

- رجع الحق إلى أصحابه.

- عاش البسطاوية.

- جاء الحق وزهق الباطل.

- دولة الظلم ساعة.

- ودولة الحق إلى قيام الساعة.

- بيوت الظالمين خراب.

- لا بد عن يوم ترد فيه المظالم.

- ثلاثة بالله العظيم لآخذن الأرض وما عليها.

- بعينك ياعمدة.

- ستعود العمدية لأصحابها.

- سآخذ كل شيء.

هتف الجميع.

- فى المشمش ياعمدة.

● ● ●

-٥١-

انطلقت قافلة الباشوات الجدد عائدة إلى القاهرة على أنغام.

- أنا الشعب أنا الشعب.

ومحمد السوهاجى يجأر:

- أنا الجحش .. أنا الجحش.

● ● ●

الفصل الرابع

مَدَدْ ياصاحبَ المدَد

١ مدد ياعَدوِي.
٢ فاطمة العدَوية.
٣ توحة الماشطة.
٤ مَدَدْ ياحسين.

مدد ياعدوى

-١-

فى أواخر عصر الفاطميين وفد إلى قاهرة المعز (بطْرس العَدوى) وكانت الرحلة من قريته إلى القاهرة تستغرق شهرا مشيا على الأقدام.

كان الفاطميون البْربَر شديدى التعصب على الملل الأخرى، يدفعهم إحساس باطنى بالدونية مهما علت أعلامهم.. أباحوا مصر... سلبوا أقواتها باسم الزكاة والجزية وحق الفاتحين: ضريبة الصيام. ضريبة القيام. ضريبة الحج. ضريبة العمرة. ضرائب الجهاد.الحماية.. الرعاية. ضريبة الضرائب.

- أسلمنا ولم يعفونا من الضرائب !!
- خففوا عنا كثيرا.
- لا نزال ندفع.
- ضريبة التدّين.
- نحن أكثر منهم تدينا أبى يضاعف لهم الصلوات.
- كيف؟
- يصلى المغرب ست ركعات.
- حتى لو صليته ست عشرة ركعة فلن يقبلوا صلاتك؛ لأنك لست بربريا
- ومن هم هؤلاء البرابير؟
- يقولون إنهم من سلالة سيدنا بربور بن طرطور.
- نحن أعظم من الجميع.
- جدنا لم يرض أن يكون سيدنا. وقال أنا ربكم الأعلى..

سبع ابن سبع.

- من آلاف السنين كان يوسف وأبوه وأخوته بدوا. جاءوا مصر يترزقون.

- قال سيدنا يوسف." اجعلنى على خزائن الأرض... ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين،

- هذا ما جعل الناس يطمعون فينا. كل غريب سيدنا، ونحن عبيد. حتى العبيد أولاد العبيد سيدناهم وصرنا لهم عبيداً. ملطشة لمن يأتى من بوادى الشرق أو جبال الغرب. أو ضفادع الشمال الخارجين من البحر المالح.

- كلهم أزْفت من بعض

- الخارج من الماء. على الأقل استحم قبل أن يدخل مصر ولم يأت بقرفه وعرقه. يُغطيه الشعر كأنه أرْمنتى.

- يقولون إنهم أقاربنا من بعيد قوى. سابع جد.

- ولا سابع سما. قريبك يطّلعك من دينك.

- يقولون إننا أهل كتاب لنا مالهم وعلينا ما عليهم.

- ليتهم يصْدقون. ولا يقولون أهل ذمة..

- ندفع الجزية عن يد عدا ونقدا. ونحن مذلولون.

- موالى علينا السمع والطاعة. والخدمة فى بيوت رعاة الغنم والحمير الذين اغتصبوا الأرض. وسموا أنفسهم هوارة وأشرافا.

- شريف.. هوارى. وضاع الأصيل ابن مصر الفلاح.

-٢-

لم يعلن المقدس بُطرس العدوى عن اسمه ولا ديانته ،ولم يسأله أحد عن ذلك. نام مع النائمين حول الجامع الأزهر. قبلة الفاطميين. رمز ملكهم وسلطانهم ومذهبهم. المقيمون حوله يأتيهم رزقهم رغدا.

تفقد قائد الدرك الجالسين. اختار عددا منهم لخدمة الزوايا ،ودور الأمراء ،وتنظيف الشوارع.

فى كل صباح ينادى المنادي:

- قم يا عبدالله.

– تعال يا عبدالله.

يصطف عباد الله.. يسيرون خلف الجند. يوزّعون على أماكن عملهم... في المساء يعود بهم الحارس إلى الحرم الفاطمي. في نهاية الأسبوع يَمْنَح كل واحد نصف درهم.

ظن الفتى العدوى أن الشرطى يختار من اسمه عبد الله فقط. لذا كان إذا سئل عن اسمه قال:

– عبد الله. حتى عرف به ونسى بطرس العدوى اسمه ولقبه.

ظل يجتهد ويتقرب من الحراس حتى عين مشرفا على العمال. تضاعف أجره، بدا نشاطه واضحا. ظل يرقى حتى صار مشرفا على خدم الحرم ، على الجامع نفسه، منح سكنا خاصا، وملبسا وراتبا...

●●●

-٣-

في ساحة الجامع الكبير استهوته سيرة الحسن والحسين. والزهراء وعلى. والصادق والمهدى. رأى الناس يحفظون سلسلة النسب الشريف. يتلونها حق تلاوتها كل صلاة. يتقربون بها. يتشفعون ببركاتها. يداوون بها مرضاهم. يترحّمون على موتاهم . هى زادهم يوم الميعاد. شفيعهم عند رب العباد. حفظ كما حفظوا.. تلا كما تلوا.. ورِدْ يومى قبل النوم.

انهالت العطايا على الأشراف.. أصل نفسه كما أصل الناس:

– عبد الله بن محمد بن على الحسينى العلوى خادم الحرم الفاطمي.

– ولكن لماذا. يقال لك العدوى؟

– العدوى هو العلوى نفسه . وهو الحسين الأصغر ابن الحسين الأكبر. فر من كربلاء. ظل يعدو على الأرض... يعلو في السماء حينا... فمن رآه يعدو قال:

–العدوى.

ومن رآه يعلو.

– قال العلوى: صلى الله عليهم أجمعين .

لبس عبدالله الأخضر.. جلس يقص القَصَص.. يحكى الحكايات.

– طار رأس الحسين. تلقفته الملائكة... غسلته بالماء والثلج والبرد. طافت به السموات السبع. اهتز عرش الرحمن زلزلت الأرض. خرجت حيتان البحار شرعا... ارتجت النجوم سيرت الجبال... عطلت العشار، حشرت الوحوش، زُوِّدت النفوس.

وزعت الفلوس.

قال رجل من شيعته:

– اقرأ علينا السورة من الأول يا مولانا.

– قتل الكبار. اختلف الصغار.

– أنا الأمير.

– أنا الإمام.

– نحن الكبار.

– طول عمركم شحاتين.

– حماة البيت.

– خدامه.

– نسقى الحجيج.

– سقاقوة. تحملون القرب: على ظهوركم تبيعون الماء بالخبز والتمر.

● ● ●

جميع خمسين. ستين نفرا.. رجال. وحريم. وعيال.

– على فين يا ولد اخوى؟

– أأدب الكفرة.

– ارجع. قبل أن تصل يخلصون عليكم

● ● ●

فى منتصف الطريق خرج الجيش الكبير..

– على فين يا شاطر؟

– على دمشق.

– بنات الشام عجباك. نبعت لك كام مرة.

– أريد ملك أجدادي.

– عمرهم ما حصلوا غفير. أرجع أحسن لك.

– علىّ الطّلاق ما أنا راجع.

رفع الراية. هتف:

"حى على خير العمل".

اندفع يقاتل والملائكة تصفق. الجن تزغرد. على ذراعيه تكسرت رماح. تثلمت سيوف. بعد ألف ضربة، قطعت يمناه، طارت تكبر. استقبلها الحور العين. قاتل حتى بترت يسراه. عَكش الراية بأسنانه. انهال عليهم ضربا بالشلاليت. رفع شلوته فرسانا . فتحت كل أبواب الجحيم تستقبلهم تتكاثر عليه رماح. سيوف. سهام. خيول. بغال. جمال. انهال عليهم ضربا بالروسية. تواروا خلف الأسوار. بضربة من رأسه تفتت الصخور. رفعوا سيوفهم على الرأس الشريف. طارد الجسد. أجنحة من نار، ونور. ياقوت ومرجان تقاطر الدم. حب رمان. طاف الأرض، طوى الزمان. لذا فهو صاحب الزمان، والمكان، فى كل أرض له مسجد ومقام. فى كل بلد سقطت نقطة دم. حملت نساء، لذا فالناس جميعا أولاده. نسل الدماء الطاهرة التى لا تمسها النار.

ظل الرأس الشريف يحوم. يرتل القرآن، أول مصحف مرتل، فلما أظهر الله الحق على يدى عبد الله بن الزهراء الفاطمى سمع الرأس الشريف النداء الداوى:

"اهبطوا مصر إن شاء الله آمنين"

استيقظ سكان المحروسة على تكبير الحيوانات. وآذان الديوك. ومن يومها والديوك تؤذن للصلاة. وأول ديك أذن كان من ديوك الجنة.

وجد الناس جامعين، جامع للمقام. والحج والزيارة، والسعي والطواف. والدعاء والشفاء. والنذور وجامع للصلاة والعلم. هو مسجدكم هذا الأزهر الشريف. شدوا إليه الرحال من كل مكان وهو الأبعد من غيره. والبعيد يسمى الأقصى.. تكبير. همس رجل من مصر:

– الله يخرب بيتك يا مولانا.

● ● ●

-٤-

تقدم الحسينى العدوى العلوى إلى خطبة الزهراء سليلة الحسن بن على. رحّب به أشراف القاهرة. قال جدها:

– نحن من سلالة الحسن.لكننا نفتخر ببنى عمومتنا الحسينيين. وصل الله بكما دوحة النبيين والشهداء. أئمة المتقين. خلفاء نبى العالمين. مشاعل نور اليقين ,

ابتسم العدوى وتمتم كأنه يدعو.

– رحم الله المقدس. بطرس الكبير. ما هو كل واحد وله كبير. جدى أشرف من جدكم. من يبحث يجد جدكم الكبير يهوديا..

– ماذا تقول يامولانا العدوى؟

– آمين.

أصبح العدوى فى الزَحمة. سادنا من سدنة الحرم الفاطمى، وإماما لبعض الصلوات ينوب عن شيوخ الجامع أحيانا.. تبرك به العامة وبعض الخاصة حتى صغار المشايخ يجلونه.

- الكبار يموتون والعدوى يتقدم. لم يتبق من شيوخه شيخ. تربع فى صحن الجامع الكبير. تحيط به هالة من بنيه العدويين. ذاعت شهرتهم، طار ذكرهم، تودد إليه الأعيان. زاره الوزير (شاور) مرحبا بابن الحسين.

- دعواتك يا ابن بنت رسول الله.



-٥-

استيقظت القاهرة والتكبير يملأ الفضاء. والنداء فى كل الحوارى. "إنا لله وإنا إليه راجعون" مات الإمام. مات ابن الحسين. مات وريث النبى. مات رجل العلم والتقى والورع.

- لا تقل إنه مات. الشهداء لا يموتون. أبناء الحسين عند ربهم يرزقون. وسيعودون. يملأون الدنيا عدلا. وإنا لمنتظرون.

تقدم الوالى الفاطمى موكب المشيعين. شُقت جيوب.. لُطمت خدود. جُزّت شعور... طُينتْ هدوم. سار الموكب مخترقا شوارع القاهرة المعزية. طار النعش بمشيعيه.. تعالت الهتافات.

- شهدنا لك يا ابن بنت رسول الله.

- فى ذمة الله ياسبْط النبي

- جدك فى انتظارك.

- رأى جده واقفا على باب المقبرة. وحوله على والحسن والحسين وفاطمة وسلسلة أئمة آل البيت . يتقدمهم الروح الأمين.

- من الأمين هذا؟

- سيدنا جبريل.

- كل ما تأتى سيرة حد غريب تقول سيدنا. حتى إبليس

- جبريل نفسه.

- بعينه.

- هو العدوى شويه.

قال خبيث: محدش شاف حد تانى.

- اسكت ياكافر ياعدو الحسين

مقام كبير.. قبة خضراء. ساحة واسعة. أتباع مريدون.. زوار من كل فج عميق. يطوفون. يدعون. يصلون. ركعا. سجدا. يوفون بالنذر. يهتفون. مدد ياعدوي.

- رحم الله بطرس الأسيوطى.

●●●

٢- فاطمة العدوية

-١-

تحتل بقالة العدوية المساحة الأكبر من البيت العتيق. يديرها الحاج حسنين الذى ينسب إلى آل العدوى نسبا بعيدا. وهو الزوج الثالث لحفيدة العدوى الكبير. وللست موارد أخر ورثتها عن زوجها السابق.

لم تنجب العدوية من واحد منهم. جربت الطب والدوى.. والحجاب والزار.. والمشايخ والأولياء، من القناوى حتى الأسكندرانى.. لم يجد ذلك نفعا. رضيت بنصيبها. قبلت الزواج من الحاج حسنين الذى تجاوز الستين. وهى فى عز شبابها.

كان مسكنها بالدور الثانى شقة فسيحة. فرشتها على مزاجها. فرشا يليق بحفيدة العدوى سلالة الأشراف بنت الحسن والحسين.. ملأتها بالتحف. وقصارى الورد. والزهور.

تفننت فى زينتها.. أسرفت فى معيشتها.. شابة جميلة بيضاء ممتلئة.. شديدة الجاذبية. فيها كل مقومات الذوق الرجالى المصري: الامتلاء. والبياض. والدلع. والدلال.

فى الزاوية القريبة من البيت تعرف الحاج حسنين على الشيخ فؤاد الجرجاوى الذى كان يلقى بعض الدروس عقب صلاة المغرب. أُعجب الحاج حسنين بحفظ الفتى وذكائه وشدة تنبهه ووعيه، وإحساسه بخطواته قبل أن يدخل الزاوية.

- تفضل ياعم الحاج.

اختبره عدة مرات. خلع نعله قبل أن يصل.

- سلامة رجلك ياعم الحاج

بدل حذاءه.

- مبروك الحذاء الجديد ياعم الحاج.. التفصيل أحسن من الجاهز.

- الشيخ فؤاد مكشوف عنه الحجاب. وليّ من أولياء الله الصالحين، فى كل ليلة يحكى لها كرامة من كراماته. اشتاقت أن تراه. أن تسأله الدعاء علّ الله يستجيب. تخيلته شيخا عجوزا يخب فى قفاطينه. يكاد يعثر فى لحيته.. تتطلع من الشباك تراقب مشايخ الكلية والجوامع. لم يقع نظرها على شيخ لا تعرفه.

- لى رجاء وعشم ياشيخ فؤاد وأنا زى والدك.

- أنت والدى فعلا. أمرك مطاع ومستجاب من قبل أن أعرفه.

- غدا موسم وأنت تعيش وحدك. يكون العيد عيدين لو تكرمت على وقبلت دعوتى للعشاء. تبارك البيت وأهله. وتشرف صاحبه فى هذه الليلة المباركة. وقد سمعتك مرة تقول إذا دعاك أخوك فأجب. فما بالك. لو كان الداعى أبوك.

- متى ياعم الحاج.

- غدا

- غدا وبعد غد ياغالى. لا أعصى لك أمرا. ولا أقول لك أف قط.

– أف – تف. بس وافق.

لم يدخل البيت غريب منذ مات الشيخ العدوى.

● ● ●

-٣-

بعد صلاة العشاء صحب الحاج حسنين ضيفه الجرجاوى.

كانت المائدة عامرة بكل أطايب العدوية: المحمّر والمشمّر. وروائح الشىّ والقلْى تشق المخ شقا.

– تعالى يا مبروكة التمسى البركة من الشيخ فؤاد. نظرت من خلف الستار ولم تدخل. دخل حسنين ليحضرها.

– أين الشيخ ياحاج؟

– هذا هو؟

– نعم !!

– أفندى وشاب أين العمامة– أين الجبة. أين القفطان. أين الذقن التى تلامس الأرض . كيف يكون فتى حاسر الرأس شيخا!!

– الدنيا تغيرت طلاب الأزهر أفندية. الأساتذة الذين تعلموا فى الخارج أفندية. تعالي.

– أبدل ملابسي.

– لا تفعلى

– كيف ياحاج يرانى غريب بهذا الثوب!!

– لا يراك إنه كفيف:

– فغرت فاهها ضربت على صدرها

● ● ●

-٤-

أكل الجرجاوى فى صمت. مستخدما الشوكة والسكين بمهارة فائقة

– عمره حسنين ما استخدم ملعقة. هذا الفتى يتظاهر بالعمى.لا يمكن أن يكون كفيفا. أعرف كل عميان الحي: زملاء الوالد. لا يستطيع واحد منهم أن يحتسى فنجان قهوة دون مساعدة.

– لم تأكل كثيرا يامولانا.

– يمكن أكلى لم يعجبه.

عبارة نسوانية مألوفة. لأول مرة يسمع صوتها. أدب وحنان ودلال.

– قال الجرجاوى: كأنها مائدة الرحمن التى أنزلها الله على نبيه عيسى. السمك يتراقص فى الزيت. والبط يبطبط فى السمن. والأوز عائم فى المرق.

– أراد أن يطيل معها الحديث. ويلفت نظرها.

– ذكرتنى مائدتك هذه ياسيدتى وما صنعت يداك الكريمة. بمائدة فرعون التى أعدها لوفد فارس الذى جاء يخطب ابنته. وكانت فتاة جميلة بيضاء ناعمة كما قال شوقى

– وهل كان عندهم بط وأوز يامولانا؟

– سأسمعكما ما قال شوقي.

تعمد أن يشركها فى الحديث. وأن يطيل ما وسعه الإطناب. سكت.

– قال حسنين.شوقتنا ياشيخ.

لم يرد.

قالت: قل يا مولانا. أشوف بطى ولا بطهم.

– بطكم لا يساويه بط.

تعمد الجمع حتى لا يلحظ حسنين أن الإطراء لها وحدها

ملّت الانتظار.

– قل ياشيخ.

قال أحمد شوقى – رحمه الله –

فيروز انظر تَرى الخرافا حُمرا لِطافا على الخِوان

ذا سمك النيل فى الأوانى كأنه مِعْصم الغوانى
وأعين تلك فى جفون أم ذاك البط فى الجِفان.

– حسنين: فهمتِ شيئا يابطة؟

لم ترد.

– أعيده عليكم مع الشرح .

– أعاد البيت الواحد عدة مرات

الخوان: السفرة الفخمة الضخمة. كسفرتكم هذه.

والمعصم: أعطنى يدك ياحاج. هذا هو المعصم. ليس كمعصمك ياعم الحاج . بل معصم الغوانى ناعم وطرى.

– وهل للمغنين أيدى غير أيدى البشر؟

– تظاهر بالجد والصرامة.

– يا سيدتى:

– الغوانى جمع غانية. وهى المرأة الجميلة التى لا تحتاج إلى زينة صناعية.تكتفى بما وهبها الله من جمال. سبحان الوهاب الذى يهب الجمال لمن أحب من عباده. صلوا على جمال المصطفى أجمل خلق الله ورضى الله عن أحفاده وأحفاد أحفاده الأشراف وأنتما منهم.

– إن شاء الله – يا ابنة العدوى.

– ما دخل العيون فى الأكل؟

الجفون: جفن العين: غطاؤها من أعلاها وأسفلها. والجفان: الصوانى التى يوضع فيها الطعام. فالبطة المحمرة محفوظة فى جفنة كأنها عين سيدة جميلة تحيط بها رموش وأهداب طويلة جميلة.

وضعت يدها على عينها.

– الفتى يصف عينيك دون أن يراهما.

– هل كانوا يأكلون الضانى والبط فقط؟

– كل شيء كان على المائدة كما وصفه شوقى
– ماذا قال:
هذا الخوان قد كُمل من كل جانب حمل
هذا شُوى هذا قُلى
والبط فى الأطباق بطبط فى الرقاق
من رأسه للأرجل
وهذه الأوزه رجراجة تهتز
قد طيبت بالتابل

●●●

والخوان: ما يؤكل عليه. قصد شوقى بالمقلى والمشوى البط سمين ممتلئ لحما وشحما. المرأة الممتلئة يقال لها بطة:وفاطمة يدلعونها يابطة
– هل يعرف الرجل اسمي. أم مجرد كلام!!
الرقاق: الدسم والمرق سبحت البطة فى دسمها وفى السمن....
والأوزة تتمايل معجبة بنفسها تهتز يمينا وشمالا كأنها فتاة معجبة بشبابها. وقد حشيت الطيور بالتوابل. وكأن شوقى قد حضر معنا طعامك هذا.
– ادع لنا يامولانا:
قال أحد الصالحين وقد حضر مائدة طعام
– أكل طعامكم الأبرار. وصلتْ عليكم الملائكة الأطهار، وقد امتلأت مائدتكما بالكباب والمنبار. والمخلل والخيار. والكبدة والحمام الطيار. حشيت بالطيب والشمار. من عند خضر العطار. شبع منها البغل والحمار.
ضحكت وقالت من البغل؟ ومن الحمار؟
– ربك على عبيده ستار. القافية تحكم.
– قبلى يد الشيخ يافاطمة عله يدعو لك.

لست ظاهر يده. جرى التيار في عروقه. وقف شعر رأسه.. تشنّجت أظافر رجليه.

●●●

لم يذق للنوم طعما. ظل الفتى يتقلّب ذات اليمين وذات الشمال. شق الأذان عنان السماء. هُرع للصلاة. انتظر طويلا لم يتبق من المصلين أحد.

لم يحضر الحاج حسنين...

●●●

بعد صلاة العشاء ودعه الحاج وانصرف. ظل يترقب دعوة أخري.. مرت الأيام

– لا أنسى ما حييت يوم الغزوة الكبرى.

– أى غزوة ياشيخ؟

– موقعة البط والحمام.

علق حسنين: موقعة البغل والحمار!!

–٦–

– اليوم ستصل الزوّادة.. لا بد من رد العزومة.

من أمام المسجد. ركب التاكسي.

– إلى أين يامولانا؟

– المحطة كالمعتاد.

تسلم سبتين. حملهما السائق إلى شارع الخازندار.

– قف هنا ياعم عبده.

– السلام عليكم ياعم الحاج حسنين

لم ينزل من السيارة. أشار إلى السائق

– سلم السبت الكبير للحاج وعدْ مسرعا.

وضع السائق السبت على البنك وانطلق مسرعا.

●●●

فى صلاة العصر قال حسنين:

- نسيت سبتك ياشيخ.

- هو سبتكم سبتى أنا أكلته.

الزوادة الجرجاوية لا تنقطع. والشيخ يسكن وحده فماذا يفعل بالطيور واللحوم. ولم تكن الثلاجات قد كثرت.. كثر تردد الفتى على بيت العدوى للحفظ والتدريس.. قويت الصلات. صار كأنه واحد من أهل البيت

● ● ●

عاد الفتى إلى مسكنه بعد يوم دراسي. وجد عفشه ملقًى على الرصيف. كان صاحب البيت قد طلب زيادة الأجرة فلم يمتثل الفتى .

- لن أترجاك حتى لو بتُّ فى الشارع. لكن أقول ربنا .

قبل أن يكمل الدعاء هجم المعلم فأكمل دعاءه.

- ربنا مع المفترى.

- ضحك السامعون انصرف الشيخ.

● ● ●

سمع الحاج حسنين الخبر. استضاف الشيخ عدة أيام فى شقة صغيرة على سطح المنزل.

لم يحد تواجده من حركة الست، فهى تتحرك كما تشاء. وتلبس ماتريد. وكأن لا أحد فى البيت. فالرجل لا يبصر. لكن رائحة العطور والصابون تزكم الأنوف. والشيخ يستنشق ويتشمم. ويشنف رافعا رأسه مادا بوزه ...

كان الشيخ حديد السمع. مرهف اللمس. قوى الشم. ما أن يضع يده.. بعد غياب طويل. على يدك. إلا ويهتف باسمك مرحبا ومعانقا.. فإن شك لحظة تحسس وجهك فتأكد للتو أنك أنت. أنت

كان الناس يختبرونه. فلم يخذلهم. مرة تحسس وجوهنا وكان بيننا رجل غريب لا يعرفه قبل ذلك. تحسس.. تردد.

- لماذا توقفت يامولانا؟

أجاب على الفور:

- إن البقر تشابه علينا.

تسربت إلى أذنيه همساتها وهى تتملق رجلها تملق لبؤة والرجل يستجيب حينا. ويخذلها أحايين. وهى شديدة الشبق. تأكد أن الأرض شرقانة شديدة الظمأ. وأن النار تندلع والماء ينقطع.وخرطوم المطافى عنده.

ترددت العدوية. فى غيبته. على غرفته عدة مرات لجمع ملابسه.

لم تكن مواعيد نزوله وصعوده منتظمة. ربما تأخر أحيانا. اعتادت تطرق الباب قبل الدخول. لا أحد يرد فتدخل.

طرقت سمعت صوتا.

- تفضل ياحاج.

- أنا يامولانا.

اعتذر كنت أظن أن الحاج يريدنى

- أريد إصلاح الغرفة. سأمر بعد نزولك

- ليس لدى عمل اليوم. سأترك الغرفة تفضلى.

حاول الولوج من الباب سدت نصفه فاحتك بها

- معذرة

- استدارت فاحتكت به. ضغطت واعتذرت

- واحدة بواحدة.

- لم ترد

- تمتم:

- ولحم عدوية مما يشتهون.

تصعد مرة أو مرتين محتجة بحجة ما

- الغسيل ياشيخ.

- أخذتيه منذ ساعة.

- يقطعنى الظاهر أنى عجّزت.

- فَشر أنت فى عز شبابك.

- من أين عرفت؟

- للشباب رائحة خاصة. وطعم خاص

- وكيف ذقت الطعم؟

- بمنا خيرى. انظرى.

وأخذ يتشمم ويقترب.

- قالت: سأحضر لك كوبا من الشاى

- كوبان.

- لماذا؟

- عندى ضيف عزيز غال.

- ضيف أين هو؟

- أمامى الآن.

- ليس أمامك سواى.

- الذى أمامى هو العزيز الغالى.

بدأت المسافات تضيق. والبعد يقترب. والكلفة تنصهر.

- لا مؤاخذ ياامولانا لماذا تعيش وحدك؟

- لست وحدى أنتم الخير والبركة.

- وأهلك؟

- أقصد أولادك.

- وأين هم أولاد الكلب. أنَّى يكون لى ولد ولم أمسس بشرا ؟

- لم تدخل دنيا؟

- ولا آخره:

- ولا خطوبة ولا شبكة.

أخذ يدندن:

- لا خطوبة ولا شبكة.لا حبيبة، لكن

- ضحكت وقالت! بنت بنوت

- لا وأنت الصادقة: ولْد ولود.

ضحكت وانصرفت.

- هاهى زليخة تقترب. ولن أكون يوسف قط.

بدأت الرغبات تتكشف ذات يوم قبلته لم يفاجأ.. جذبها احتضنته.. ألقى بجلبابه. طرحها سريرا.. هتف مدد ياعدوي.

تلك كانت غزوته الأولى.

-٤-

لم يكن من عادة الحاج حسنين أن يغيب عن البيت أكثر من ثلاث ليال. يعود بعدها ملهوفا يرتمى فى حضنها كالطفل. ولم تكن هناك أى وسائل للاتصال والسؤال عن الغائب. لعل المانع خير.!!

هكذا حدثت نفسها.. ارتمت على سريرها من شدة الإعياء.

● ● ●

فى الصباح أعدت الإفطار. لكنها لم تستطع أن تصعد.

- ياعيب الشوم!! ماذا يقول الرجل؟ الله يخزيك ياشيطان. بالتأكيد كان كابوسا. ولن يعود.

مضى النهار. ولم تسمع حسا، ولا حركة . كلما همت بالسؤال عاجلها الخجل.

- لا حس.. ولاخبر. حسنين لم يعد

فى اليوم الرابع طرق الباب طارق.

- ياحاج. ياستى الحاجة.

اشتد الطرق.

– أنا سيد شعبان. خالى الحاج يسلم عليك. ويقول لك إنه بخير. وسيأتى بعد أسبوع. وقد أرسل لك هذه الأمانة.

– ادخل ياسيد.

– كتر خيرك يا امرأة خال. وراى مشاوير. عايزة حاجة من خالي.

– مع السلامة ياسيد. سلم على الجميع.

● ● ●

– حتى الطرق والرزع. وصوت سيد. والفتح والإغلاق لم ينّبه الشيخ. عمدت إلى محبس الماء فأحكمت إقفاله. علّه يسأل لكن ذلك لم يحدث. صعدت السلم فى حذر شديد.. ترددت قبل أن تطرق باب حجرته.. طرقت طرقا خفيفا. لم يرد. عاودت الطرق. انفتح الباب. ليس للرجل أى أثر. احتضنت السرير.. تأبطت الوسادة. انخرطت فى بكاء شديد.

– ماذا أقول للحاج إذا سألنى عن الشيخ؟

– لماذا ترك البيت؟ هل حدث منه مكروه لا سامح الله؟

– لقد رفض الشيخ البقاء في المنزل فى غياب صاحبه هكذا أعدت الجواب.

فى الليلة الرابعة لغياب الشيخ لم تستطع النوم.. دارت فى كل أركان البيت. صعدت عدة مرات.

– كأنه أول رجل فى حياتك. كان عادل شابا وكان وجيها تمنته كل البنات.

– لا رغبة لى فى النسوان يابطة.

– لماذا تزوجتني؟؟

– مال وجمال. وحسب ونسب.

– كل هذا محتاج إلى رجل

- ابحثى عن رجلين واحد لك وواحد لى.

- طلقنى.

- كله بثمنه.

● ● ●

- لماذا طلقت العدوية يا عادل ؟

- ربك على عباده ستار.

- من ستر مؤمنا ستره الله فى الدنيا والآخرة

- ابن أصول يا عادل.

لاكت الألسنة هذا الطلاق السريع. كادت السلعة تبور.

● ● ●

-٥-

تزوجت من أرمل يكبرها بضعف سنها. تزوج قبلها مرتين.

- رجل والسلام. رفيق عجوز خير من وحدة مملة قاتلة. بقايا رجل خير من ألسنة الغجر... خيال إنسان ولا نهش النسوان.

بعد أسبوعين أفرغ الرجل آخر ما تمناه وأدار لها قفاه

- لا مؤاخذه. خدى راحتك فى النوم. عن إذنك

- إذنك معاك يا بالحاج.

ثم استدركت.

- الزوج والد وأخ. وتمتمت:

وجد أيضا.

- ماذا تقولين يابطاطا؟

تعثرت الطاءات بين بقايا أسنانه التى لم يتبق منها إلا نابان وقاطع يهتزان كبندول الساعة، بدا فمه جحر ضب خرب. كانت أسوأ لحظات

حياتها حين يهم بتقبيلها. ولم يستطع أن يتحكم فى لعابه. كادت تشرق.. لم يعاود ذلك مرة أخرى.

- قال عباس الفيومي: قلت لك لا داعى للزواج بعد أن هدت المكيفات حيلك. والسكر خلص عليك غرك صاحبك: ديك الفجر يصيح مرة واحدة ثم يتخمد. وأنت تقول الماكينة الجديدة تجدد الشباب.. أنا من سنك وتزوجت مرة واحدة. وعمرى ما صعت مثلك. ومع ذلك عامل زى سلاح ٤٨ يضرب للخلف.

- الله يجازيك ياعباس يا أخويا. هو أنت كنت معنا.

- الله معنا جميعا الحياة هكذا عند الجميع.

ومن نعمره ننكسه فى الخلق.

- ما انتكس وانوكس:واتنيل بستين نيلة.

- أنت عطار ياعباس شوف لى وصفة.

- العطارة لا تحى العظام وهى رميم.

بدأ الحاج يتهرب كتلميذ بليد يحتال لكى لا يذهب إلى المدرسة.

- هذه الجمعة نزور أولياء الله الصالحين.

إن شاء الله الجمعة القادمة فى شيخ العرب مدد يا بدوى:

ليلة قرآنية يابنت الشيخ لأولياء الله الصالحين

- لا صالحين. ولا فالحين. هم أولياء الله ليس لهم معيشة غيرنا. خليهم يفكون عنا. جبناها من قبلى لبحرى. من القناوى للاسكندراني. حتى العذراء ومارى جرجس.

كلهم بركة.

- والله ما حد بركة غيرك.

قبل أن يكمل الزواج عاما. كان الرجل فى ذمة الله.

شابة جميلة مطلقة. أرملة.. عاقر.. ميسورة الحال.بنت العدوى. تملك منزلا. لا يمكن أن تبقى بدون زواج.

● ● ●

– بقى على حضور حسنين يومان. وفؤاد لم يظهر. تحسست مسكنه القديم. لم يدلها أحد.. رابطت أمام الكلية منذ الصباح. لم تلمح له ظلا. قبيل العصر.. يئست.. همت بالانصراف. قبل أن تغادر الشارع الكبير لمحته متشعبطا فى الترام. نزل فؤاد.. قبضت على ذراعه دون أن تنبش.. شم راحتها.. عطرها. عرقها.. استسلم لقدره.. سار مبهورا.. مسحورا مسحوبا. فاقداً لأى إرادة.. على أول بسطة كانت العودة.



-٦-

عاد الحاج حسنين.

– كيف حال الشيخ فؤاد؟

– لم نره منذ سافرت.

– لعلك أغضبتيه؟

– استغفر الله ياحاج. هذا رجل بركة.

– فلماذا ترك البيت؟

– حين علم بسفرك رفض أن يدخل بيتك الطاهر فى غيبتك.

ازداد الفتى فى عين الحاج. ثقة وحبا واحتراما وقربا. بعد صلاة العشاء سحبه إلى البيت. بعد العشاء قال حسنين:

– أنا زعلان يا شيخ فؤاد. تركت الست أمانة عندك.

– انخلع فؤاد. كاد يسقط لولا أن تداركته عناية حسنين. لكنك تركتها وحدها فى بيت طويل عريض. كنت أظن أنك ستقوم مقامى وتسد مسدى لكنك...

ابتسم فؤاد وابتسمت العدوية.

– مقامك يا أبو مقام. دا مقام عشرة. هو أنت لك مقام ولا منام.

صعد الشيخ إلى غرفته.

- أوصلى مولانا يافاطمة.

على السلم تحسس ظهرها. اقشعرت.. تفلتت عادت.

- وحشتنى ياحاج البيت من غيرك لا طعم له.

مد يده. تحسس شعرها وظهرها. احتضنها.. استلقت على السرير. راح يمارس الحب. وهى تمارس الكره والازدراء والاحتقار. حركه واحدة. أحست بالبلل. شعرت بالفرق.. حاولت النوم فلم تستطع. لقد أثارها العجوز. ولم يطفئ غُلْمتها.. حاولت أن توقظه لعل به آثارة من أى شيء.. كان يغط فى نوم عميق. قامت.. قعدت. خبطت رزعت.. تأكدت أنه لن يفيق ليلته.

تسللت إلى غرفة فؤاد. وكأنه كان ينتظرها انقضت عليه وكأنها تثأر لنفسها من كل الرجال.. كلما حاول أن ينزع نفسه ضمته وضغطت عليه. ليبدأ من جديد..

- عشرون عاما من الحرمان والعجز والقرف.

● ● ●

-٧-

لا غنى للطالب الكفيف عن قارئ. من الممكن أن أذاكر مع زميل. لكن المذاكرة مع الشرقاوى لها طعم آخر. فهو زميل وحبيب وعشيق.. زميلى ورجلى أيضا.

لم يجد فؤاد فى القاهرة شرقاويا آخر. كان الأمر يسيرا هناك ,حيث الكبت الشديد. والبحث عن الآخر. والسكن الخاص. الزميل المحروم المتعطش. أما هنا فالأمر مستحيل. لو كان مبصرا لاحتال. ولكن أنّى له ذلك. كان يطفئ نيرانه المشتعلة بممارسة أقصى درجات العنف مع العدوية.

- هى امرأتى ورجلى فى آن واحد.

ليس هناك أمتع ولا أروع للمرأة من معاشرة رجل شاذ. حين يلتهب المخرجان ويغلى السبيلان كالمرجل تبلغ المتعة أقصَى ما قُدر لها من استمتاع. والمرأة المجربة تعرف ذلك جيدا. سنّ من يمارس. وشذوذه. كما أنها تعرف تاريخ ممارسته السابقة. إن سخونة السائل وكثافته وكميته وقوة تدفقه تعنى الكثير عند المرأة.

كثرة المشاهدة تخفف من وطأة الوطء. وما يفقده الأعمى من لذة بالبصره. يستعيضه بعنف الممارسة..

اجتمع للشيخ عوامل الإثارة والفحولة: الشذوذ والعمى. فانكب على العدوية يكيل لها أضعافا مضاعفة.

-٨-

- قالت: والله ماأنت ببشر

- قال: بل ملك كريم

قالت: شيطان رجيم.

- أنا رجلك

- عشرة رجال فى قلب بعض

- هل أنت مبسوطة؟

- الشكر والحمد لله.

- قال: لأن شكرتم لأزيدنكم

- أشكرك ألف مرة

الشكرانية الواحدة بعشرة أمثالها

- فقط؟

- إلى سبعمائة ضعف.

خبطته بقفا يدها على صدره. استدارت نحو الباب. خبطها. تأوهت. هرولت نحو السلم.وهى تقول: آه يا ابن... ولم تكمل.

لم ترتفع الكلفة خارج غرفته: حتى المعاشرة لا تخلو من احتشام أحيانا، ظلت تحفظ للشيخ مهابته. (هكذا نشأها والدها): شيخ أزهرى شديد الوقار فى العلن. فإذا اختليا رأت منه فجورا لم تره من قبل. ولم تسمعه من عتاة النسوان. حتى توحة نفسها.

● ● ●

٣- توحة الماشطة

-١-

صاحبة المزاج العالى كلما أعجبها رجل اغتصبته حلالا أو حراما. كل الرجال حلال لتوحة. ولم تحرم رجلا على نفسها توحة.

– تزوجنى خير لك. الزواجُ يغنيك عن الحرام.

همست دون أن يسمع الشيخ الوقور:

– حرمت عليك معيشتك. أيظن هذا المدهْوِل أنه سيدخل الجنة قبل رشدى أباظة، وأن زوجته العمشاء التى لا تزالِ تبول على عقبيها. ستدخل الجنة قبل هند رستم. إن من ينام مع العمشاء هذه لا يرى الجنة. فهى الحرام بعينه.

سمع الرجل عمشاء. فابتسم.

– لسانك يقطر سما.

– لسانك لم يعد يقطر شيئا.

– لا فائدة منك ياولية.

– إذا كنت تُعلّم الرجال. فأنا أعلم النسوان. والجنة بين أقدام الحريم كما تقول

– استغفر الله!

– أجعلهم حريما بجد. لا كشوال التبن. هناك رجال على أبواب الآخرة. ولم يدخلوا دنيا.

- من تقصدين؟

- واحد صاحبنا.

- أنا تزوجت ثلاث مرات.

- الحاج عامر عنده ست جموسات. ليلة واحدة مع توحة خير من الدنيا وما فيها. خير من ألف شهر مع العمشة.

- أنت مغرورة.

- من ذاق عرف.

• • •

-٢-

تحلق النسوان حول توحة كما يتحلق الرجال حول شيخ الطريقة.

- لا ينقصك إلا طربوش أحمر.

- عندى ما هو أحمر من الطربوش.

- كم رجلا عرفت فى حياتك ياخالة توحة؟

- قل شيخة توحة. زواج والا...

- الاثنان معا.

- زواج. الشر بره وبعيد. ثلاثة عشر.

- فى عين العدو.

- ليس فى عينه.

- كلهم ماتوا؟

- لم يمت منهم أحد. طلقتهم جميعا. شهور والواحد منهم يخلص. والماء ينقطع.

- وغير الزواج.

- عدد شعر رأسك يابنت القرعة.

– يعني كم؟
– هو أنا مخّي دفتر.

● ● ●

كانت توحة حكّاية بأصل خلقتها ,ساعدها خيال يتّسع يوما بعد يوم. وهبها الله قدرة على القص والوصف والسرد. والتشخيص بالأصوات والحركات والأوضاع.. تمتلك من عناصر التشويق ما يملك على السامع حسه وسمعه وبصره...

تحلق النسوان حولها وعلى رءوسهن الطير. شاخصة أبصارهن.. فاغرة أفواههن. هائجة أشواقهن

– من تتعب منكن تلحق بجحشها قبل أن تبل نفسها يا غجر.

● ● ●

-٣-

– صباح الخير أيتها الحيزبون.
– إن شاء الله ستكون عندى (زبون)
– زباينى فى الجنة، وزباينك فى الجحيم.
– رزقك الله حمل برسيم.
– لسانك طويل.
– رزقك الله لسانا مثله.
– أعوذ بالله.
– لسانا حيا.

ابتسم الشيخ وانصرف.

ذاعت المساجلات بين توحة والمهدى

– لابد من الوصول وإن طال السفر... الرجل بينه وبين الماء والصابون ثأر. سأنقعه فى الماء نقعا.

وحياة الغالى لأضع أنفك المتكبر بين رجلى وأتركك تلهث كالكلب.

● ● ●

لم يستعص على توحة رجل كما استعصى الشيخ مهدي. تستوقفه طويلا.. تسأله فى كل فقه النساء تلميحا أو تصريحا، والجبل لا يتزحزح.

– لقد جربت كل شيء. يبدو أنه خصّى.. لن أيأس قط. ولن أسلّم بالهزيمة أمام حلوف. على الطلاق ما أنا عتقاك ياابن الكلب.

لاحظت أن الهواء يضرب قفطان الشيخ.. لملم الرجل قفطانه وانصرف.

–٤–

يخرج الشيخ مبكرا لصلاة الجمعة .

ركبت الترام.. نزلت حين نزل ملفوفة فى عباءة بيضاء وقد أسدلت خمارها على صدرها وكتفها. أمام باب الحسين احتكت به لمحها توارت فى الحجاب.

– الخالق الناطق. ولكن هيهات. لا يمكن أن تكون هي.

تكرر المشهد أمام باب السيدة، والسيدة نفيسة ألقى السلام تحية. كرر السلام

– السلام لله. إذا حييتم بتحية فردوها.

– شقت طريقها نحو المقام الطاهر. اختفت.

عدة (جُمع) لم يعثر لها على أثر. صلى فى كل مساجد الأولياء الصالحين، وغيرها، سمعها تغنى:

– إسكندرية يا أجدع ناس، اقروا الفاتحة لأبو العباس"

صلي الفجر.. ركب القطار. بحلق فى النسوان.. ملايات بحرى. مايوهات الأنفوشى والشاطبى. صلى العصر قفل راجعا، تحت شباكها سمع.

– حبيبى قصاد عينى– وأنا بأدور عليه، إنت جحش وألا إيه.

– لا إله إلا الله. له فى خلقه شئون. سبحان ملهم البر والفاجر، والفاسق والعاشق

– حبيبى ساكن فى الحسين، وأنا ساكن فى السيدة.

- مدد يا أم هاشم، يا أم العواجز، مدد.

صلى خارج المسجد، هُرع إلى مصلى النساء، على الرصيف المقابل، انتظر. طال انتظاره، مشى نحو شارع السد، تلفت كثيرا، ساعده الجلباب البلدى على التخفى، قطع الشارع ذهابا وإيابا، خلت الساحة من المصلين، هم بالانصراف، كانت آخر الخارجات من مصلى النساء. لم يكن يخامرها شك فى أنه سينتظرها مهما طال الانتظار.

عبرت الشارع ركبت الرصيف، سارت نحو المبتديان، أمام دار الهلال لحق بها. دون أن تلتفت

- ربنا على عبيْده ستار.

استوقفا سيارة، ركبا معا. قبل شارعهم. تفرقا. سار كل منهما فى طريق.

- من منهما(توحة)؟

هذه المريدة العابدة؟ أم صاحبة اللسان؟

أنس الشيخ للشيخة التى لا يعلم سرها أحد. رابعة العدوية تعود من جديد.

لماذا كشفت لك دون الناس سرها؟

تواصل الأرواح ..

- سلامة القَسّ.

تقاربا.. تصادقا اعتاد الناس سماع مشاكستهما. استشعرت منه أُنسا وقربا.

- هل تكسفنى ياشيخ لو طلبت منك طلبا؟

- إن كان مشروعا.

- مشروعا مرفوعا. هو أمر بسيط لا يرفضه إلا بخيل وأنت أبو الكرم.

تكرّم على بفنجان من (بُنِّ) توحة

- كل البْنُ سواء.

- هذا بن لم يذقه جدك رحمة الله عليه.

- رجعنا لطول اللسان.

- الطبع غلاب يامولانا.

ذيل الكلب عمره ما...

- ولا ذيل الشيخ.

- متشكر يا توحة. سلام عليكم

- أنت خائف من توحة!!

- ولا كل توحات البلد.

شدت كم قفطانه.. كادت تخلعه.

- ادخل.

تعثر فى عتبة الباب. كادت عمامته تسقط.

وجد نفسه داخل البيت. أغلقت الباب. قبلته.

- لا مؤخذه يامولانا من فرحتي.

- أنت زى بنتي.

- بنتك وأختك وأمك.

- أمي؟

- من الرضاع يامولانا.

- ضحك.

- كيف؟

- سأرضعك اليوم. إن شاء الله.

- فاتك التعلم يا توحة. لو تعلمت لكنت شيئا آخر

- علمنى.

ابتسم ولم يرد.

قبل أن يكمل احتساء الفنجان أحس دبيب النمل فى عروقه

- من أين هذا البن يا توحة؟
- من الجنة ونعيمها يامولانا.
- خلطة لم أذق مثلها.
- وسكى.

انتفض.

- أعوذ بالله.

وسكى الصالحين يامولانا. عنب وحب هان:

- همست وكل الموبقات يا روح أمك.
- وضع عمامته على طقطوقة. رحرح على الفوتيه. مد رجليه. سارعت

بخلع حذائه وجوربه.

- عفوا يا سيدتى .
- لمس حذائك، الكريم شرف يا مولاي.
- مولاى!!
- جارية المهدى سيدة نساء العالمين.

وضع يده على رأسه. تمتم.

- الشيخ المهدى أم الخليفة المهدي!! لا يعرف أقدار الكبار إلا الكبار.

حقا إنها امرأة من عالم آخر.

- نعمل واحد تانى يامولانا؟
- ماذا؟
- أقصد أصنع لك فنجانا آخر.
- أكون لك من الشاكرين.
- الشاكرين العابدين الحامدين... ال..
- لا تخلطى التقوى بقلة الأدب.

- سأتعود الأدب. وأعودك قلته.

- أعوذ بالله.

- هذيان الدراويش يامولانا.

ذهبت تعد القهوة.. تأخرت قليلا.

- تفطر معى ياامولانا. من شرب قهوة توحة جاع.

متشكر.

والله ما أنت كاسفنى.

أعدت لقمة.. غمستها فى العسل.. دستها فى فم الشيخ

- باسم الله ياامولانا.

تعمدت أن تدفع إصبعها فى فم الشيخ وعليه عسل كثير. سال العسل. تلقّفه لسان الشيخ... لحسها.. مصها. تأوهت تأوه الداعي. أطبق جفنيه. مصمص العسل.

استطعم الشيخ لقمة الفطير. شمر عن ساعديه..

استأذنت ثم عادت بحمامتين تشكشكان فى السمن البلدى. دفعت ببخارهما إلى مناخيره. نفس عميق مزق رئتيه. مدت يدها بواحدة.

- حمامتك ياامولانا.

- حمام بلدى لا تجده إلا عند توحة. أخلع الجبة حتى لا يزيت. زيتك. الزيت.. لخبطنى

- يا اسمك إيه.

التهمها.

- حشو الباطنية يا مولاى. أقصد العطارين الذين قرب الباطنية.

مدت يدها.

- حمامتك يا مولاى.

لم يتردد شمطها.

كان زوجى العاشر صاحب مزاج عالى . وكان من تجار الصنف يضعه فى القهوة وفى حشو الحمام. ويوقده بخورا فى غرفة النوم. وكنت أعرف أن زواجى لن يدوم طويلا. عدة شهور.

فرك الرجل يديه مسحهما فى فوطة على المنضدة.

– الحمّام الكبير به غسيل يامولانا. حمام آخر على يدك اليمين... داخل الغرفة.

دخل حمام غرفة النوم.. تأخر. حين عاد كاد يتوه. الغرفة مظلمة تماما والأبخرة تنبعث من كل مكان. تعثر.. فجأة انبعثت أنوار خافتة.. ثريات فى الأركان ومن تحت السرير أشكال... ألوان فى حلقات دوارة... وجد نفسه فى دوامةمن النار والنور. هتف: توجة.

سطعت بؤرة من الضوء.

فى منتصف السرير. كومة من اللحم الأبيض فى قميص شديد الحمرة. انحسر عن فخذ مصقولة كالسجنجل عكس نورها نور النور.

– تمتم بسم الله: نور على نور فى نور

جذبته فانجذب. دفست رأسه.

– ذق إنك أنت الشيخ الجليل.

بسط ذراعيه على وصيدها. قلبته ذات اليمين وذات الشمال. ظل الشيخ : مكرا معرا، مقبلا مدبراً. بلغ كل شىء منتهاه. انبهر مما رأى. وما سمع. وما صنع.

هتف:

– له فى كل شيء آية.. سبحان الخلاق العظيم.

– ألم أقل لك من ذاق عرف!!

– صدق من قال: فما رأى كمن سمع.

– كم العدد يامولانا؟

– علم ذلك عند ربى.

استلقى على ظهره وهو ينهج كالثور.

نهضت وهى تقول: فى الحمام ماء ساخن وبشكير وبُرنص.

– تقولين برْص؟

● ● ●

-٥-

سالت المياه الدافئة على جسده الكريم. وكأنها تسيل لأول مرة. أشكال من الصابون.. أنواع من العطور.. والشانبوهات... فتحت الباب. وبيدها مبخرة. تنبعث منها روائح نفاذه. أمسكت صابونة. قطرات من الشانبو المعطر. راحت تدلك جسده تدليكا أشبه بالدغدغة. والشيخ فى لذة غامرة. تمنى الموت. تمنى الشهادة.

فلما اقتربت.. شعر بقشعريرة. راحت تدلك ببطء وعناية.

أحس الدفء. انتعش.. استعاد نشاطه.. جذبها وهما يتزحلقان. فى الصابون فى الشانبو..

وهو يلفظ آخر قطراته.

● ● ●

راح فى سبات عميق يحسبه الرائى ميتا. بعد ساعات تململ. ثم انقلب على جنبه..كسب الدنيا والآخرة. رفعت رأسه. أسقته كوبا من عصير الموز باللبن والعسل. ثم كوبا من عصير المانجو. حين خرج من الحمام للمرة الثانية كان الغداء معدا.. نصف كيلو كبده محمرة. ديك صغير محشو بالمنعشات. المنشطات. السائلات.. المهطلات..

طاجن بلحم الضأن.

– لا أستطيع أن آكل.

– كل ما استطعت.

- كفاية فراخ.

- كبده توحة اللذيذة

- كل شيء فيك لذيذ.

تظاهرت بالخجل.

- ما أروعك وأنت خجول.

- عُجول؟ هذا لحم خاروف لاعجول.

- خجول. من الخجل والاستحياء

- أنا أتكسف من أى شيء يامولانا.

- الحياء شعبة من شعب الإيمان. وهذه صفة الصالحين أمثالك.

- فنجان قهوة ياحاجة فتحية.

- خليها عصير يامولانا من أجل أن تنام.. الليل

شرب العصير وانصرف.

- لقد عرفت طريقك يامولانا.

- إن شاء الله.

قالت: حج مبرور. و....

-٦-

- أراك متعبا يامولانا. وجهك كالليمونه. استرح.أحضر العشاء.

عادت من المطبخ. وجدت الرجل يغط فى نوم عميق.له صوت كنقيق الضفادع... قبل أذان الفجر استيقظت. انتظرت نداءه اليومي. لم يبد الرجل حراكا.. فاتته صلاة الفجر. وصلاة الضحى والظهر. وهاهو العصر يقترب. أذن المؤذن. سمعت صوتا

يا أم على:

أسرعت.

- هاتى الشبشب. لأصلى الفجر.

- سلامتك أذان العصر ياحاج.

حاول أن ينهض فلم يستطع. تظاهر بالكسل والدلع حتى لا تظن به الظنون. ضربها على فخدها. تراقصت. استبشرت خيرا. منت نفسها الأماني. مضت ثلاثة شهور على آخر لقاء بيننا. وكأن الرجل ينتظر انتهاء العدة.

- كبرنا على الشقاوة يا أم على. خلاص راحت علينا ياحاجة وكأنه نسى اسمى. أريد أن أسمع اسمى ولو مرة واحدة فى السنة.

- شاى وأسبرين يا أم على.

- ليت أم على لم تلد عليا!!

- سلقت لك ديكا وشربة لسان عصفور بالحبهان.

ضغط على نفسه وهو يقول:

- صحيح الأكل نفس. ونفسك نفس جاموسة. الله. يخرب بيتك يا توحة.

-٧-

بعد أسبوع زارتهم توحة.

- أين الشيخ ياوزة. لم أره منذ شهر؟

- الشيخ بعافية عنده وجع فى ظهره وركبه.

- خفى عنه ياولية. دا أنت تهدى الجمل. حرام عليك.

حركت شفتيها. يمينا ويسارا ولم تنبث.

- يحتاج الرجل إلى غذاء وأنت جلدة:

- سلقت له فرخه فلم يأكل منها شيئا.

- من فراخ الحكومة؟ شربتها كماء النابت.

كان المرحوم يقول: منقوع البراطيش.

- من المرحوم.

- واحد كنت متزوجاه.

– ما اسمه؟

– والله ما أنا فاكراه. هم أكثر من الهم على القلب.

●●●

فى اليوم التالى جاءت. توحة ومعها زيارة للشيخ.

– لماذا التعب؟

– الجيران لبعضها. والشيخ والدنا جميعا. عمرنا ما شفنا منه إلا كل خير.. لا تنسانا من الدعاء والذّكر يامولانا.

بالكسر يا بنتي. أنت سيدة نقية ورعة.

– مرعرعة كيف؟

– ورعة: يعنى صالحة طيبة؟

–٨–

– لسانك يقطر لبنا يامولانا.

بعد شهرين من موقعة توحة تحركت رغبة الشيخ.. طرق بابها.

– ربنا يحنن علينا وعليك.

– افتحى يا توحة.

– أنا ألبس الحذاء مرة واحدة.

طأطا رأسه وانصرف.

●●●

–٩–

جذب أم على.أمالها على السرير لم تكن هى المرأة التى عاشرها أكثر من ربع قرن. تأملها دقق النظر.

– توحة فى قميص عزيزة. ليست هذه أم على. أين كان كل هذا. تحركت.. نطقت بعد ربع قرن.. تقلبت ذات اليمين وذات الشمال . أرته كل فنون القتال فى ليلة. إنها ليلة خير من ألف ليلة.

- ما أروعك الليلة ياوزتى.

- وأنت كذلك ياأسدى.

- الشعر المدهون المسبسب والعطر الفواح.

- البركة فى توحة عندها كل شىء مرت علينا أمس قالت:

- اتركى لى نفسك وأنا أعيدك عروسا. عندها علم النسوان جعلتنى عروسا.

تمتم.

- بل مومسا بغيا.

ثم استدرك. كما يقول القائل ينصح عروسا((كونى بغيا فى فراش زوجك))

- نجحت توحة فى ما لم يحققه علماء ووعاظ.. معلمون وأساتذة. نجحت فى تربية تلاميذ لها. سرها باتع : مدد يا مولاتى توحة مدد.

●●●

٤- مدد ياحسين

-١-

فى آخر أيام الامتحانات وقعت الواقعة.. زلزلت الكلية زلزالا شديدا. إعلانات تُلْصق.. منشورات توزّع. بيانات تُذاع.. تنبيهات فى لجان الامتحانات.

- الدراسة تبدأ فى شهر تسعة.. لكنها ستكون فى المبنى الجديد بالدَرَّاسة.

أسقط فى النفوس، دارت الرؤوس.. حارت العقول. زاغت الأبصار. بلغت القلوب الحناجر. تظاهر الطلاب... أعلنوا احتجاجهم. اقتحموا مكتب العميد.. هُرِعوا إلى رئيس الجامعة. هتفوا بسقوط شيخ الأزهر.

- كيف نعيش هناك؟ لقد وطّنا أنفسنا على العيش هنا. أين نسكن؟ ليس في وسعنا استئجار سكن هناك.

- القرار سيادي. ولا رجعة فيه:

-٢-

قبل بدء الدراسة بأسبوعين عاد الفتى الجرجاوى إلى القاهرة. لكنها ليست كالتى تركها. إنها قاهرة المعز، أم الدنيا والآخرة، بين الصلاح والفجور شارع واحد، بين البيوت العامرة بالذكر والقرآن، والبيوت الداعرة الغارقة فى الفسق والفجور والعصيان. حوار وأزقة. بين بيوت الرحمن وبيوت الشيطان خطوط سراب.

لم يشك لحظة أنه سيلقاها بعد قليل. تحرك السائق قال المرافق:

- الدَرَّاسة يا اسطي

- قفز قلبه من بين ضلوعه. رفرف فوق سنجه ترام الدوران. دار حوله لم يستطع أن يمسك به، جذبته يد طويلة، حبسته داخل العربة.. وأقفلت الزجاج، سعل القلب، نبض نبضة واحدة سكت بعدها كف عن الحركة.. شعر أن دم العدوية لن يجرى فى عروقه مرة أخرى. كيف يحيا بدون قلب ولا دم؟ وكيف تعيش هى بدون عسل الصعيد ولبنه:

أغفى قليلا.

أشباح.. أنوار.. خطوط. دوائر. دوامات. حمراء. صفراء. خضراء. إعلانات تبرق فى كل مكان. فتُحت أبواب.. دُقت أجراس.. ضُربت نواقيس.. دوت تكبيرات.. طارت تحميدات.

على باب (سنت تريز) وقف عريس. هلّت عروس ترفل فى ثوب راهبة. جبة شيخ. عباءة قس.. عمامة حسين. قلنسوة أبوسيفين.

عروس السماء.

دعاء الدعاء.

بتول عذراء.
حفيدة الزهراء.
سكينة الحسينية .
زينب العلويه.
رابعة العدويه.
مريم المُجدليه.
شفيقة القبطيه.
إيزيس الفرعونيه.
بهية المصرية.

غسل مُغسل. عمّد مُعمد. طيب مطيب.. تراتيل شماسين .. تلاوات قارئين. أسفار تكوين.. أناجيل.. قرائين.. أساطير أولين.. صحف مطهرين.. ألواح موسى وهارون. صحاب.. أسباط.. حواريين طائفيين.. ساجدين.. سيوف فاتحين.. حراب قديسين.

فتحت ذراعيها.. احتضنته. ذابت فيه.. انداح فيها.. سبحا فى نهر من لبن وعسل مصفى. ارتفع أذان فى كل مكان.. دقت نواقيس. تراقصت أهلة.. تمايلت صلبات.

ارتفعت عمائم.
هدلت حمائم.
غردت بلابل.
نعقت غربان.
صوحت جرذان.
زقزقت عصافير.
صرصرت صراصير.
أطلت ثعابين.

زُفّت عروس.. على الملأ تغشاها عريس.
من تحت الكنبة أطلّت رءوس. شيخ وكاهن. عابد وقسيس.
صفقوا طويلا... هتفوا جميعا: شيوخ إسلاميين.. كهان وادى النيل.. قساوسة مسيحيين.. أحبار. ربانيون
عاش الهلال مع الصليب.

● ● ●

-٣-

من على مكتبه نهض الحاج محمد البارودى.
– حمدا لله على سلامتك ياشيخ فؤاد:
انتفض.. فاق من سكرته.. موتته الصغرى.
– ياليتها كانت الكبري:– ياليتها كانت القاضية ذاك ماكنت منه تحيد.
ارتطم عقله وقلبه وخياله بأرصفة الغورية.. ارتعش كعصفور بلله القطر.
– جئت قبل الدراسة بأسبوعين. لأطمئن على السكن. وأتعرف الطريق.
– السكن متوفر.اسكن حيث شئت. فى أى مكان ستجد الراحة إن شاء الله. الجميع فى خدمة أهل العلم. ونحن فى رحاب الحسين رضى الله عنه.

-٤-

فى حى الدراسة كثير من بلدياته تجار الجملة ،يمدون تجار جرجا بما يحتاجون من (منى فاتورة وخرداوات) ومنهم والده تاجر الخرداوات.
فى قلب الغورية نزل الشيخ عند البارودى . تاجر الجملة الشهير... شقة مجهزة بجهازها. البُسط المبسوطة. والفرش المفروشة.. والسرر المرفوعة.. والأكواب والأبارئق: وأوانى الذهب والفضة: والتحف والثريات. تحف الخان.. سجاد طهران.
كان البارودى شيخ مشايخ التجار، يملك عدة وكالات لتجارة الجملة.. وكالاته مفتوحة لكل تجار الوجهين، البحرى والقبلى. يحسبهم الجاهل تجارا

كبارا. لكن حقيقة أمرهم: صبيان للبارودى، منه يأخذون، ولحسابه يبيعون. هو تاجر الجملة. فى ضيافته ينزلون. يأكلون ويشربون. ومن وكالاته يتسوقون.

كل المستورد لحسابه.. كل المحلى صناعاته.. علاقاته بالحكومات المتعاقبة مباشرة. كل الحكومات الإنجليز. القصر.. الوفد. السعديين. الأحرار.. الأزهر.. الكنيسة.. الشيوعيين.. الإخوانيين. علاقات توارثوها من أول بارودى نزل مصر.

– التاجر محتاج لكل الناس. يحتضن الكلب والذئب. والقط والفار.. يوزع ولاءه على كل البشر.

الغورية !! وما أدراك ماهي!! ليلها كنهارها. ونهارها كنهارها.لا تأخذها سنة من نوم. ضوضاؤها. تنافس ضوضاءها.

– عليك أن تسكن إلى ما بعد امتحان الدور الثاني: ثم تفكر.

كان البارودى حريصا على راحة الشيخ.

– نصف أصوات البلد فى أيدى ذويه: الشق القبلى كله.. والشيخ يخطب الجمعة. كل جمعة فى جامع.. رقبتك ورقبة أهلك فى يد هذا الأعمى. لو رشح نفسه لاقتلعك من جذورك. وفجر كل البارود فى الهواء.

– يا سيد أنت من الآن فى خدمة الشيخ لا عمل لك إلا خدمته. دون أن يشعر قل له إنك لا تصلى إلا فى المساجد الكبرى! الأزهر. الحسين. السيدة. الإمام. معه حيث شاء.

– ابتسم البارودى...

– حتى لو دخل السيما.

اصطحب سيد الشيخ إلى مسجد الحسين. عبر به شارع المعز.. السيارات. الترام.. الحناطير.. الكارو. مشاة فى كل اتجاه. حشر لا أول له ولا آخر.. وهو يشرح له كل شىء: أسماء المقاهى والمطاعم.

- يا سيد

لم يسمع.

- يوم يفر السيد من أخيه ومسحوبيه.

" لكل امرئ منهم شأن يغنيه" إذا كان يوم الجمعة هنا كذلك. فما بال الناس يوم الجمع؟؟

- فى الأزهر: مصطفى إسماعيل والغزالي.. وفى الحسين: البنا والباقورى. أيهما تسمع يامولانا؟

- سأسمعهم جميعا.

- هل يجوز يامولانا أن نصلى الركعة الأولى فى الحسين والثانية فى الأزهر؟

- أنت رجل طيب ياسيد. هذا لا يكون فى الصلاة.

- كيف تسمعهم معا؟

- نصلى عند الدهان. وهو يتوسطهما.

أدرك السيد أن الشيخ يداعبه. وأن المسافة بينهما تضيق.

اعتاد الشيخ التحرك منفردا. لكن قاهرة المعز ليست كالخازندار. وليست الغورية كالحافظية..رصيف واحد من بيت العدوية إلى الكلية. ليس فى الغورية موطئ لقدم مبصر. فما بالك بمن كان مثله!!!

إنها القاهرة:

الساهرة. النائمة

الفاجرة. العابدة

العارية. الكاسية

الفاسقة. الطاهرة

الضالة. الهادية

الراضية. الساخطة

الساكنة. الثائرة.

الجنة. والنار. السعادة والشقاء

الداعية. الذاكرة. الراكعة. الساجدة. الشاكره الحامدة... الشاخرة. الناخرة.

قاهرة. قصر الشوق وبين القصرين. والسكرية. والخان. والزقاق. والأزهر والحسين. والفيشاوى.

نقلك نجيب محفوظ إلى جرجا. الشيخ الكردى قال إن نجيب ابن عمه. البارودى. هو السيد أحمد عبد الجواد. سأفتش عن حميدة وزنوبه، وزبيدة، وجليلة.

إنسابت أنفاس المداحين. وأذكار الذاكرين من فوهات القباب . وشرفات المآذن. تعانقها زفرات الزافرين المندفعة من خياشيم الحشاشين ،فى محارب الباطنية الآمنة. مكونة سحابة من أنفاس البشر لا تشمها إلا فى هذا الحي.

شد البارودى آخر الأنفاس مع سماع الأذان. قال: نكمل فى الحسين. زَار وصلى. قرأ وحمد وسبّح وكبرّ.. عاد يُحْوقل منتشيا.

امتلأ صدره. أنفاس الإيمان. دخان الإدمان.

– اللهم دمها نعمة. واحفظها من الزوال.

●●●

حين دخل فؤاد المسجد الكبير تخطَّى رقابا. داس يد ساجد.. اصطدم براكع.

– حاسب أنت..

لأول مرة أحس بالعجز. كان سعيدا بشقاوته التى لا يقدر عليها مبصر. أسند ظهره للمقام... فاضت عيناه بالدمع وهو حزين. لم يحاول تخطى الشارع الكبير بعد ذلك.

– السيد يصحبك يامولانا.

أحس البارودى معاناة الفتى.

– لدينا بيت مجاور للأزهر. شارع ضيق لا تدخله عربات.. عدة أمتار بين البيت وسور الأزهر. يدور شمالا مع السور يدخل الجامع. يمينا يدخل الجامعة من الباب الخلفي. البيت مخازن. به شقتان صغيرتان. جهزوا واحدة للشيخ.

انتقل الشيخ إلى مسكنه الجديد. بدأ يمارس حياة آمنة. بعد عدة أيام شق طريقه منفردا والسيد يقوم على خدمته داخل البيت ,وينام فى الشقة الأخرى.

–٤–

– ادخل ياسيد.

– صباح الخير يامولانا. من اليوم نحن جيران.

– وما الجديد فى ذلك؟

– أحضرت الأولاد من البلد.

– أولادك سيملأون علينا البيت ياسيد. وسأحفظهم القرآن.

– ليس لى أولاد زوجتى فقط. لم يرزقنا الله بعد..خمس سنوات وأنا أحرث فى أرض بور. ادع لنا يامولانا.

– فى رحاب الحسين والأزهر. تمتم والباطنية. الدعاء مستجاب

– ببركاتك ياسيدنا الشيخ.

– كل شىء بأوانه يارجل.

– لولا الملامة لتزوجت.

–لا جناح عليك ولا لوم.

– لا أستطيع.

– ربك الرزاق.

– العيشة مقدور عليها.

- عجزت ياسيد
- الصحة بمب.
- توكل على الله.
- بنت عمى ولا أحد لها غيري.
- قد يكون لها نصيب مع زوج آخر.
- مستحيل.
- أتظن أنك الذكر الوحيد فى مصر؟
- الرجال كثير ولكن.
- لا إله إلا الله.
- أصله يامولانا. لا مؤاخذه. هى بنت عمي.
- حتى لو كانت أختك يا أخي.
- أصله.
- عدنا إلى أصله وفصله.
- أنا مكسوف منك يامولانا.
- منى أنا. وهل أنا زوجتك؟ أم تريد أن تتزوجنى؟
- ليس هذا قصدى يامولانا.
- خرب الله بيتك. وبيت مولاك. وبيوت المسلمين أجمعين.
- آمين.
- تؤمّن على خراب البيوت ياسيد!!
- أصلى أنا كل ما أسمع الشيخ يقول! المسلمين أجمعين أقول آمين.
- فتح الله على غيرك ياسيد.
- مكسوف أقول أمامك إنها.. إنها.. إنها. عاجزة... عاجزة النظر..

انحطّ الشيخ على الكنبة ولم يعلق.

لم يقل سيد لزوجته إن جارها كفيف. فهو لا يذكر العمى أمامها قط.

لم يدر كيف انكفأ على كتلة من اللحم الطري.. قناطير مقنطرة من اللحم والشحم. غاص فى بحر لجُي. أمواج من تحتها أمواج. أهرام من فوقها أهرام. قباب. تجاورها قباب.. كاد يغرق.. كاد يشرق.. أمسكت بتلابيبه. شهق. كاد يختنق.. سعل.

- العتب على النظر ياست.

ظنته يقصدها.

- انطسيت فى نظرك يا بعيد.

- والله العظيم أنا عاجز النظر.

أرسلته وانصرفت. حكت لزوجها ما حدث. ذهب بها للشيخ اعتذر.. وعادت

- تشرب الشاى معايا يامولانا.

- من خلف الباب. والعشاء أيضا.

عاد إلى غرفته.. استدعَى ما حدث.

- لم يكن بد مما حدث. كدت تسقط فارتميت. والله لم يكن قصدي. غصبا عنى احتضنتها. كقبة الحسين مدد يا ابن بنت النبي. لم يكن قصدى. ارتميت مرغما. لكنك تباطأت.. تلكأت.. يالكاع. بطبطت كما يبطبط فى الماء ذكر البط. عمت على فردتين كبيرتين من عجلات عربة نقل كبيرة.. تزحلقت كمن يتزحلق على حرير. أحس الآن بالطراوة والنداوة والملاسة. والخجل وقلة الأدب.. ليس على الأعمى حرج. ما حدث حدث. هل جاء الفرج. أمواج رقراقة لا يبغى بعضها على بعض. عيون نضاحة.. نعم ظاهرة وباطنة هل تعيد الدمنهورية ليالى العدوية!!

- مدد ياحسين مدد:

- أحس وخذاً.. هل كان يحمل عكازا؟ إذا كان لا يقصد فما الذى أيقظ الثعبان فجأة ,فاندفع مذعورا كأنه يأوي إلى شقه. الطعن لا يزال يؤلمني. طرف عصاة كانت فى يده انغرست وهو لا يقصد. لكنها عصاة من نوع خاص. بالتأكيد أنه لايقصد.

● ● ●

كومة اللحم تسد عليه طريقه فى النوم واليقظة. احتضنها ونام. حاول أن يدخل باب الحسين سدته عليه ,اتجه إلى باب الأزهر توسطته ,حاول أن يمرق من جنبيها. سم خياط انفلق اللحم فلقتين. كثبان من الرمال المتحركة. ضربته موجة. انكفأ على وجهه خسر الدنيا والآخرة. غاص بين الصدفين. رفس ببقايا رجليه. سحبته العدوية. انهالت عليه ضربا بالشباشب.. تألم.. صرخ.. قام مذعورا..

كاد يُجّن.

- هل أذهب إلى العدوية. حافى القدمين.حاسر الرأس. وأعلن التوبة بين قدميها...بأى وجه ألقاها بعد هذا الجفاء الطويل؟ وهل تستقبلني؟ هل ترحب بي؟

لم تسأل عنى مرة واحدة. تلكأت أمام باب الكلية طويلا تخيلتها تسحبني. أحسستها.. لكنها لم تكن هي.. أفر من الخطيئة إلى أكبر منها.. المكتوب على الجبين. أفر من قدر الله إلى قدر الله. أينما تكن يا فؤاد يدركك الحب والكره؟ ولو كنت فى شقوق مشققة. فى أعلا عليين. فى أسفل سافلين.. فى الطابق الأعلى. فى الدرك الأسفل..هكذا خُلقت.. من أجل هذا وجُدت. عليك أن تؤمن بالقدر: خيره وشره.

-٦-

- وصلتنى برقية. والدى تُوفي.

- البقاء لله. شد حيلك. انتظر ياسيد: خذ هذا المبلغ. قد تحتاج إليه.

- مستورة والحمد لله. الحاج قام بالواجب.

- قد أتأخر فى البلد.. وصيتك الست أمانة عندك.

- فى عيونى. فى هذه قبل تلك.وأشار إلى عينيه..

ابتسم السيد رغم حزنه. حمل حقيبته وخرج.

مر يومان لم يسمع الشيخ همسا. فى اليوم الثالث طرق بابها دون أن ترد.

- أنا خارج ماذا تريدين من السوق ياست؟

- لا شيء. شكرا لك.

● ● ●

حين عاد كانت يداه قابضتين على عدة لفائف وأكياس. طرق الباب طرقا خفيفا. عدة نقرات كمن يداعبُ دفًا

- من؟

- فؤاد

تقول من؟

- فؤاد.

- خذى هذه الأمانة.

- أى أمانة؟

- افتحى مدى يدك.

- ما كل هذا؟

- لحم وخضراوات وفواكه وعيش

- هذا كثير جدا.

- البيت واحد. والحاضر يسد مسد الغائب وحياة الحسين لا تكسفيني.

- مدد ياحسين.

مدت يدها ناولها الأكياس فى بطء شديد، تضرب يداه هنا أو هناك.

يعتذر فى كل مرة وهى لا ترد.

– سأعمل لك السلطة.

– والطبيخ؟

وحياتك والمحاشي. سأذاكر مع زملائى وأعود بعد صلاة العصر:

انتظرت طويلا.

● ● ●

– لماذا تأخر الشيخ؟ مر العصر والمغرب ولم يحضر....

بعد صلاة العشاء سمعت الباب يفتح انتفضت من؟

– فؤاد يا ست.

– شُغلت عليك.

فتحت بابها. أحس بحضنها دون أن تفعل.هم.لكنه تراجع. روائح غير معتادة. لين فى الحديث.. خضوع بالقول.

– أعوذ بالله من مرض القلب.

– غداك معد من قبل صلاة العصر. سآتيك به.

– ضعيه مكانه.

– هل أكلت فى الشارع؟

– لم أذق شيئا.

– وأنا كذلك.

إذاً نشجع بعضنا.

أزاحها قليلا.. اندفع داخل شقتها. أخذت بيده، جلسا حول (الطبلية) متقاربين. من وقت لآخر يحس طراوتها.

– تفضلى. البيت بيتك يا أختى ضحكا.

– يبدو أن طبيخى لا يعجب الست.

طال زمن الأكل. وهى لا تريد أن تترك ضيفها

- أعد لك الشاى؟

- تسلم يدك ياست. متشكرين على الأكل اللذيذ. هذه الأيدى الحلوة. لا يخرج منها إلا كل شيء حلو.

- كيف تكون الأيدى حلوة.

- اقرأ لك الكف.

تكرر الأكل والشرب. والفاكهة. وقراءة الكف

● ● ●

- لا تطبخى اليوم أنا وصّيت على سمك .

- لماذا التعب والمصاريف؟

- نحن أكثر من الأخوات. نحن جيران وحبايب.

- بارك الله فيك.

● ● ●

- سأعود اليوم بعد صلاة العشاء انتظريني. عازم نفسى عندك.

- إن شاء الله

عاد ومعه كيلو كباب وكفتة ونصف كيلو بسبوسة وكنافة. فتح باب البيت. ليس به سكان غيرهما. تشمّم روائح عطرها تخيلها عارية. هتف.

- مدد ياحسين.

● ● ●

- تأخرت كثيرا. وما هذه الرائحة؟

- إنها رائحة كباب الضأن المشوى على الفحم ،من عند العقر، أحسن كبابجى فى القطر. وبسبوسة بالقشطة للقشطة. وكنافة بالسمن البلدى. لصفائح الزبدة البلدى.

- ومن أين هذا؟

– من الكنفانى، فى الشارع القداماني. بعد الميدان الورانى قرب الحسينان.

– تمتمت لم أسمع عنهما من سيد. كنت أشم الروائح ولا أعرف ماهى.

استل من اللفافة أصبعا دفع به إلى فمها. قضمته، كادت تقول! أهذه هى الكفتة!!

– خذى هذه الريشة... وتلك.

– خذ أنت هذه من يدى.

عض يدها تأوهّت. واصل تقبيل الريش بصوت مسموع.

– الأبيض للأبيض. والسمين للسمين. واللذيذ للذيذ.

أمسك بيدها. فرد كفها. وضع أصبعا من الكفته. أطبق يدها

– والأحمر للأحمر

● ● ●

– علينا بالحلوى. هذه بسبوسه. كمنوسه. تذوب ذوبا فى فمك يانفوسه. هُمّ يا عروسه

– أختك بهيه.

– قطعه هنيه تكفى ميه. يا نديه. يا مريه. يا طريه يا بهيه.

دفع بقطعة إلى فمها.

– ما رأيك:

– ذابت كأنها قطعة سكر.

– خذ أنت

– التهم نصف أصابعها تأوهت. واصل المص

– زى العسل..

– عسل ولبن:

طازه ياحليب.

- كل ما يأتى منك ياعسل.
- قم اغسل يديك.
- لا أستطيع النهوض.
- سأساعدك.

طوق خصرها بيمينه. تعلو يده وتهبط مالت به احتضنها بكلتا يديه. استسلمت. تدافعا إلى غرفة النوم. تعانقا.. إرتميا.

هتف:

- والله زمانْ يا سلاحي.

خلّى السلاح صاحي.
ليلتنا صباّحى
حيّ على الفلاح.
حى على الصلاح.
اعْبُطها ياصاح.
اطفيء لَظى النَّباح.
النعجة اللقّاح.
الخروف النّطاح.
الديك الصبّاح.
خلى السلاح صاح.
ليلتنا صبّاح.
مدد ياحسين.
ياصاحب المِصْباح.
مدد ياحسين مدد.

-٧-

أغلقت بابها. لا حس . لا خبر.. جلست تلملم نفسها انخرطت فى البكاء.

- على أى شىء تبكين؟ على ما حصل أم على ما لم يحصل!! على ما

فات. أم على مـا هو آت.. حلم أم علم.. مـاذا تسمى ما كان السيد" يهببه" خمس دقـائق ويغشى عليـه. نطت زرزور ,ليتـه كـان زرزوراً. الزرزور يعلو ويهبط سبع مرات. والسيد: قبل أن يسخن الماعون ينكسر المغراف. قبل أن تومض الشرارة. تخرخر الخرخارة. العشاء يا بهية. الماء الساخن يا بهية.

ابن الكلب الجـرجـاوى. لا والله مـا هو ابن كلب." هذا ابن جـحش يد (هون) تطحن طحنا. تدق دقا.تدك . دكا. دكا. فى ليلة واحدة مـالم يستطعه سيد/ عاشت الأسماء، فى خمس سنوات.. الله يرحمك يا أمى. كنت تقولين كل الرجال واحـد. عشت محرومة. ومت محرومة. إن كان هناك نصيب فعلى روحك الطاهرة. ياأمى. صدقة جارية.

وأنت يابنت يا بهية. إسـمك على لسـانه سكر.. كأنى انطق به وأسـمـعه لأول مرة. أين كان ذلك مـختبئا؟؟... ما كل هذا الفجور؟ كل مـا كان يحكيه السيـد عن الحـريم فى السـينمـا لتـقلديهن. فـعلتُـه الليلة. ابن الكلب ينطّق الحجر.

اختفت تماما. لم يشأ أن يطرق بابها...

●●●

فى الليلة الثالثة قبل منتصف الليل أحست حركته.

– هو لا يزال مستيقظا ينتظر.

حاولت النوم. لم تستطع.

حركته تشتد.

– هو ينتظر.

فُتح البابان فى لحظة. تعانقا. تدافعا نحو شقته.

– لا أنام من شدة انشغالى على السيد.

– سيأتى قريبا إن شاء الله.

– لن يأتى قبل أسبوع هذه عاداتنا. لكن النوم...

- سأقرأ عليك سورة.

- تفضل.

- بعد العَشاء.

- لم أذق طعاما منذ الصباح.

- وأنا كذلك. عندى كبده ومخ وفاكهة.

- ابن اللئيمة. متأكد من مجيئى.

- خذى هذه.

مدّت يدها.

- سأطعمك بيدى.

- وأنا كذلك.

فرغا من طعامهما. قشّر اليوسفى. ناولها فصًّا.

- شكرا

- أصبع موز.

- سأطعَمك أنا

مد بوزه. أحست أنفاسه تعلو وتهبط. مدت بوزها. ملأ فمه. سدحها . هتف..

مدد..يا أى أحد...

-٨-

اختفت كعادتها. ظل ينتظر ثلاثة أيام.. همّ بطرق بابها.. أحجم .

- ستبادر كما فعلت من قبل.. المرأة شديدة الّشبق، شبق حبيبى يا شبق الورد، ولن تصبر فوق ثلاث.. ستعود فى أى وقت من ليل أو نهار.

صبيحة اليوم الرابع طرق الباب عدة طرقات... اندفع. فتح ذراعيه يحتضنها.. هم نحوها.

- صباح الخير يامولانا:

تجمد كلعبة انقطع التيار عنها.. ظل رافعا يديه. لم يكن من احتضان السيد به.

حمدا الله على سلامتك ياسيد. البقاء لله وحشتنا ياسيد. طالت غيبتك. شغلت عليك

ادخل ياسيد. الإفطار والشاى يارجل.

متشكرين يامولانا. الست تقول:

نعم الجار.سد مكانك وزيادة. سافر وأنت مطمئن.

نتعشى معا الليلة.

●●●

– سأتأخر قليلا.

انتظرا طويلا بعد العشاء.

– تأخر الشيخ يا بهية.

– عازب ومكسوف يدخل بيت فيه نسوان. عينه تزوغ هنا ولا هنا

– حرام عليك هو شايف.

صمت.

– متأسف يا بهية: أنا أتضاحك معك. تعالى نذهب للنوم.

أقبلت عليه دون رغبة. لكن لا بد من المجاملة.

انسحب. وهى لم تبدأ معركتها بعد

– الله يخرب بيتك ياجرجاوى نغصت على حياتي. كنت قانعة. لم أكن أعرف غير ما يفعله سيد. لكن كما يقولون من عاش طويلا شاف كثيرا. من ذاق عرف. يمكن الرجال تختلف من بلد لآخر. سيد الدمنهورى غير فؤاد الجرجاوي. هل كل البحاروة سيد؟ وكل الصعايدة فؤاد!!

-٩-

- كل الدكاترة يامولانا. والأولياء والمشايخ.. نذور وشموع. فلم يحدث شيء. معمول لنا عمل

- العمل عمل ربنا ياسيد. وسأتلو عليك قرآنا والله المستعان. وسيرزقك الله الذرية الصالحة كما دعاه الأنبياء. هل سمعت عن سيدنا إبراهيم؟

- أحسن ناس هو وولده سمعين.

- هل سمعت عن ولده الثاني؟

وهل كان له ولد آخر غير سمعين؟

- نعم اسمه إسحاق.

- لا أعرفه.

-أم إسحاق كانت عجوزا.

- وسمعين؟

- من زوجة أخرى. كانت شابه. الست العجوز غارت من أم إسماعيل. فدعا إبراهيم ربه. فحملت العجوز وولدت إسحاق.

فتح سيد فاه.

- عجوز تلد!!

- أتعرف سيدنا زكريا؟

- أنا أعرف الريس زكريا:

سيدنا زكريا تعجب كما تعجبت ياسيد.

- وهل رأيت ذلك بعينك ياشيخ أم حكاوى وحواديت؟؟

- هذا كلام الله ياسيد. كل ما أقوله لك فى القرآن ,وسأتلوه عليك إن شاء الله.

كان سيدنا زكريا شيخا كبيرا عجوزا ضعيفا شعره كله أبيض. بلغ من الكبر عتيا. وكانت امرأته عجوزا ,عاقراً أيضا ,فأعاد الله لها شبابها"

وأصلحنا له زوجه" وكلهم تعجبوا كما تعجبت واندهشوا كما اندهشت. كيف ينجب شيخ كبير وامرأة عجوز!!

قالت: "ياويلتى أألد وأنا عجوز. وهذا بعْلى شيخا إن هذا لشيء عجاب.."

- وأنت شاب

تحاشى الإشارة إليها.

- وزوجتى أصغر منى. وصحتها كما ترى يا مولانا. لا مؤاخذه.

- سأعلمك كل الدعاء وعلى الله قصد السبيل.

- وعلم بهية يا مولانا الدعاء.

- تمتم سأعلمها كل شىء... نظرى وعملى.

كثر سفر السيد بعد وفاة والده.

- الست أمانه يا مولانا: قد تطول غيبتى.

- فى عينى ياسيد وراءك رجل سداد.

- ربنا يقويك على أداء الواجب يا مولانا

- اطمئن سأمر عليها مثنى وثلاث وربا ع.

- كفاية مرة واحدة فى اليوم يا مولانا.

- وإذا طلبت أكثر؟

- لبى كل حاجاتها أريدها تنام شبعانة ومبسوطة. حتى لو احتاجت لبن العصفور

همس:

- آخر انبساط.. لبن الجحش إن شاء الله:

- خلف الباب كانت بهية تبتسم. أحست براحة الضمير. فتلك وصايا صاحب الأمر. واصل الشيخ همته ونشاطه.. وتفننه وفى كل ليلة يؤدى أداء مفارق.

قالت بهية. وكأنه يأكل آخر زاده.

-١٠-

- يبدو أن الله استجاب دعاء الرجل الصالح.
- من؟
- مولانا الشيخ فؤاد.
- قولى كلاما غير هذا!!
- تحقق المراد ياسيد.
- وكيف عرفت؟
- هذا شغل الحريم.
- نذهب إلى الطبيب.
- دارى على شمعتك كما يقولون.
- لا تقل لأحد.
- إن الشيخ من أكبر الأولياء الصالحين.
- هل هو نبي. قال يرزقك الله ياسيد فتحقق كلامه وكأنه كان يعلم ما فى بطنك. أنا أبوه لم أعرف إلا منك مكشوف عنه الحجاب
- تمتمت.والقميص. واللباس.و...

أدوخ كثيرا. اتقايأ.. تميل نفسى إلى الحلو والمالح ,والعنب والبطيخ. والجرجير وأحيانا البرسيم.

- الولد طالع لأبوه جحش.

بدأ البطن يعلو... لم يعد الخفاء ممكنا.

- صدقت ياسيد.
- الحمد لله. فضله واسع. بركة دعاء الرجل الطيب.
- تمتمت! دعاؤه فقط.

أنهى الشيخ دراسته وبهية حامل فى الطفل الثاني. مدد ياجرجاوى مدد.

●●●

الفصل الخامس

حَصاد السنين

١ عوْدة الغائب.
٢ عباس المنفَلوطي.
٣ أحمد العجوز.
٤ سيادة العَميد.

١- عوْدة الغائب

-١-

منذ كنُت طالبا فى المعهد الدينى اعتدت النوم مبكرا. إلا ليالى الستّ. كنا نستأجر مذياعا. كل مستمع يدفع عدة قروش. نشترى (لِبْشة) قصب بلدي. خد الجميل. ذراع القط. سادة ومخطط. قصب الرُحيْبات التى اشتُهرت بزراعة أجود أنواعه. كان(باللبشة) اثنا عشر عودا بخمسة قروش... أو كمية من اليوسفى. أما البلح والسوداني. فهما عماد سهرتنا..

بعد صلاة العشاء يتقاطر المشايخ. هكذا كنا نتنادى.. العوامرى والعجوز يشرفان على ليلة الست. كان العجوز تربا لنا. بيد أنه ولد كهلا..

كنا نمارس أنواعا من الألعاب. العوامرى يشجع ويهلل. ويصفق. أما العجوز فقد كان صديقا لكل الفرق، يصحبها حيث تحل، كما يجوب الموالد مع محمود الدرديرى. بلدياته.

أخذ عقد الجماعة ينفرط بعد اختفاء العوامرى والكتاتنى. لكن العادة لم تنقطع..

طرق الباب عدة مرات.. توالى الطرق. كان الطارق يعلم تماما أن صاحب الدار لا يغادر فى هذه الساعة. هتف فى قلق:

- من الطارق؟

جاءه صوت حبيب.

- وما أدراك ما الطارق؟

- أى ريح طيبة رمت بعجوزنا فى هذه الساعة؟

- إنه لنبأ لو تعلمون عظيم: أتيتك من سبأ بنبأ يقين.

- أهلا بهدهدنا العظيم.

- إنى وجدت العوامرى. وقد أوتى من كل شيء. وله دكان عظيم.

- بعد بضع سنين؟ كيف ومتى؟ وأين؟

– منذ ثلاث ساعات. فى ميدان العتبة. شبّهت عليه.. دُرت حوله. ألقيت السلام تحية ظلم.. توقف فجأة

– الصوت ليس غريبا. لكننى لم أسمعه منذ زمن. أيكون هو!!

منذ أيام الستّ يالكاعِ:

– هتف:

– الشيخ العَقور.

تعانقنا بحرارة.. ثم تعانقنا طويلا. لم ينس شيئا سألنى عن الزملاء. لولا أنه لم يكن وحدَه لأحضرته.

– كيف تركته؟؟

– أخذت عنوانه بالتفصيل..

–٢–

فى اليوم التالى مباشرة. عبر الشيخ يوسف الكيلانى طريق مهُمشا متجها إلى شارع الشرابية الكبير.. مع بداية الشارع قرأ قهوة المعلم طه العوامرى .. بابان كبيران عليهما لافته بعرضهما. سجل تجاري. تليفون. صورتان نمطيتات لمعلم.. بزى فتوات زمان. الشال واللاسة والجلباب البلدى والصديرى.. إحداهما بالشومة العجراء. يلوح بها فى الفضاء يحثوا تحت قدميه قطيع من الفتوات يدفعون الجزية... يتوسلون. طلبا للصفح والمغفرة. يشير بظهر يده. أن انهضوا.. اذهبوا فأنتم الطلقاء.. وفى الصورة الثانية يجلس المعلم الكبير على كرسى يمسح بيده اليسرى رأس يتيم.. باليمنَى توزع الهدايا والعطايا.

– أنت تتصدق كثيرا يا معلم.

– ليس ذلك صدقة. إنما هى حقوق تُرد إلى أصحابها حقوق اغتصبها لصوص ,قطاع طريق باسم الفتونة.. الفتونه حلم وعدل ورحمة.

هكذا قال: الفتوة الكبير.

أشار النادل إلى رجل يجلس خلف مكتب كبير.

– المعلم هناك.

عباءة فخمة. شال كشمير.. لاسة حرير. عمامة مقلْوظة قد لفت بعناية شديدة. سطحت إلى الخلف قليلا. إنساب من تحتها شعر كالحرير. تحتها وجه دقيق القسمات. شديد الاعتناء بنفسه. يستحم يوميا. يغير شال العمامة كل يوم. يلمع حذاءه مرتين فى اليوم. يحلق ذقنه كل صباح.

كان العجوز يداعبه على طريقة مدح النابغة للغساسنة.

حين قال فيهم:

ولا عيبَ فيهم غيَر أنّ سيوفهَم   بهن فُلولُ من قِراع الكَتائب

قال العجوز

ولا عيب فيكم غير أن هدومكم   بهن عطور من دِهان العوامر

فيرد العوامرى:

– ولا عيب فيكم غير أن جلودكم بهن قروح من قَرْص القَوامل.

تأمل الجالس على المكتب:

– إنه العوامرى...

– ولكن لماذا يجلس هنا؟

– جلسة معلم. جلسة مالك. وليست قعدة زبون. فلما كان قاب قوسين منه أو أدنى تأكد أنه هو دون سواه. لف يديه حول رقبته احتضنه بشدة هتف العوامرى.

– إنى لأجد ريح يوسف لَوْلا أن تفندون.

– هو ذاك يا أبتاه.

– الحمد لله الذى جاء بكم من البدو.

عاودا الاحتضان والتقبيِل. وقف الزبائن ينظرون جميعا. والست تشدو".

– عمر ضايع ما ينحسبش من عمرى.

استغرق السؤال والذكريات وقتا طويلا.

- اليوم الخميس وغدا الجمعة. ويوم سبتكم إذ تسبتون. وأنتم من سكان شبرا. والأحد عندكم إجازة.ويوم الاثنين عطلة الحلاقين. لن نسمح لك بالذهاب إلا إذا أتيتنى بأخ لك من الفول والنابت.

- هو فى البادية سيحضر الجمعة القادمة فى بادية كنعان يامولاى.

● ● ●

- ألقى السلام ثم قال:

- الغداء جاهز ياوالدى.

- الشيخ طه ابنى الكبير. أما بقية أخوته فهم يوسف الصديق. أحمد العجوز محمود أبوشنب الدرديرى.

اصطحب العوامرى ضيفه وشق طريقه إلى مسكنه.

- من معك ياشيخ.

- دا واحد صاحبنا.

- صحبتكم السلامة.

لم يتخل العوامرى عن قفشاته وطرائفه مذ عرفناه. إذا لم يجد من يحادثه. حكى لنفسه نكتة وطرائف وضحك فى وسط الشارع بصوت عال. قد يتذكر طرفة فيضحك فى أى مكان. يضع يديه على فمه ويخرج من الغزاء ليضحك ثم يعود.

- على من تضحك ياشيخ؟

- على روح المرحوم.

● ● ●

-٣-

بعد الغداء قال:

- سأقص عليك أحسن القصص. كل ما يدور فى ذهنك. تركت المعهد

كما تعلم بعد الابتدائية منذ عشر سنوات. فى بلد النار والنور. اتكويت بالنار ولم أر النور. سكنت فى رواق الصعايدة... سكنت فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم.

فى مقابر الخفير. حيث السكن المريح. والعيش الوفير. والنوم مع الحمير..ومضاجعة بائعات الفجل والجرجير. ولا جناح على ضرير .

– لا يزال السجع ديدنك. كنت مشروعا لأديب.

– فرك العوامرى جبهته.

– لكنه لم يكتمل.

قدر الله وما شاء فعل.

– كان الشيخ على موسى يلقبك طه حسين الجديد

دمعت عيناه.

– لكننى كنت معجبا بالمليجى فى فتوات الحسينية أنا المعلم. أول فتوة كفيف فى تاريخ الفتونة..

لقد غير العوامرى الكبير مفهوم الفتونة كما سأقص عليك.

– أتذكر يا عوامرى معركة الفتوات التى دارت بين فتوات الشق القبلى والشق البحرى ودامت شهورا ولم يوقفها إلا تدخل شيخ المعهد والأنبا كيرلس . بعد أن فشلت كل محاولات الحكومة والعمد والأعيان.

جمع الشيخان كل المعممين من طلاب المعهد وشيوخه ,والوعاظ وأئمة المساجد ,ورجال الكنائس من جرجا وبرديس والبلينا. وساروا فى موكب مهيب. سد كل الشوارع والميادين وأقسموا أنهم لن ببرحوا أماكنهم إلا إذا جاء كبار فتوات الفريقين..واعتذروا للناس جميعا. للبلد كلها. التى عطلوا مصالحها. فلم يدخلها أحد أو يخرج منها أحد عدة شهور.

جاءت الأطراف المتخاصمة ولم يحمل واحد منهم شيئا فى يده. وقف الشيخ يشرح معنى الفتوة .فقال " الفتوة": الشجاعة والكرم. والمروءة

والنجدة ,والصبر والوفاء وضبط النفس وتحمل الأعباء ومساعدة الضعفاء. والبعد عن الفحشاء والمنكر ,والظلم والبغى ,وأخذ يورد من حكم والمواعظ والآيات والأحاديث ومواقف السابقين من أهل هذه البلدة التى وصفها بالطيب أهلها. وذكرٌ الفتوات بما كان عليه أجدادهم من الحب والود والتسامح.

وقف الأنبا كيرلس يستعرض آيات الرحمة والحب والتسامح ويقتبس من أحاديث النبى ومواقفه ما كان يخفى على بعض شيوخنا. خطف الألباب فهتفت ياعوامرى:

– عاش الوالد.. عاش الشيخ الجليل ثم أنشد أبياتا من الشعر القديم ... أتذكرها ياشيخ؟

وقف العوامرى مقلداً الأنبا.

– إذا القومُ قالوا من فتًى خلْتُ أننى .·. عُنُيت فلم أكْسلْ ولم أتبَلَّد
ولستُ بحَلاَّل التّلاعِ مَخافةً .·. ولكن متى يسْتَرْفد القومُ أرْفد
– لسان الفتَى نصْف ونصف فؤادُه فلم يبَق إلاَ صورةُ اللحَم والدمِ
وإنَّ سفاه الشيخ لا حلْمَ بعده .·. وإن الفتَى بعد السّفاهةِ يحلم

● ● ●

ثم وقف ممثل الطلبة مذكرا بمَّا جّرته نزاعات سابقة من خراب ودمار, وتوجّه إلى الشيخين قائلا:

يمينا لنعم السيدان وجْدتما .·. على كُل حالٍ من سحِيل ومُبْرمِ
ضجت الشوارع بالتصفيق والعناق.

● ● ●

–٤–

فى المقابر تعرفت على قارئة، زّوجتنى ابنتها. وأخوك طماطمى.. وديل الكلب عمره ما يتعدل.

- أنت صاحب القول المأثور:
عليكم بالغلمان فإنهم لا يحيضون، ولا يبيضون، ولا يطلبون نفقة. وأنت القائل أيضا:
اثنا عشرة وخالي من الشعر. ولم يمسسه بشر.
- كل كلام في هذا الموضوع تنسبونه إلى العوامري كنت جحا المعهد.
- ونواسيه أيضا.
- اشتقت إلى أيام الصبا والشقاوة. فكنت آتي البيوت من ظهورها. ألم ندرس الظهار في الأزهر؟ من أين جاءت التسمية؟ سألت شيوخ الفقه فلم يجبني أحد. كل شيء عندهم أمر تعبدي. أنا لا أقبل حكما ولا قولا دون أن أعرف الأسباب والعلل.
- لذلك لم تكن على علاقة طيبة بالمشايخ.
- من أجل ذلك تركت المعهد.
اكتشفت الحيزبون: أمها الأمر، فملأت الدنيا ضجيجا.. أصرت على الطلاق. نفيت التهمة عني.
في المحكمة كانت الجلسة سرية.
- ما رأيك فيما نسب إليك ياشيخ؟
- يا حضرة القاضي أنا رجل . كما ترى عاجز النظر.. أسلمها الأمانة. ولا أدري أي موضع تضعها. فما ذنبي إذا لم تؤد الأمانة إلى أهلها. وتضعها حيث أمرها الله. ابتسم القاضي. وحكم بالطلاق.
انتشر الخبر. لم يعد لي مقام بين الناس.. تسللت خائفا أترقب. غادرت الدراسة كلها. لا أعلم أي وجهة أنا موليها. تذكرت أن لي بعض البلديات في الشرابية. كنت زرتهم في أيامي الأولى، ثم انقطعتْ أخباري.

-٥-

- كل الـفط عوامري. وكأنكم في العوامر لا في الشرابية.

– يقال إن أول عوامرى نزل مصر. كان شرابا الأول.. ولهم فى ذلك حكايات.

– عمل كناسًا، فى المحطة.

– بين السكة والحقول أرض حِكْر، تسكنها الهوام والحشرات. والكلاب الضالة. جمع الرجل أكواما من التراب. خط حفرة تستره. اتخذها مأوًا له

– فى الكناسة بقايا طعام وقشر بطيخ أو برتقال أو مصاصات قصب. أعقاب سجاير، عثر مرة على قرش صحيح. كان أول قرش يدخل جيبه. نتع على كتفيه قفف الراكبين والنازلين.. أوصلها إلى شبرا وبولاق والدراسة.

احتضن أول رغيف قمح تملّكه فى حياته.. نام وقد وضعه فى عبّه. استيقظ مذعورا.. تحسس جسده ألقى بخرقه. سلقط. ملقط. يد شيطانٍ امتدت إليه.. بقايا فتات. جمعها. سفها. جمع شرابى قروشا. اشترى علبة ورنيش.. زجاجة صبغ. قطعة قماش وضع ذلك فى جيبه. لم مراكيب.. شباشب . بلغا. كان يبتعد عن أصحاب الأحذية الجديدة.

من بقايا أخشاب وحطب وأسياخ وأنصاص قوالب. أقام (دِرْوَة) تقيه البرد. استصلح أمتارًا. سقاها بجردل من حنفية المحطة. من وقت لآخر استصلح أمتارًا.. حفر بئرا. زرع زرعا.. عبر الميدان بحزم الجرجير والكرات والفجل.

على ناصية الفجالة سمعها تنادي!

– فجل الفجالة يا ورْوِر.

– بكم الحزمة؟

– بمليم:

– حزمتان بمليم.

– أنا أشترى ثلاث حزم بمليمين.

– أنا أعطيك أربع حزم بمليمين.

- أين؟
- بعد السكة مباشرة.
سارت وراءه. رأت الخضراوات تهفهف.
- خذى ما تشائين.
جمعت ما جمعت. غسلته..رصته.. ربطته حزما.
- لا أستطيع أن آخذ كل ذلك.
- أحمله عنك إلى السوق.
- ليس معى ثمنه الآن.
- ادفعى ما معك ثم عودى إلى بعد أن تبيعى
ساعدها فى حمل القفة.

●●●

لم تتخل عن نشاطها يوما. نادت.
- يا رجل. يا صاحب الزرع.
- لم يرد نظرت فى الجحر. سمعته يزوم. لم يستطع النهوض من شدة الإعياء. أوقدت حطبا قربت إليه جزوة من النار عله يصطلي. شعر بالدفء.. اعتدل. وضعت صفيحة الماء على الكانون. غسل وجهه ويديه. فردت منديلها. رغيفان وقطعة من الجبن. أطعمته وطعمت. أسقته كوبا من الشاي.. لاحظت أن الزرع لم يشرب من عدة أيام. عقدت طرف ثوبها على وسطها ونتعت المياه نتْعا.. جمعت تمويلها وانصرفت.
داومت عدة أيام. بدأ يتمائل للشفاء. اختطفت الفأس. استأذنته عزقت وأصلحت ,وحوّضت وبذرت.
- تسلم يا سبع.
- أنا بنت
- أنت بعشرة رجال.

دون تردد تتزوجيني.

- تتزوج عشرة رجال؟

- على بركة الله.

امتلأ البيت بطا وأوزا وكتاكيت وأرانب وأطفالا وأحفادًا.. كان أصغرهم الشرابى الثالث عشر قلب الأسد. تزوجوا جميعا فى سن الخامسة عشر. نمت قبيلة الشرابية نمو الخضراوات. نافست الأرانب فى القفز والنط.. والإنجاب. اتسعت مزارعهم ومنازلهم. قصدهم كثير من الناس للبيع والشراء

- من أين قادم؟

- من الشرابية.

- إلى أين ذاهب؟

إلى الشرابية.

هكذا نشأت القرية التى تراها شبه مدينة الآن.بيد أن بقايا أحفادهم لا تزال تعيش فى بلدنا.ومنهم شْرابة. جدتى لأمى.

يخجل بعض كبارهم من هذا النسب وهذا التاريخ. وبخاصة من نال منهم قسطا من الجهل. أعنى قسطا مما يسمونه تعليما، ويدعون أن جدهم قرشى جاء مع حملة عمرو بن العاص. كان قائدا لخيل المسلمين. وهو الفاتح الحقيقى. وقد نُسب الفتح إلى غيره زورا. وهو أول من أدخل زراعة البرسيم والفول. زرع كل هذه البقاع لخيله. ومن ثم فهمْ يّدعون أحقيتهم فى هذه الأراضى من السكة الحديد إلى قليوب.

ومنهم من يزعم أنهم أتراك جاءوا مع السلطان سليم الأول. ومنهم شيخ الزاوية الذى لا يزال يحلم بالخلافة، ويدعو للسلطان وعساكره.

تزوّج شرابية بنت شرابى باشا الأرناؤوطي. مالك هذه الأرض، ولم يكن له وارث غيرها.

- كان كلاّفا عندهم يرعى الغنم. ويقصّ الحمير.

- كان قاطعَ طريق، قاتلا مأجورا.

لا يزال الخيال يتسع وملحمة الشرابية تنمو.

- حكايات التاريخ عجيبة.

- لا أحد يعرف أين الحقيقة!!

- فى مصر لا أحد يعرف. يقينا من جده!!

وربما أباه.

● ● ●

-٦-

- قصدت قهوة المعلم طه العوامرى. رحب بى زائرا فلما جن الليل. دعانى لبيته. لبيت دعوة الداعى.

توالت الأيام أذهب خماصا وأعود بطانا. أبقى بالقرب من باب القهوة باسطا ذراعى بالوصيد.. أقلب نفسى، مع الشمس، ذات الشمال وذات اليمين. لم يسألنى عن شىء. وليس عندى ما أقوله سوى الصمت... طال الصمت.. أدرك الرجل أن ضيفه بلّط". بدأ يكلفنى بعض الأعمال.

فى كل مساء بعد العشاء.

- اقرأ ياسين ياشيخ وادع لنا.

- ليلة الجمعة مفترجة.

- ادع ربنا يستر أختك بدرية. يرزقها بابن الحلال.

دعوت لم أسأل من بدرية. ولا من ابن الحلال. تمتمت وابن الحرام كفر.. صحيح أولاد الحلال لم يتركوا لأولاد الحرام شيئا.

- أريد أن أطمئن عليها. ابنتى الوحيدة. ليس لها أحد من بعدى

- ليس أى رجل يصلح لمصاهرة المعلم

– ليس لى أى شــروط يكفى أن يكون ابن حــلال حــتى لو كــان . لا مؤاخذه. عاجزا.

– عاجز يامعلم!!

– الخير كثير ياولدى.

– حتى لو كان أعمى يا معلم!!

– حتى لو كان أعمى يا ولدى

– الفاتحة يا معلم. قبل أن ينطق قلت: آمين

فتحت الدنيا ذراعيها ورجليها... احتضنتنى بكل قوة وحنان. كان عرسا تتحدث الشرابية عنه حتى اليوم. قبل أن يمر عام رزقنا الله طه الصغير. سعد المعلم به أيما سعادة... قبل وفاته شهد مولد يوسف الصديق وأحمد العجوز. ومحمود أبو شنب.

لم يكن للمعلم من وارث غير ابنته وأحفاده.. كتب لهم كل شيء. سجل القهوة باسمى. أودع ذلك فى مكتب المحامي.

دربنى على إدارة القهوة والمطعم والبيع والشراء ومحاسبة العمال. عُرضت القهوة المجاوره للبيع اشتريتها. المال عزوة.

قال يوسف.

ذى المعالى فلْيعلُونْ من تعالى

هكذا هكذا وإلا فلالا

رحم الله المتنبى.

قال العوامرى

المعرى أجدع منه. وأبو نواس أجدع منهما.

– حنيت يارجل.

– توبة.

دام الود ولم ينقطع..



٢- عباس المنْفلوطى

-١-

من باب الشقة انبعثت. دقات طبّال محترف... بيد أنه ضل طريقه.

– ولكن ما الذى أتى به بعد غياب طويل؟ أمر جلل

– قبل أن يصل إلى الباب سمعه يدندن:

– يا رّمان يا منفلوطي.. يا رمان...

– اللهم: اجعله خيرا. أنت كا لإسعاف.

– خير يا ابن خالتى.

توالى النّقر.

– يموت الزمار.

– الزمار لم يمت.

– ألم ينهك والدك. ونقلك إلى مدرسة جرجا ليبعدك عن الزمارين والطبالين؟

– مكره أخوك.

– أنت رسام وفنان.

– لم يكن أمامى إلا رسم الأشجار فى الأرمان.. والأبقار فى حديقة الحيوان. لكنها لم تجد مشتريا.

– عليك برسم الإنسان.

رسمت كل عواجيز الجيزة وباعتها. ولم يتغير الحال.ملأت المسجد رسوما ونقوشا. تهاويل وتصاوير.. آيات وأحاديث. أين أتعابى يا مولانا؟

– احتسب يافتي. كله فى ميزان حسناتك.. هذا المسجد بنى بتبرعات المحسنين أمثالك.

وضع يده على كتفى وأخذ يتلو ويرتل. طار الجنيه الوحيد من جيبى واندس فى جيب مولانا.

فى حفل الكلية لمحت طبلة جذبنى الشوق. ارتعشت أصابعي. نقرت نقرا خفيفا. حملنى الزملاء.. القوا بى على المسرح. ظللت أنقر فى الناقور حتى زقزق العصفور.

• • •

فى عرس أخته وشابى هجمت على. سحبتنى

– تحية لإخوانك.. كمان تحية للعروسة.. وأنا وأنت.

– هزت دقاتى السرادق كله.. رقص عليها كل فتوات الحى. طاردتنى فى كل مكان لأعمل معها فلم أستجب.

– كل رسوماتك وخطوطك: أشعار. أحاديث آيات ,حكم مواعظ شيوخ قساوسة. ولا صورة عبد الناصر نفسه تؤكل عيشا. عليك برسم النسوان يا ولدى.

– كيف؟ وأين؟ ومن؟

– فى شقتك وسأمدك بما تحتاج من النسوان.

– شقة فى بين السريات إيجارها ستة جنيهات وخلو ثلاثون جنيها. تحايلت لأقابل الراقصة تجاهلتنى ذكرتها. تظاهرت بالنسيان فى نهاية السهرة

– كيف حال فضيلتكم؟؟

– يتمنى الرضا.. يقبّل الأيادى.

– اركب

– كان اللقاء الأول فى بيتها. طبالا ورساما. رسمتها كما تريد. طبلت كما تريد. كانت إنسانة

– افتح مرسمك ياعباس.. أنت رسام وليس طبالا. أحرص على مستقبلك يا ولدى

– من الطبلة فتحت المرسم ولا أزال أنفق عليه منها. الفن للفن. الفن فى خدمة الفن . رقاصة على خلق. الرقص فى خدمة العلم والخلق. والصلاة والصيام. اللحى والجلاليب. الطرح والملاءات ليست دلائل أخلاق. كل العرايا. دخلن المرسم منتقبات. لا تطلب خلقا من جائعة.

– جئت لأدعوك لافتتاح أول معرض لى . أريدك معى من الآن. خالتك أم عباس، وعمك الحاج ومن معهم سيحضرون. احتاج لعدد من الرجال: الأهل والزملاء.

لا تنس دعوة شلة جرجا.

● ● ●

-٢-

فى كلية الفنون كان اللقاء الأول.. جلسا متجاورْين.. تبادلا التحية. حديث مقتضب لكنه تكرر.. فى الريفى خجل فطرى من المدنى خشية استعلاء الآخر. وفى القاهرى إحساس بالتمدن وإن نشأ فى بير المش. أو تربى فى الترجمان. فى كل يوم يزيد الحديث جملة.. جملتين. والصعيدى يهز رأسه مجاملا.. ظنه الآخر إعجابا.

لم ينس الفتى موكب المشيعين من قريته إلى محطة القطار.. خيل وبغال وحمير وجمال.. أتوا من كل فج قريب أو بعيد

قبل وصول القطار بساعتين رقصت خيل.. تسابقت هجن. نهقت حمير. دقت طبول ارتفعت مزامير. اصطكت نبابيت.دوت أعيرة. علا هتاف ,انهال نقوط:

– كان عباس أول شاب يدخل الجامعة من قريته. فاخروا به ادعوا قرابة قريبة صهرا ونسبا. كان معه فى السنة الأولى مبلغ مكنه من شراء حذاء جديد من محلات (كايزك) حبيب الملاين، وقميصين وبلوفر من بيع المصنوعات. جلّ الطلاب فى ذلك الوقت يملك قميصا واحدا.

نزل عباس عند أحد أقاربه الذى يعمل فى مصانع ياسين فى الشرقاوية. قرية نائية فى ذلك الوقت. يستيقظ مبكرا عله يجد موطئ قدم فى سيارة قادمة من الأرياف تحمل أناسا.. خضارا.. ماشية برسيما.. المهم أن تنقله إلى المظلات، أو أى مكان آخر. لم يتمكن من الانتظام فى الدراسة ,كما أن سكن قريبه صغير جدا. بنتان وولد فى حجرة. طفلان مع أمهما وأبيهما.

– عباس أخوكم يا بنات. سينام مع محمد وأنتن على سريركن. تغطين جيدا.

كانت البنات فى سن الزواج. خرطهن الخراط. اكتملت استدارتهن. فارت أعضاؤهن . ليس فى وسع أى ملابس أو أغطية أو ألحفة أن تخفى ماظهر منهن ولا ما بطن. والمراهقة تديم النظر فى مواطن أنوثتها ,ولفت الأنظار إليها.. لم يطق الفتى على ذلك صبرا.

فى شقتنا مكان لزميل. الإيجار والمصاريف مائة وعشرين قرشا. قريب من هنا..

– هل ضايقك أحد يا ولدي. الجميع فى خدمتك.

– ليس هنا مضايقة. لكن المواصلات يا عم الحاج. وسأزوركم كل أسبوع.

داوم على الزيارة. ثم تخفف..

اقتصر على الأعياد.. ثم انقطع.

● ● ●

سارا معا..

– إلى أين يا عباس؟

– أنا أسكن قريبا من الكلية.

– وأنا ذاهب إلى حلوان.

– أين هذه؟

- أخر المترو.
- عند السينما.
- المترو. القطار الذى يصل إلى حلوان.
- أين أهلك يا عباس؟
- فى منفلوط. تسمع عنها.
- اسمع البائع يقول يا رمان يا منفلوطى
- هذه هي. وكمان بلد مصطفى لطفى المنفلوطى وعباس المنفلوطي.
- إن شاء الله. يوم الخميس سآخذك معي. سلام.

-٣-

كان الخميس الأول من كل شهر موعد الزوادة القادمة من البلد. وكان عباس قد أوصَى بمضاعفة الكمية.

عاد من الكلية.. انتظر طويلا لم يصل أحد.

- الحمد لله لم أعد مصطفى ولم أحدد موعدا ,عليك بالبيض وتقوى الله. والحج إلى مولانا جرجس البقال... رابطة البلديات أقوى من الصداقة والزمالة. ولكن ماذا حدث؟ غدا سأذهب إلى وكالة المنفلوطى للسؤال عن السبب:

● ● ●

عدة خبطات.

- الحمد لله وصل. تأخرت طويلا يا ابن العم:
- فتح الباب. صينية فى صدره
- احمل عني:

كادت الصينية تسقط.. دفعته بحركة أنثوية أقفلت الباب.. ارتمت على كرسي.. تظاهرت بالإرهاق والإعياء. كشفت الغطاء. حمام .. محشي.. أرز.سلطات. عصير.

– ما كل هذا؟ ولماذا هذه التكاليف؟

– لم أتكلف شيئا غير الطهي.

– يا سبحان الله!! الحمام بلدى كأنه حمام أم عباس؟

– هو هو وحياتك حمام أمك:

– كيف؟

– اجلس وسأحكى لك.. فى العاشرة سمعت دقا على باب شقتك. توالى الدق واشتد

– صحتينى من النوم يا رجل.

– نوم العوافى ياست هانم.

– خذى هذه الأمانة.. سليمها للأستاذ. فيه لحم وطيور. لها مدة. ضعيها فى الثلاجة .

– لم ينتظر. وضعها وهبط مسرعا. فتحت السّبت. لا مؤاخذة. كما وصانى. وضعت اللحم والطير فى الثلاجة. ثم قلت لنفسى يا بنت يا... الجدع عازب .. وحدانى. وسيعود جوعانا.. اعملى له لقمة.. سلقت أربع حمامات. حمرتهم.. وكان عندى ورق عنب. وباقى الطيور فى الثلاجة سأحضرهم الآن

– والله ما فى حاجة راجعة عيب.

– خذى غداك.

– لا يصح.

– طباخ السم يذوقه.

– يذوقه لا بأس. لكن لا يأخذه. نقل الطعام عيب.

● ● ●

كانت تلبس عباءة فضفاضة ذات أكمام طويلة واسعة تبلعط فيها كالسمكة. على رأسها شال من الحرير. أخرت الشال قليلا. تركته ينساب..لا

مس الأرض.. سقط.. تماوج الشعر كقطع الليل. مدت يدها تعثرت فى كمها. تظاهرت بالارتباك.

- لم أتعود الأكل با العباءة.

- خذى راحتك.. البيت بيتك.

ترددت. رفعت طرف العباءة ارتفع معها قميصها كشف عن ساقيها. تظاهرت بالهلع والخجل على حافة الكرسى جلست. أمسك حمامة مد يده.

- لا تشعرنى أننى ضيفة.

- استغفر الله. أنا ضيفك.

- الست هى التى تؤكل رجلها. يقطعنى الرجل.. خذ هذه.

- الست أكثر حنية.

- هى أم وزوجة

- وحبيبة أيضا.. هذا حمام أمي. لكن الطعم مختلف.. أكلك لذيذ جدا. لم أذق مثله من قبل. سلمت الأيادى.

امتداح طعام المرأة أول درجات الغزل.

- هذا من ذوقك يا سى عباس.

- قال عباس نحبس بالشاى.

- سأصنع لك شايا لم تذقه من قبل.

قامت. الشعر الفاحم يتماوج. والجسد المكور يتهادى، والصدر الممتلئ الدسم يصرخ خبط على جبهته وهتف:

- ملعون أبوك يا عباس.



-٤-

- سأعتذر لمصطفى بأى حجة. جاءنى ضيف من البلد.. كنت مرهقا. لا أستطيع أن أدخل عليهم خالى الوفاض. فارغ اليد فى أول زيارة. لم نعتد ذلك.

- لا تدخل على أحد تطوّح يديك. يد أمام ويد وراء... هداياك تكسبك وجاهة ومهابة وحبا واحتراما.. من كثرت هداياه. نال ما تمناه.. من ثقل جيبه. خف على الناس دمه.

- أهلا يا رجل يا هراب.

- التمس لأخيك عذرا.. الأيام قادمة

- لا أيام ولا ليالى. ستصحبنى اليوم

تأبطه دفع به.

- محطة باب اللوق ياريس .

تأمل عباس عربات المترو. قرأ اللافتات.

- كل هذا مصر!!

● ● ●

قالت إحداهما:

- مصطفى يا ماما. ومعه ضيف.

- أهلا وسهلا.

- الست الوالدة. فوقية ثانوية عامة.. صفية ثانية ثانوى. مصطفى فنون. عباس شرحه.

- حضرى الأكل يا فوقية. ساعدى أختك ياصفية

- مصطفيى:

شدى حيلك يا فيفى. همتك يا صافى .

● ● ●

على استحياء جلس على طرف المائدة. لم يعتد مؤاكلة النساء. حتى أمه كانت تأكل مع الحريم. الملبس لا يزال محتشما. وإن كانت الجيبات فوق الركبة.

- أكمل طعامك. ستتعود على طعامنا إن شاء الله

– طعامكم لذيذ جدا

– البنات يقمن بكل شيء. جميع الأنواع والأصناف. حتى الحلويات. عرض بضاعة مبكرا جدا.

طعموا.. شربوا.. أطلعه مصطفى على تاريخه الفنى هم بالانصراف

– آخر قطار تحرك منذ نصف ساعة. وليس هناك من وسيلة الآن. بدل ملا بسك . والصباح رباح.

● ● ●

– فى التاسعة سمع طرقا خفيفا.

– الإفطار جاهز.

تحركت الحريم بقمصان النوم: قصيرة فضفاضة مقوره. فتحة الصدر واسعة. الأثداء ممتلئة الأوزان متفاوتة.

يميل جسم فوقية إلى البدانة. وجسد صفية إلى الرشاقة. البشرة شديدة البياض. بقايا أتراك كما يزعمون. يغالب عباس النظر فيغلبه.

فى القطار ألقى رأسه على المسند. راح يسترجع المشاهد. بياض وحمار. أفخاذ. وسوق.. أرداف.. أثداء.. شعور نحور. سينما فى بيت مصطفى. وقع نظره على فلاحات فى حقول المعصرة. أزوّر. أدار وجهه

– البنتان كانتا ترمقانه. حتى الأم كانت تسترق النظرة... تختلس النظرتين.

● ● ●

-٥-

عصر الأربعاء. على بسطة السلم. همست:

– أين تسهر غدا؟

– فى البيت.

– وحفلة الستّ؟

- على القهوة.
- الراديو موجود. والتلفزيون.

تمايلت:

- أنا فى انتظارك.

● ● ●

فى التاسعة قبل أن تبدأ الست طرقت بابه

- جاهز يا أستاذ؟ لماذا هذا اللبس الرسمى!! البيت بيتك.

بعد ربع ساعة دخل عليها. جلباب فضفاض.

تمايلت.. صفقت.

النبى عربي.ساعدنى فى إعداد المائدة.

رصت الأطبـاق والصـوانى والطواجن والملاعق والشـوك والسكاكين. والفواكه. والمشروبات والتسالي.. لُفّت السجائر. أوقد الباخور.

- عفَر يا عبس:
- لم أدخن قبل ذلك.
- لزوم الست يا عبس.

أشعلت سيجارتين. دفعت بواحدة بين شفتيه

- نظرة ياست. بل ريقك يا رجل. عصير تفاح فرنساوى فاتح للشهية. مزمز بالكبده.

بدأ تناول الطعام تتخلله شفطات وأنفاس.

- جرب الغاب يا عبس. شد واكتم.

شد نفسا طويلا طقطق الجمر حتى اشتعل. مع أنغام مقدمة (أنت عمرى). التى تذاع لأول مرة. تمايل عباس.. رقص على دقات جيتار خورشيد. وناى عفت. وعود القصبجي. رائعة عبد الوهاب.

استلت من عباءتها.. كأنك قشرت برتقالة. بدلة رقص لم ير الرجل مثلها.تمايلت حركت كل عضلة. تصلب الجسد إلا ثدييها راحا يتناويان الرقص والعزف المنفرد. وضعت يديها على خصرها حركت ما تحت الخصر كل في طريق. حركة لم تصنعها إلا تحية كما وصفها إدوارد سعيد. انسلخ عباس من جلبابه كأنه رمح استل من جرابه. عود من الزان نُقِطع حتى ارتوى. جذبته دارت به. جردها من المحيط ومن المخيط. ألقى بها على السرير.. هتف:

– حَمار وحلاوة. يا منفلوطي.

ردت:

– حِمار وشقاوة يا صعيدى.

استرخت فى البانيو. استسلمت لرغاوى الصابون المعطر.. الشانبو والماء الدافئ. تعطرت تزينت.. تجملت خرجت فى تمام زينتها. تقطر عطرا ومسكا وشبقا. تمايلت وهى تدندن :

– خدنى لحنانك خدني..قريب قريب أنا وأنت لوحدينا.

حملها بين ذراعيه.شدها برفق وهو يقول:

– يا هادى. كسبنا صلاة النبي.

أدركت قلة خبرته. ساعدته وهو يحاول أن يؤكد فحولته. ساعد الكيف والوسكى على الجرأة والتجاوز والفجور... طفح الماعون كبلاعة ملئت صابونا. حاول أن يتزحزح. قبضت عليه منعته من الحركة ريثما يستعيد نشاطه. مع نهاية الوصلة الثانية استلقى على ظهره.. انبطحت على بطنها وراحا فى نوم عميق.. قبيل العصر تحسسها.. جلد بها السرير جلدا.

– يخرب بيت أبوك يا ابن الكلب..

– الوصلة الرابعة.

●●●

بعد ساعة سمعها تتمتم

– ربنا ولك الحمد اللهم دمها نعمة واحفظها من الزوال.

فرغت من صلاتها. مد يده مسلما.

لفت يدها فى طرحتها

– لا مؤاخذة ياسى الأستاذ أنا متوضية .

-٦-

كانوا يسكنون بيتا قديما فى أطراف حلوان. الباب موارب دائما.

طرق الباب.

– ادخل يا عباس.

كانت الأم جالسة تنقى الأرز. والكبرى عاكفة على تخريط الملوخية. الطبلية بين فخديها البيضاوين الممتلئتين، انحسر عنها الجلباب الصيفي. اعتاد عباس على مثل ذلك.

– حماتى تحبنى.

– يعلم الله ياولدى.

تشققت الحواجز. تكسرت الموانع. أصبح عباس أقرب إلى البنات من شقيقهما. اعتاد الجلوس معهما أو إحداهما. يقص حياة الريف. كان ذا خيال واسع. وحديث جذاب. يتلاعب بعناصر التشويق كيف شاء.

– كيف تعيش وحدك؟ من يقوم على شئون بيتك؟

– لدى خدم وحشم. أجلس فى شرفة قصرى الفاخر المطل على خرابة الست عيوشة ,بإشارة واحدة ترسل طبق الفول بالزيت الحار ومعه رغيفان. بصلتان مد شوشتان على الطريقة الشرعية. أما الغداء ففى الكلية. وفى العشاء طبق الكشرى بالدقة والتقلية من عمى حسن بتاع العربية.

– زميلتى تسكن بجوار المرور فى بيت من دورين.

– أسكن بعده ببيتين فى الدور الخامس. شقتى على اليمين.

● ● ●

صبيحة يوم ما طرقات خفيفة.

– سعدية التى اختفت منذ ليلة الست.

فتح الباب اندفعت صفية. كادت تسقط تلقاها بين ذراعيه.

– مررت على صديقتى فلم أجدها فقلت أسأل على أبيه عباس الذى لم نره هذا الأسبوع

ظلت واقفة تحتضن حقيبتها.

– اجلسي.

– دخل يبدل ثيابه. فلما عاد لم يعثر لها على أثر. فى أول زيارة همس فى أذنها

– يا هرابة.

– هرابة!!

– وكمان خوافة

دعوة صريحة لتكرار الزيارة

كانت الفتاة بيضاء ممتلئة قليلا. عينان زرقاوان ثديان نافران ممتلآن . أما الرجلان فكما الجمار. أقماع سكر. قوالب زبدة.

– جاتك ألف نيله فى أهلك يا عباس. قل آمين. ستُجاب دعوة الداعى.

–٧–

صبحية اليوم التالى اندفعت كالسهم. بدون تكليف مدت يدها اقتربت.. قبلت خده

وإذا حييتم بتحية. قبل وجنتيها.. هتف:

– اكسبنا صلاة النبى.

جلست تحدق فى عينيه. فى شفتيه. وجنتيه. تتأمل شاربه الدقيق.

كانت وسامة عباس لا تقاوم.

– كل شيء يقول :أنا رجلك.

من شرفته" دلدل" السبت تطوح.. حط على رأس المعلم قدرة.

– بقرش فول من أول القدرة. يا معلم. أربعة مفقّع.

سأعد الإفطار: فول مُفولّ، وبيض محمر. يطشطش يشكشك. يبقبق فى السمن البلدى. صنع يدى .

– اجلس، واترك ذلك لى.

– هل تحسنين صنع شىء؟

– كل شىء. أنا عمرى سبعة عشر ربيعا.

– صغيرة على الحب. كنت أظنك أكبر من ذلك.

نهضت. استدارت.

– كيف وجدتني؟

– ست الستات. كاملة المواصفات. لا تجيد غير صنع السلطات. وبيضات مسلوقات

– سأريك اليوم أصنافًا من المأكولات انزل هات.

● ● ●

فرغت من عملها. دخلت الحمام. حلت ضفائرها..مشطت شعرها. طرقت باب حجرته

– تقضل يا سى السيد:

– حاضر يا أمينة يا حلوة. يالذيذة.

استطعم الطعام. رشف رشفة..استنشق البخار.

الله.. الله. تسلم إيدك يا صافى وشعرك الضافى. وجسمك الوافى وبقك الشافى وعباسك الحافي.

حين دخلت عليه بالشاى تظاهر بالنوم. هم بالقيام. اعتدل. جلست على حافة السرير.

- شعرك جميل.

- شعرى فقط؟

نهضت. دارت دورتين . تحسست جسدها. ملست على صدرها.

- صدر مارلين مورنو. ظهر. برلنتى عبد السميع.

- الوقت لا يزال مبكرا.

جذبها تمددت بجواره. تحسسها استسلمت... تجاوبت. صرخت. هرعت إلى الحمام. عاودها الحنين ... عادت.

- أكمل يا عباس.

- خطر عليك.

- حتى لو كان آخر يوم فى عمري.

- حاولت.. نهرها. أصرت. لطمها.. احتضنته وانخرطت فى البكاء.

دام الود.. تواصلت الزيارات فى حلوان... بين السريات. دارت أيام.. توطدت علاقات.

●●●

-٨-

- أنتم تعرفونى جيدا. وأنا لا أجد أفضل منكم.. يشرفنى أن أطلب يد شقيقتك فوقية بعد العشاء. لدى خبر يسعدكم جميعا. عباس طلب يد... قفزت صفية. سكت. عباس طلب .

- قل يا مصطفى:

- يد.. يد.. فوقية.

كانت فوقية تعرف أن عباسا سيتقدم لخطبتها يوما. فقد كانت بينهما قصة حب لا يعرفها أحد. يتقابلان بعيدا عن البيت. لم تسأله عن سكنه.. ولم يدعها لزيارته.

وقع الخبر على صفية كالصاعقة. زلزلت الأرض زلزالا شديدا.. تركت المجلس خشية أن يفتضح أمرها. لم تكن تدرى أن هناك علاقة بين عباس وفوقية. كانت تعتقد اعتقادا راسخا أنه رجلها دون غيرها. وأنهما متزوجان فعلا دون أن يعلنا ذلك. لم تنم ليلتها.

● ● ●

فى السابعة غادرت إلى بين السرايات. صعدت السلم فى دقائق. طرقت الباب. فتح عباس أمسكت بتلابيبه.

– ضاقت عليك الدنيا. ألم تجد غير أختي.. أنا امرأتك منذ سنوات. لو طاوعتك لكنت أما منذ زمن. لو شاهدتك فى حلوان فسأحكى لهم كل شىء

تجردت من ملا بسها كيوم ولدتها أمها.

– كل جزء شاهد على سفالتك. شعرى. صدرى. بطنى.. ظهري. نمت معى مائة مرة.. حتى أيام عذرى. كنت تنام معى. جسدى كله رضع منك. مزقت ثيابه. اغتصبته. لن أتركك حتى تسيل دما

تأمر وهو يستجيب. كاد يموت. ارتمى مغشيا عليه بصقت عليه وانصرفت.

اختفى عباس. غادر القاهرة... بعد شهر وافقت على أول عريس قبل أن تراه!!!

-٩-

بعد بضع سنين. على باب السوق الكبير فى البلد الشقيق. شهقت.. عبا.... وجها لوجه كاد يغمى عليها. سقط الكيس من يدها. تراجع عباس.. سار نحو سيارته. سارت خلفه كالمسحورة دون تردد. دلفت جلست. أدار المفتاح.. دار فى الشوارع. لم تهمس. النفس يعلو ويهبط. جف الدمع... جمد الدم.

- الشارع القادم. يمينا.

نزلت دون أن تلتفت. ظل واقفا توارت... فى نفس المكان والزمان. كان عباس واقفا.. ركبت . من حقيبة يدها أخرجت شريطا دفعت به فى مسجل السيارة. صدحت أم كلثوم:

جددت حبك ليه؟

انخرطت فى بكاء شديد.

●●●

٣- أحمد العجوز

-١-

على أنغام" هذه ليلتى وحلْم حياتي"

تحسس الشيخ ,برفق ,عمامته ,رفعها.. تأملها.. بسط منديلا.. وسدها.. أم رؤوم تتأمل وحيدها.

- أنت فاتحة كل خير. أنت الخير والبركة، والوالد والولد، والمال والبنون، والجاه والسلطان.. الحاضر والمستقبل والماضى أيضا. ترفعين كل خسيسة، تسترين كل عورة.

العجوز أول من اعْتَجَرك من أهله، إن كان له أهل، ولن يكون الأخير. أنت بذرة المجد، أمن الحاضر، أمان المستقبل.. ريحانة الغد، عز الدنيا. نعيم الآخرة. أنت هما معا.

"ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة"

١ واخْشعْ مَليًّا. واقْضِ حقّ أئمةٍ طلعوا به زُهْرا ,وماجوا أبْحرا.

٢ كانوا أجلَّ من الملوك جلالة وأعزّ سلطانا ,وأفخمَ مظهرا.

-٢-

كان صديقنا العجوز يتأنق ويتجمّل فى كل شىء، منذ أن كان طالبا. فقد كان قارئا للقرآن فى المساجد وفى المناسبات المختلفة ,يُحيى ليالى رمضان

فى دوار أحد الأعيان. والقراء من أشد المعممين تأنقا وتفننا. تختلف عمائمهم عن عمائم العلماء الذين يكتفون بلف الشال حول الطربوش لفا يكاد يخفيه كأنه الشمس كورت. أما القراء فيتركون نصفه مكشوفا يتلألأ لونه القانى كأنه الكوكب الدرى تحيط به هالة من البياض الناصع، تحفه شرا شيب دقيقه كأنها أوراق الأقحوان هكذا كانت عمامة العجوز الذى كنا نتحلق حوله كل يوم جمعة ليقلوظ لنا عمائمنا.

بعناية ورشاقة انسل الشيخ من جبته ,كما ينسل كتكوت من بيضته. علقها على شماعة. وهو يسويها حتى لا تميل ذات اليمين أو ذات الشمال.. فك الحزام الحريرى. بسط له كفيه، تزحلق كأنه ثعبان...تلقفه.. مدده على الكنبة.

من خزانه خاصة استل جلبابا ناصع البياض أعده لهذه الليلة. صلى ركعتين ,سجد.طويلا. دعا كثيرا. رفع يديه، حرك عضديه، ضرب بهما إبطيه، وقف على أطراف أصابعه. نفخ صدره، كاد يصيح. زهواً، كما يصيح الديك، كو.. كو.. بكفيه" خبط على صدره" المعضّم" استنشق نفسا عميقا، شق رئتيه، كتكوت يصفق بجناحيه، محاكيا هيئه الديك.

اشتهر العجوز بخفة الدم. وجمال الروح ,لا يعرف من الدنيا إلا الحبّ. كان شديد الإعجاب بشعار الكنيسة "الله محبة" دنياه خالية من كل ما يُنغص دنيا الناس. تستوى لديه الدراهم والدنانير والملاليم. لم يكسر الفقر نفسه ,لم يحمله على الحرص كان يقول: للفقرعزه، كما للغنى، الفقر أكذوبة والمال كذلك.

يعانق الناس. يقبلهم. يسير معهم. يحادثهم يعتقد أنهم أصدقاء طفولته, على الرغم من انه لم يرهم قبل ذلك. كل الناس إخوته من آدم وحواء، تردد على الكنيسة، كما يتردد على المسجد. فلقبناه. أبونا الشيخ المقدس.

سحب من بلغته قدمين كأنها معلقتين صغيرتين.. حرك ساقين كقلمى رصاص، دقة ويبسا، تبادلا الرفع والخفض. والعلو والهبوط عدة مرات. مسح جبينه، عصفور يقلب رجليه. ابتلع ريقه. بلل حلقه.. مشى على أطراف أظافره. هم أن يطرق باب غرفتها. أحجم. تسمرت يده. انقطع التيار. حرك أصابعه خشية الشلل.

شد يده المعلقة.. نقر الباب نقرا هامسا، تمّهل. لم يسمع حركة ولا همسة. عاود الطرق. لم يتلق ردا. تكرر الطرق عدة مرات. سمع همسا خفيفا.. بحذر شديد فتح الباب فانفتح محدثا نغمة خفيفة. تسلل بصره من طرف عين واحدة سقط الشعاع على هالة من البياض. عمود من المرمر المنتصب. أبرز الفستان المحكم مفاتنه. خصر مخصر. يزحف فى انسياب على مشارف هضبة جرجاوية. انخلع قلب العصفور، طار لبه، دار عقله. كاد يغمى عليه.

– امرأة بشحمها، ولحمها. كريمة الشيخ المصرى. لو أمره الشيخ بخدمتها ما تردد. أنظف امرأة عرفتها فى حياتى: أم سعيد الغسالة التى اختلا بها فى غرفه الزاوية.

تمالك نفسه. استجمع قواه. مد يده المرتعشة. بأطراف أظافره قبض رأس دبوس.. استل دبابيس طرحتها.. تحاشى لمس جسدها. أنسدلت على كتفيها. إنسابت على ظهرها تزحلقت.... سقطت على الأرض. برفق شديد للمها. سواها. دس رأسه فيها.. تشممها. دفس جبهته، قبلها كما يقبل آى الله تاليها. وضعها على كرسى. بسط كفيه قبلهما. شاكرا لأنعم الله.

تسللت أصابعه المرتعشة تداعب ضفائرها، فلم تلتفت. بأنامله تحسس ذقنها، ابتلت أصابعه.

تشعْبط.. يمسح دموعها.

- هى ليله ككل الليالى. لسنا فى عجله من أمرنا سأنام فى غرفة المكتب.
هم بالانصراف.

دون أن تلتفت. على استحياء قالت:

- ماكنت أتخيل قط أن أكون زوجا لك. وما خطر ذلك على قلب أحد من الناس.

بُهت الذى دخل، صُعق. الذى نظر، زلزل زلزالا شديدا. مادت الأرض. سُحبت روحه كأنما يصّعد فى السماء. وضع أصابعه فى أذنيه. واصلت:

- نشأت فوجدتك تلميذا وافيا لوالدي. وأخا اكبر لنا نحن بنات الشيخ, لا أخ لنا سواك. نعاملك بما تعامل به الطفلة أخاها الكبير. فكيف تنكشف حرة لأخيها فجأة.. قد تمحو الأيام هذا الإحساس الأخوى.

●●●

ارتَمى على أول كرسى. أغمض عينيه. اجتر ماضيه منذ أن وطئت قدمه منزل شيخه. كان العلم فى ذلك الوقت تلمذة ومشيخة. يصطفى الشيخ عددا من تلاميذه. يقربهم.. يلازمونه. وكانت مكتباتهم مصدر ثقافتنا.

ورث شيخنا المصرى مكتبة عامرة عن جده لأمه أشهر علماء الصعيد فى القرن الماضي. وكنا فى مرحلة القرمزة نحاول قرض الشعر والعجوز من أنضجنا موهبة. تلقفه شيخنا. نفخ فيه من شاعريته، وبلاغته وفصاحته. وروحه الفكهة ,فكان من أمره ما كان بعد ذلك.

كان العجوز ساعة دخوله بيت الشيخ فى السابعة عشر من عمره. وعفاف لم تتجاوز عامها الخامس.

تهش لقدوم أى داخل. تهرع إليه رافعة يديها. تتعثر فى خطاها. تخب فى فستانها المعلق فى كتفيها يستر بعض جسدها. ترفرف بيدبها كأنها طائر يطير بجناحيه. لم يكتمل ريشه بعد. يروض الجناح، ينهض تارة ويسقط أخرى.

تلقفها العجوز.. اندست فى جبته. دخلت تحت جلبابه الفضفاض. والشيخ سعيد بطفلته وتلميذه. ظل التلميذ مصاحبا لشيخه يقرأ له، ويقرأ عليه كتبا فى الفقه والتفسير والحديث واللغة والأدب. العجوز يقرأ والشيخ يشرح. والمريدون يستمعون ويتساءلون ويناقشون.

● ● ●

شعر بدوار. جلس على أقرب كنبة. أغمض عينيه أسبل جفنيه.

– حفظت القرآن فى سن التاسعة. تلوته فى البيوت والدكاكين، وعلى المقابر. وفى الزوايا المطمورة. أتمسح بواجبات العزاء.

– اقرأ لنا سورة يا شيخ أحمد.

سهرت رمضان كله بالإفطار والسحور. رغيف فى المغرب وصحن فول وبلحات. احتجز بلحتين لأمي.. فى السحور رغيفان، وصحن طبيخ، وأحيانا قطعة لحم. أكلت رغيفا. وخبأت الآخر. دفسْتُ فى جوفه قطعة اللحم. تلقفته أمي.

– كلْ يا ولدي.

– هذا لك.

– وأنت؟

– أكلت يا أمى.

– سأتركه للصبح

– الصبح رمضان يا أمى.

– حلال يا ولدى؟

– من أجرتى يا أمى.

– رغيف قمح بحاله؟

– وأنا أكلت واحدا فى المغرب وواحدا فى السحور.

– ربنا يجعل السنة كلها رمضان يا ولدى.

فى يوم العيد طرق خفير العمدة باب بيتنا.

– تفضل يا شيخ أحمد. جنيه وكيله غله.

– كادت أمى تزغرد، لكنها لم تفعل:

– اغترفت حفنة من القمح. قبلتها.. وضعتها على جبهتها كأنها تسجد.

●●●

بعد أربع سنوات مددت يدى. خذى يا أمى

– ما هذه الصورة يا ولدى؟

– ورقة بخمسة جنيهات.

– وهل هناك فلوس أكثر من جنيه يا ضنايا؟

– خمسة جنيهات يا أمى.

– لا تزال تمزح يا أحمد.

كفكف دمعه وهتف:

– أحمدك ربى حمد الشاكرين. وأشكرك شكر الحامدين. تعز من تشاء بيدك الخير. انك على كل شيء قدير.

●●●

– مُر على بقالة عمرون. وأحضر معك ما سيعطيه لك

– هات الشاى يا أحمد.

– خذ هذه الكراسات للبيت.

– فسح البنات معك.

– مر على الحاج عبد الرحمن الخياط لك عنده أمانة.

اختلطت حياة الطالب بالابن بالخادم.

لم أفكر لحظه أنا أيهم! تلميذ الشيخ. أخو البنات. خادم الست. يبدو أنك كنت خادما لدى الجميع. أعمتك النشوة عن قراءة الوجوه. وأنت أبو العريف. ألم تلحظ ازورار الست عنك؟

- ألم تلحظ اختفاء عفاف من يوم خطوبتها؟
ألم تلحظ استعجال الشيخ وكأنه يريد أن يتخلص من خطأ وقع فيه. ألم تفكر فى الآيات التى كنت تتلوها فى منامك؟
((إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون))

-٣-

قال العجوز:
حذار.. حذار...
قال أحدهم :
عم يا لكاع؟
- لكاعِ. قطام. رقاش. حزام. إياكم ونكر سهرة الخميس.
- وماذا فى ذلك؟
- هل فى مصّ القصب حرمة؟
- هل فى زر البطاطة سبة؟
- هل فى أصبع الموز عورة؟
قال أحدهم.
- ألم تنزع عن الموزة لباسها حين قشرتها؟
- وهل للموز قشر يا أبا جهل؟
- أكلتها كما هى يا بغل!!
قال العجوز:
الغناء عند بعض مشايخنا كبيرة . والموسيقا جريمة.. والسهر رذيلة .
- وما رأى شيخنا يا ابن حليمة؟
- لا أعرفه على الحقيقة.
- إنه شاعر، والشاعر ذواقة.
- الغناء يا سادة.

وماذا فى الغناء؟

شعر رصين.. وصوت جميل. ولحن مُبين.

– ونَفَسَ متَين.

– وقعتك مطينة بطين.

– اسحب كلامك.

– شد.. لسانك.

– اكتم أنفاسك.

● ● ●

قال شيخنا:

كيف كانت جمعتكم يا مشايخ؟

– صلينا فى الحاجر. الشيخ أحمد قرأ سورة الكهف. والزيات خطب الجمعة. والدرديرى ألقى الدرس بعد الصلاة.

– وأنت يا عبد المتعال

همس العجوز:

– بات يحرس النعال.

قرأ الشيخ همْس الشفاه. فابتسم.

– الحاجر بلد كريم مِضياف. هكذا قال الشيخ:

قال العجوز:

– يا ليتها كانت بخيلة ممسكة.

كان المسجد الكبير شديد الازدحام.. بعد الصلاة تنازعنا القوم.. تعارك الناس. أشرعت النبابيت.. دوت الطلقات.

– كل ذلك من أجل إطعامكم؟

– لم يكن الأمر كذلك.

– كان الاتفاق مع زميلنا محمد الحاجرى. ولم نكن نعلم ما بين العائلات من تنافس.

– فوجئ سكان الشق الغربى بتلاوة القرآن والخطبة والدرس فى مسجدنا. ولم يستطيعوا منع ذلك. فلما انتهت الشعائر. صمموا أن ننتقل إلى مسجدهم ونعيد ما حدث فى مسجدنا فهم لم يصلوا بعد. ولن يكونوا أقل من غيرهم.

لن يغادر المشايخ إلا إذا فعلوا ذلك.

– قلنا لهم إن وقت صلاة الجمعة قد انتهي..

– لن يغادر المشايخ القرية. وسيبقون فى ضيافتنا إلى الجمعة القادمة. هكذا قال كبيرهم.

– المشايخ وراءهم دراسة. ولا بد أن يعودوا إلى المعهد اليوم، وويل لمن يعترض طريقهم.

– من أبواب خلفية تسلقنا الجدران كالجرزان، قفزنا من سطح لآخر. والكلاب تنبحنا والعجوز ينشد.

مَلّوا قِراه وَهرّتَه كلابُهم وَجرَّحوه بأنياب وأضْراس.

– اندلقنا فى بيوت النصارى. فلما جن الليل هرّبونا إلى هنا. وحملونا السلام لفضيلتكم.

● ● ●

استدار الشيخ:

وقعت الواقعة. تصبب العرق. اتسعت العمائم طالت. غطت الآذان والجباه والأقذالا.

هكذا وقع عليهم سؤال الشيخ.

ماذا فعلتم ليلة الجمعة؟

– تسربت سهرتنا للشيخ.

- وشى بنا الواشون.

- قد تكون هذه آخر جلستنا معه.

أدرك الشيخ حيرتهم، كربتهم. فقال:

- كانت ليلة عظيمة. تجلّت الست. أرأيتهم وأنتم أهل الأدب أن النص الجيد يخلق اللحن الجيد، ويساعد على التجلّي والإبداع.

جحظت الأعين. فغرت الأفواه. جفت الحلوق زاغت الأبصار.

لم يصدق التلاميذ أن المتحدث شيخهم المصري.

تتفقون معى أن الشعر فن تربية الذوق والخلق. فهو الذى حمل لنا المثل العليا ,والقيم السامية منذ أن وجد. فما من أمة إلا خلا فيها شاعر. اقرءوا حياة (بنتاؤور) شاعر الفراعنة كما صورها أحمد شوقي:

وبناء إلى بناء، يوَدّ الخلـ ـد، لو نال عمره والبقاءَ

وعلوم تحيى البلاد وبينتا هور فخر البلاد والشعراء

كانت ليلة الجمعة هذه المرة ليلة الرهان على الجائزة الكبرى، تسابق عليها بيرم والسنباطى، وأم كلثوم. كل منهم تحدى نفسه. لقد جاءت كلمات الشاعر فى غاية البساطة والقدرة على التعبير والتصوير. عامية مشرقة وفصيحة مخففة، كان بيرم يتربع على عرش العامية سنين طويلة، ثم ظهر له منافسون هددوا عرشه. فأراد أن يقول أنا الملك.

لقد كان تصوره بهذه اللغة طفرة فى شعر العامية، جمع فيها بين العامية فى أبسط مفرداتها، والفصيحة فى أجمل بيانها. ناهيك عن التصوير الذى نتحدث عنه.

تلقف السنباطى النص وصمم على تحدى الشيوخ: القصبجى وزكريا وعبدالوهاب. استخرج من كل عازف أقصى ما لديه من مواهب ونوع فيها. حللها وفككها وركبها. فكان هذا البناء الموسيقى الشامخ. تحولا فى تاريخ الفن الموسيقى.

التقطت الست هذا الشعر الرائع وهذه الألحان العذبة، وراحت تشدو بما وهبها الله من عذوبة الصوت، وروعة الأداء. وتنوع الطبقات. تبادل المشايخ الدهشة والإعجاب.

– الجميع ربحوا الجائزة.

قال الشيخ:

– سأجيب عن كل تساؤلاتكم.

العلم كل لا يتجزأ، وإذا لم تمده كل روافد المعرفة فلن يكتمل. وإذا لم تتذوقوا الموسيقا وتعرفوا الألحان والآلات والمقامات وعلم الأصوات والإلقاء والإنشاد، فلن تكتمل لكم علوم الدين.

والحفظ أساس كل علم.

من منكم حفظ أبيات بيرم ؟

ليكتب كل منكم ما حفظ.

● ● ●

شمس الأصيل دَهَّبَتْ.
خوصِ النخيل يانيل.
تحفه.. ومِتْصَوَّرَه.
فى صفحتك ياجميل.
والناى على الشّط غنَّى
والقدود بِتْميل
على هبوب الهوا
لمّا يمرّ عليل.

– هذا هو المقطع الأول.

● ● ●

-٤-

والأصل الأساس والمستقر. والأصيل من صفته كذلك. ووقت الأصيل ما بين العصر والمغرب. حيث تصفر أشعة الشمس وتدنو من الأرض ورؤوس الجبال والزروع، وتنعكس الأشعة الصفراء المختلطة بالحمرة كأنها سائل الذهب، تنعكس على أوراق النخيل فتصطبغ بلونها فتبدو كأنها شرائح الذهب. وقد انعكست صورتها الذهبية على صفحة مياه النيل ونسمات الهواء الرطب تداعب المياه، فتحركها فى تموجات خفيفة، فترتفع الصورة المنعكسة تارة، وتهبط أخرى، لذا استخدم الشاعر (فى) التى تدل على الظرفية، ولم يستخدم (على) التى تدل على الاستعلاء. فبدت الصورة لطرافتها وندرتها تحفة فنية رسمها الخالق على وجه الماء الذى بدا كأنه خد حسناء.

تمايلت الظلال مع تموجات المياه، وعزف الناى فبدت صورة النخيل السابحة وهى تتبدى وتتخفى فارعة الطول ممشوقة القد تتثنى، وشماريخها تنقبض وتنبسط حول الثمار اليانعة، والألحان المنبعثة من ناى الفلاح الذى يعزف على الشطآن. وتتابع هبات الهواء التى تقوم مقام الإيقاع الموسيقى، وظلال النخيل تتمايل فى تموجات المياه تظهر وتختفى كأنها أجساد راقصات هكذا صورت وهكذا جسدت الموسيقا التصور والخيال الذى نقلته أم كلثوم بما وهبها الله من فن وحس وتذوق وإحساس.

● ● ●

-٥-

- جئت مودعا يا مولانا. فقد حان السفر.

- أنت خطيب جيد يا ولدى. تمرنت عليها منذ سنوات. ومستقبلك فى الخطابة. عليك بكلية أصول الدين:

وهذه رسالة للعميد: صديق وزميل. وهذه أخرى لك. بها بعض الوصايا.

دس العجوز الرسالتين فى جيبه. قبل يدى شيخه وانصرف.

● ● ●

ليس فى إمكانه إتمام دراسته دون معونة. والمبلغ الذى جاد به الشيخ قد لا يكفى. الاستعداد لإقامة جديدة.. القاهرة غير جرجا. والجامعة غير المعهد. ومصدر الرزق انقطع. فمن يعترف بك قارئا فى مصر!!

●●●

- قال العميد:

خذ هذه الرسالة. واذهب بها إلى سوق روض الفرج وسلمها إلى المعلم محمد الرفاعى.

قبلَّ المعلم الرسالة.. وظل واقفا إلى أن أفرغ من قراءتها... اصطحب العجوز إلى زاوية قريبة صلَّى بهم العشاء.

- من الليلة يا فضيلة الشيخ أنت إمامنا. وهذا بيتك

- ثلاثة جنيهات. ومسكن ملحق بالزاوية.

بات العجوز آمنا فى سربه. يملك قوت شهره.

- حيزت لك الدنيا يا حيزبون. بركة القرآن. وحليمة بنت زيدان.

ذاعت خطبه ,اكتسب الشيخ أحمد الصعيدى شهرة واسعة. ملأ المصلون الطرقات. انهالت على الزاوية المنزوية التبرعات. جُددت. وسُعت. فُرشت. أسس الشيخ جمعية لتحفيظ القرآن. أقام الأذكار والأناشيد.

فى رمضان نافست الزاوية المساجد الكبرى. امتدت موائد الرحمن حولها... وصلت الأطعمة إلى الفقراء فى بيوتهم. خمس سنوات مضت وعمامة العجوز تنافس عمائم: الباقورى والغزالى والشرباصى، وكشك. والعدوى

-٦-

جواب من الحكومة يا مولانا:

تأمل الشيخ الخطاب:

- من مكتب القوى العاملة لتشغيل الخريجين: (دفعة: ١٩٦٧)

السيد أحمد محمد على فرج. تم توزيعكم إلى وزارة الأوقاف. عليكم بمراجعتها خلال ستين يوما من تاريخه. وإلا سقط حقكم فى التعيين.

كان شيخه المصرى، قدوته ،ماثلا فى وجدانه، خطيبا بارعا، لكنه آثر العمل بالتدريس.

– مجال الخطابة فى كل مكان. لكن ذكرنا الباقى فى تلاميذنا يا ولدى. كل الأئمة خلدهم تلاميذهم:

– أبو حنيفة ومدرسته وتلاميذه، والإمام مالك، ونحن من تلاميذه حتى اليوم بعد مرور أكثر من ألف وثلثمائة سنة على وفاته. والشافعى، وأحمد بن حنبل. ومحمد عبده.

●●●

– أريد أن أكون مدرسا فى الأزهر .يا صديقى:

– فرصتك فى الأوقاف أفضل. فأنت خطيب منذ عرفناك. فرصتك فى الترقي وفى الإعارة أفضل. أما فى الأزهر فستعيش مدرسا وتموت مدرسا وتحشر فى زمرة المدرسين.

– هذا ما أتمناه

– لن أذهب إلى وزارة الأوقاف حتى لو بقيت بدون عمل بيدك الأمر فإن لم تفعل فلن ترى وجهى بعد اليوم.

– إذا كان الأمر كذلك. فلك اليوم ماتريد. اجلس دعنى أتوضأ وأصلى، ثم أرتدى ملابسى وننزل فورا.

حين فرغ من صلاته. كان العجوز قد أحضر الفول والفلافل والخبز.

مع كوب الشاى الثانية قال السكرتير!

– الأزهر بصدد الإعلان عن حاجته إلى مدرسين من كليه اللغة العربية. الإعلان لم يكتب بعد. اليوم سأضيف إليه أصول الدين. وسينشر يوم السبت

القادم. والمقابلة بعد أسبوعين، وسيصلك خطاب التعيين قبل نهاية هذا الشهر. وتذهب إلى الأوقاف وتعتذر. وستذهب إلى أى معهد تشاء

●●●

قبل مرور شهرين طرق العجوز بيت شيخه المصرى، رحب به الشيخ ترحيبا بالغا.

غبت عنى يا ولدى:

– لن أغيب بعد اليوم.

– وعملك.

– سأتسلم عملى فى المعهد غداً.

– أعدت إلى شبابى، كم أنا سعيد بك

●●●

بعد شهور قال الشيخ:

– كنت سأرسل إليك فى أمر خاص.

– لبيك يا مولاى.

– أنا رجل ميسور الحال كما تعرف ,ومن أسرة لها وضع خاص، وليس لى من عقب سوى ابنتى هاتين، وأريد أن أزوجك إحداهما.

صكت الكلمة سمعه، وأغشت بصره. ماذا جرى للشيخ. أجاد هو؟ هو يداعبنا لكن ما عهدناه ساخرا. هل بإحداهما عيب؟ حاشا الله

– تدبر أمرك قبل أن تُجيب:

لست كفئا يا مولانا. لا جاه ولا أصل ولا فصل، ولا شكل ولا موضوع. رحم الله امرأً عرف قدر نفسه هكذا علمتنا.

– العلم رحم بين أهله. هو المال والجاه والسلطان ,والأصل والفصل. لم نعرف إماما كان غنيا سوى الليث بن سعد.

– مأساة الشيخ على يوسف تتكرر يا مولانا

سأقنع الجميع. ولن يعصوا لى أمرا. وقد سألت عن قبيلتك فى قنا فعرفت أنكم من أشرف الناس، وإن لم تكونوا من أغناهم... بعد عدة شهور زُفت عفاف المصرى إلى الشيخ أحمد العجوز.

● ● ●

-٧-

مضت عدة شهور ولم يتخذ سيد البارودى أى خطوة منذ أن خطب نوال الأخت الصغرى لعفاف المصرى عقب زواج الكبرى مباشرة.

- ليس لديه أى معوقات. كلما ألححنا له لإتمام الزواج أرجع كل شيء للأقدار والزمان والأوان. ونحن لا ندلل على بناتنا. هكذا قالت الحاجة زينب المصرى:

● ● ●

من شرفة الفندق الكبير المطل على محطة السكة الحديد تأمل العجوز القطارات المتجه إلى الجنوب، والسواح يلوحون للمارة والواقفين على الأرصفة وباعة البطاطا والجلاّب. والقصب.

رشف الشيخ رشفة طويلة بصوت مسموع من فنجان القهوة التركى، شفط نفسا عميقا من السوبر، اندفع الدخان من منخاريه، محاكيا دخان القطار.

انداحت قطع الدخان فى السحابة الداكنة المندفعه من أنف البارودى وفمه، كور سوداء تدور كقطع الليل. سرعان ما يدفعها الهواء بعيدا.

صفر القطار. هرع مسافرون... صعد من صعد، تسلق من تسلق.. تشعبط... من تشعبط. تخلف من لم يستطع اللحاق.

- الدنيا كهذا القطار ياسيد ياأخويا تنتظرها ولا تنتظرك.

وقد طال وقوفك ياسيد.

– نحن شباب والشباب يفهم بعضه جيدا، وبما أننا شبه عدايل لا بد أن نتكاشف بعد أن مضى زمن طويل.

كنت سأتقدم لخطبة عفاف زميلتي في المدرسة منذ سنتين، فأنا لا أعرف أختها. ربطت بيننا زمالة كريمة، وتقدير واحترام متبادل، اتفاق صامت على الارتباط ,لكن ظهورك المفاجئ، وإتمام زواجكما فى بضعة أسابيع، أنهى كل شيء، بيد أن تقديرى للشيخ ورغبتى فى القرب أعنى مصاهرتى لهذه الأسرة الكريمة دفعنى إلى التقدم لخطبة نوال ,التى لم أكن أعرفها، عوضا عن أختها. وبمرور الزمن قد نتناسى الماضى، وقد يتم زواج. ولا يعلم أحد ما تخبئه الأقدار.

●●●

– عليك أن تكظم الغيظ وأن تتدبر الأمر. هى بنت شيخك، واكبر عائلات البلد، ولم تشفع لك عند أهلها إلا تلمذتك لوالدها وخطبك وأشعارك. وليس لك من المال أو الجاه أو القبيل شيء. كانت موافقة المصرى على مصاهرتى حدثا جللا، تحمل الرجل فى سبيله ما تنوء بحمله العصبية ألو القوة. كسر كل الأعراف، فاخر بك فى كل مجامع القوم. لقد بدأت عفاف تتغير. لكن الحاجز النفسى الذى لم أعرف له سببا إلا الليلة، لا يزال سميكا.

هام العجوز على وجهه. تنقل بين المقاهى.

– فنجان سادة:

قبل أن يكمل. وأحيانا قبل أن يصل النادل هب واقفا، القى بقرشين وانصرف. جلس على رصيف المحطة.. فكر أن يركب.. قبل أن يلفت النظر غادر. أذن مؤذن. صلى الصبح. لم يكن من العودة بد

حين عاد هتفت باسمه لأول مرة. كانت تعلم أنه سيقابل البارودي. استشعرت شيئا.. كادت تحتضنه.

- طالت غيبتك. العشاء جاهز. غير ملابسك. الحمام جاهز.

وقف أمامها. لوح ثلج. حاولت تشممه عطرها الفواح. قميصها الشفاف. همت به، أعرض عنها. احتضنته ،تفلت من بين يديها، راودته، صرخت أنا امرأتك أفعل بى ما تشاء، لا تطلب امرأة من رجلها أن ينام معها، وها أنا أطلب ذلك بكل وضوح، لأكفر عن الماضي، أنت رجلى وحبيبى وعشيقى، لقد عشقتك عشقا لم تعشقه امرأة من قبل. ولن تعشقه أنثى بعد ذلك سأكون أولى المحبات، وآخر العاشقات. ليس أمامى إلا إرضاءك أو الموت، لم أعد أطيق عنك صبرا، لقد آثرتنى بخلقك وصبرك وكرمك طوال الأشهر الماضية. لا تحاسبنى على الطفولة والسذاجة وطيش الشباب.

وجد العجوز نفسه بين خيارين أحلاهما مر.

فى الإبقاء عليها كسر للنفس وإهانة للرجولة، وإهدار للكرامة. كيف يعيش وظل السيد لا يفارقه، وعما قريب سيرغم على العيش معه، فهما عضوان فى هذه الأسرة الكريمة. قد يتناسى، قد يتم زواج. لا يعلم أحد. عبارات دالة على تمسكه بها، وفى الأخرى عقوق للشيخ الوالد الذى جاهد فى سبيل زواجك حق الجهاد.

انتدب فى معهد القاهرة للأشراف على الامتحانات، زار كل عيادات الأعصاب والأمراض النفسية، لم يخجل من زيارة عيادات خاصة بالعلاقات الزوجية. لم يكن هدفه البحث عن استشفاء، بل البحث عن أمراض يبرر بها مسلكه أمام شيخه.

حين عاد ذهب بمفرده لزيارة شيخه ووالده، دعا له بالذرية الصالحة.. طأطأ رأسه يقبل يد الشيخ لم يستطع رفعها

أحس الشيخ بدموع الفتى تبلل يده، حاول انتزاعها لكن الفتى قبض عليها بشدة، وراح يشهق، يهتز اهتزازا عنيفا، احتضنه الشيخ، وضع رأسه

على صدره، قرأ عليه ما تيسر، دعا له دعاء الهم والغم والحسد والكسل. وعيناه تفيض.

- أخلص تلاميذى وأنجبهم ينتحب!!

استدعى الطبيب. فأمر بنقله إلى المستشفى فورا.

لكثرة هذيانه. منعت عنه الزيارة.

كان العجوز عجوزا منذ أن عرفناه. ضعيف البنية، مرهف الحس. شديد الاعتزاز بالنفس، على الرغم من رقه الحال. يهتف دائما.

أنا ابنُ جَلا وطَلاَّع الثَّنِايا متَى أضَعُ العِمامَة تعرِفْونى.

- أنا شيخ معهدكم هذا.

- أنا الإمام الأكبر.

لذا لم يكن لديه بدائل.

عاد إلى قريته. طلب نقله.

فى هدوء شديد تم الطلاق.

تحلل البارودى من وعوده.. طلب يد المطلقة. كانت القطيعة الأبدية بين البيتين الكبيرين.

لم تطأ قدم العجوز مدينة جرجا بعد ذلك.

● ● ●

٤- سيادة العميد

-١-

تردد كثيرا قبل أن يجلس على الكرسى الوثير، لاحظ أن السكرتير، حامل الحقيبة ،طالت وقفته، تنبه. تشجع، استدار حوله.. جلس على حافته. وضع السكرتير الحقيبة وانصرف. قام يتأمل.

لم يكن العميد السابق يسمح لأحد بدخول مكتبه. كل السابقين عليه كانوا مستوردين من القاهرة وعين شمس. هو أول عميد لتجارة الأزهر من أبنائها.

فى الكلية بعض اساتذتة، أصدقاؤه وزملاؤه، بعضهم يعرف عنه كل شىء.

– لن يعطينى أحد فرصة لأمارس كبرياء العميد ،سأغلق الباب، واختلى بنفسى وأعجب بها، وأتكبر ما وسعني التكبّر. وإن لم يكن العميد متكبرا فمن ذا الذى!! وإذا لم يركبك الغرور الآن يا ابن حليمة. فمتى يكون!! كلما نظرت فى المرآة. انسالت الذكريا، وجدت ما عملت حاضرا. سآمر بنزع كل المرايا. حتى لا أراك ياابن حليمة.. وحشْتنى ياأمى.

وضع مرفقيه على المكتب الفخيم. بسط ذراعيه، قلب كفيه، شبك أصابعه، وضع يديه خلف رأسه، حرك الكرسى فاستدار، أغمض عينيه، أسبل جفنيه، تحاشى النظر فى زجاج المكتب، تحولت الدنيا كلها إلى مرايا: محدبة. مقعرة. منبسطة – انداح فيها، انداحت فيه. شاشة عرض واسعة لا نهاية لها.

–٢–

سفح القرية.. ألواح.. وثايات من البوص، أعواد الذرة، جريد النخل، من بينها أطل رأس مستطيل، كأنه عدة رءوس، زحف الغلمان نحو برك المياه، تنططوا فى كل مكان كالفئران. ذكر أرنب عجوز.. يظل فى مكانه مُقْعيا، يمسح الأرض والفضاء بحدقتين تدوران فى محاجرهما، يشع منهما ضوء يكسر أى عين تُحدق.

تقاطر الصبيان نحو الكتاب، تدحرجوا يدفع بعضهم بعضا، حفاة شبه عراه.

● ● ●

– الولد لا يكف عن البكاء يريد أن يقرأ كبقية الأطفال وليس معى شيء ياسيدنا. وأنا أخدم فى بيتك منذ زمن:

– أحضريه من اليوم يا أم محمود.

محمود أبو القرعة. أبو الروس، هو لا يعرف.

قبل أن يصل أول غلام.. يفتح الكتاب، يكنس الحصر، يتلقف مركوب الشيخ، يمسحه بطرف جلبابه، يزداد المركوب اتساخا، يبتسم الشيخ. لا ينهره أبدا.

- تسْلَم يا محمود:

تسابق الغلمان على المركوب، لم يستطع أحد منهم انتزاعه.

لبد محمود أمام بيت الشيخ سار وراءه... نزع الشيخ رجله اليمنى، انكب عليها محمود. تلقف الأخرى.

● ● ●

لا يستطيع أحد أن يلبسه أو يبيعه، كل أهل القرية والقرى المجاورة يعرفون أنه مركوب الشيخ، فطالما ضربوا به: صغارا، وحملوه كبارا؛ احتراما لمن علمهم حرفا، والتماسا لبركة صاحبه. كما أنه فُصَل خصيصا ليناسب هذه الأرجل الضخمة. كانت رجل الشيخ كَخُف الجمل، كأنها قُدت من حديد. رفس الشيخ مرة حمارا فقتله.

● ● ●

- مركوب البركة، بركة. سيظهر كما اختفي. هكذا قالت أم محمود:

- حاول لص سرقته مرة. فانهال عليه المركوب ضربا، فرماه وفر هاربا، وهو يهتف:

مدد يا سيدى مركوب. مدد.

ذا ع خبر اختفاء مركوب الشيخ

- ويل لأى (بدنة) أخفته........ سنقطع الطرق، سنفتش البيوت، سنحاصر القرى سنمنع الخروج والدخول.

- مركوب الهوارى.. هواري.

- مركوب كبيرنا.. كبيرنا:

● ● ●

من شق النصارى البعيد هرول نجيب النَّقاقلى رافعا يديه ملوّحا بمركوب الشيخ، أسرع الناس إليه، تخطّفوه، تنافسوا، تسابقوا، سار الموكب المهيب إلى ساحة المسجد الكبير، تناوب تلاميذ سيدنا أعواد المنابر، قصا ووصفا، ومدحا وثناء، واعترافا بفضل المركوب وصاحبه، لولا هما ما كنا، ولا كان علم ولا علماء.

بالحبيب هلّ نجيبْ.

غُرة النّعال

تاج المراكيب.

عالى الشأنْ

حسيب نسيب.

حفيد نعل الوادى المقدس العجيب.

على كل القلوب عزيز حبيب.

مسك وعنبر وزبيب.

تهفو إليه نفوس.

تشتاق قلوب.

وسط المراكيب رئيس مهيب

لكل داء أنت الدوا

أنت الطبيب.

نجيب مصلح المراكيب ليس لصا. صديق الجميع، الأب الروحى لكل المراكيب، تمر عليه، حتى الجديد منها. لابد من إعادة تثبيت خياطته.

قال نجيب:

– قبل أن تطلع الشمس طرق الباب عدة طرقات ،فتحت ،فإذا غلام يخبئ فى حجره حملا.

– خذ يا عم نجيب.

– بعناية شديدة مددت يدى، فإذا فردة عزيزة علىّ، ثم الثانية.

– أصلحه ونظّفه دون أن يراه أحد. وسأمر عليك.

– برفق شديد حملت الغالي. ووسدته بجوار ابني.

– ولكن من الغلام؟

إنه خادمك يا مولانا محمود بن حليمة.

–٣–

فى كل حادثة يكتسب محمود لقبا جديدا. محمود المركوب. وهو يدفع عن نفسه سُخْر الصبيان، فيلوذ بالصمت أو الهرب، لكنه لا يبكى أبدا.

● ● ●

انزوَى فى بيته بعيدا عن عبث الأطفال. اقتحموا عليه داره. هبت أمه تدفع عنه. دفعها غلمان سقطت فى حفرة. انحسر عنها جلبابها الوحيد. زأر الشبل الجريح ،جندلهم جميعا. فى كل غلام آثر من آثار ضربه، ورفسه وركله ونطحه.

– لابد من طرد القرعة وابنها.

– لقد اتفق مع غلمان من بعيد لضرب أولادنا.

– لا يستطيع أن يضرب ولدا واحدا.

– هى التى ضربتهم.

– لابد من طردها.

● ● ●

– القرعة وابنها فى حمايتنا.

– ويل لمن يقترب منهما.

كادت الفتنه تقع. هرع سيدنا.

– يا قوم اتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلما منكم خاصة. الفتنه أكبر من القتل. استمعوا إلى وإلا تكن فتنه فى الأرض، وفساد كبير. إن الشيطان

يلقى فى قلوبنا الفتنة. إنما أموالكم وأولادكم فتنه، لا تحرقوا الأخضر واليابس من أجل لعب الأطفال تعالوا نحتكم إلى كتاب الله وإلى ما حدث "من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم"وهذا ما فعله محمود إن كان فعل، بيوتكم فى آخر البلد من ناحية الشمال، وبيت أمه. فى أخر الجنوب الغربى ناحية الصحراء والمشكلة وقعت فى بيتها فمن المعتدى. أجيبونى؟

فلما لم يجبه أحد واصل.

- أنتم أعيان البلاد وسادتها، ومن العيب أن تجمعوا رجالكم. وأعوانكم. وسلاحكم لحرب غلام فقير، وامرأة لا رجل لها. ماذا يقول الناس عنكم؟

اجتمع كبار هوارة لحرب المماليك الذين هم محمود أبو الروس، وحليمة القرعة. ياللعار!!

طأطأ الجميع رءوسهم.

مِن بين الجموع صاح صائح:

- لقد جمع أطفالا، فهو لا يقوى على ضربة واحدة من أى ولد من أولادنا، كما أن أمه اشتركت معه.

- وهل يطيق أى رجل ضربة من حليمة. هى لا تضرب أحدا.

صاح محمود: أنا أصارعهم جميعا. فإن غلبنى واحد منهم فسأترك القرية. ولن أدخلها أبدا ماداموا فيها

- ها هو يتحدى أطفالكم. وكلكم يعلم من حليمة القرعة التى غلبت كثيرا من الرجال. وهى تتحدى أى رجل.

لم يتقدم أحد.

كررها الشيخ ثلاثا.

أدار القوم وجوههم. انصرفوا جميعا.



تردد اسم الفتى على كل لسان. تودد إليه كبار وصغار. لم يعد أحد يقلل من قيمته ,لم يعد أحد ينهر أم البطل: الجاموسة أنجبت ثورا.

عاد القوم كاسفى البال.

– غلام واحد فقير يضرب كل أولادكم.

– لا تنس أنه ابن حليمة الدّكر.

– وما أدراك ما حليمة الدكر؟

– تنتع التليس على كتفها. . وتصعد به الدور الثاني.

كنا فى سوق الأربعاء، وكانت حليمة تبيع دجاجات لها. احتك بها رجل من النجع القبلى، لطمها لطمة شديدة ,لمحه محمد الهوارى. تبادلا الشتائم، تكاثر رجال.. سقط الهوارى. سال دمه، تقدم رجالهم ورجالنا، دارت معركة شديدة، استلت القرعة مربعا، لم يقو رجل على منازلتها، اكتسحتهم كالسيل من يومها نسى الناس القرعة...ذاعت شهرة حليمة الدكر.



–٤–

لا يفارق الفتى شيخه إلا ساعة النوم: فى البيت. فى الكتاب، فى الجامع. فى الواجبات والمناسبات..

يُعد راحلته، يعلفها. يسقيها.. يركض خلفها... ولسان الشيخ لا يكف عن التلاوة، والغلام يردد، ويحفظ. فى أقل من عامين أجاد حفظ القرآن، وتجويده.. جلس يساعد شيخه. يحفّظ الصبية.

–٥–

إن شاء الله سيدخل أولادنا الأزهر العام القادم. ويحتاجون إلى مزيد من العناية والرعاية يا سيدنا

– هم يحفظون فى الكتّاب مع زملائهم

– سألت شيوخ المعهد. فقالوا: لابد من المراجعة المستمرة بعد الكتّاب، ولابد من دروس فى الحساب والإملاء والخط.

– لا وقت لدى يا صديقي. سأرسل لك من هو أحسن مني.

– وهل هناك من هو أحسن منك يا سيدنا؟

– نعم: محمود هو الذى يشرف على تحفيظهم فى الكتاب. وسيواصل معهم بقية النهار.

– ابن القرعة!!

– قال الشيخ باستنكار:الشيخ محمود الدرديري

اهتم بهم اهتماما كبيرا ,حفظا وتلاوة وتجويدا. حضر معهم دروس الحساب والإملاء. حفظ قواعد الإملاء. حل المسائل المستعصية. أشاد مدرس الحساب بنبوغه.

قال الشيخ: قاتل الله الفقر.. ملعون أبوه.. قدر الشعب المصري.. يعيش فقيرا، ويموت فقيرا ما ذنب هذا الغلام ليُحرم من التعليم؟

●●●

– أخشى على الأولاد من العيش فى المدينة ولا أحد يأتينى بأخبارهم.

– أرسل معهم من يساعدهم ويأتيك بأخبارهم.

– وأين هو؟

– الشيخ محمود.

– محمود أبو الروس؟ابن حليمة؟

– هو دون غيره.

– وهل يستطيع خدمتهم؟

– سيكون زميلا لهم فى المعهد لا خادما.

انتفض الرجل:

– ابن القرعة يزامل أولادنا. لن يكون ذلك أبدا.

- الامتحان لا يفرق بين القرعة وأم شعر.

- المدارس لا تقبل إلا أولاد الأعيان.

- الأزهر يقبل الجميع. وقد قدمت له، وقبلت أوراقه.

- هذه قطيعة بيننا. وغدا سأقابل شيخ المعهد.

● ● ●

- لوحة الشرف على باب المعهد. وعلى مكتب فضيلتكم وكل الناس تعرف من صاحب الفضل فى بناء هذا المعهد، وما بنيناه لأولاد الفقراء.

قال الشيخ العسكرى: لم أكن موجودا حين بنى المعهد، وقد اضطلعت على كل التكاليف ,وقد تحمل الأزهر الجزء الأكبر، وهناك بعض المحسنين من أهل جرجا وغيرها، تبرعوا بأموال أكثر، ورفضوا ذكر أسمائهم والأزهر مبنى لأبناء الفقراء.

- إن قبلتم هذا الولد فلن أدخل هذا المعهد بعد ذلك. ولن ندخل أولادنا. وسوف أقابل شيخ الأزهر نفسه.

- قال الشيخ: شرفت ياحاج. مع سلامة الله.

-٦-

ساعده بنيانه المتين على تحقيق بطولات فى التحطيب والمصارعة، ورفع الأثقال. بعد عامين كان بطل الساحة الشعبية دون منازع أو منازل.

كما أن تفوقه أكسبه احترام شيوخه وزملائه. لم تُشبع علوم الأزهر نهمه. تقدم لامتحان الإعدادية فاجتازه بتفوق.

● ● ●

طافت بكل الدروب والبيوت والدكاكين والأسواق:

- الشيخ محمود ولدى. سيخطب الجمعة القادمة.

نداء من الحاج على الهوارى. وكل بيوت هوارة إلى أهالى القرية الكرام. كل من يصلى الجمعة وراء ابن القرعة فهو عدو هوارة إلى يوم الدين، كما

أن شيخنا أفتى بأن الصلاة لا تجوز خلف فلاح. وأن الهوارى الأصيل لا يؤمه إلا هوارى مثله. والحاضر يعلم الغائب. وقد أعذر من أنذر

●●●

هرع الناس إلى شيخهم الكبير إمام المسجد يستفتونه فى الإمامة.

قال الشيخ:

هذا الذى سمعناه مناف للدين، ولا يوجد شرط كهذا. أول من أم المسلمين فى المدينة سالم مولى أبى حذيفة، وكان بلال الحبشى يؤم كبار الصحابة. هذه دعوة جاهلية، يتحمل وزرها من قال بها. وسأكون أول من يصلى خلف الشيخ محمود. وسأرد بعد الصلاة على هذه الدعوة الباطلة. انشروا ذلك بين الناس.

تراصت النسوة حول الجامع، مقعمزين ،ومقنبرين فى جلاليبهم السوداء، كأنهن قدر الفول. حين انتهت الصلاة، دوت الزغاريد، هزت القرية هزا عنيفا.

تناسى الناس القرعة، وأبو الروس، تنازعته البيوت والقبائل تفاخرا بالحسيب النسيب: الشيخ محمود الهوارى.

-٧-

- لم تعد بى طاقة على تعليم الأطفال. تعال يا محمود ذاكر لهم. وكذلك أولاد الشيخ تاج الدين، فنجن نسكن فى بيت واحد:

حكى للأولاد حكايات، قص قصصا ونوادر ونكات، تعلق الأطفال ببابا شارو، اجتهدوا. من أجله، بدا عليهم التحسن.

فى آخر الشهر دسّ الشيخ فى يده جنيها وأحكم عليه أصابعه، قبّل يد شيخه وانصرف، دفس يده فى جيبه، أحكم قبضته. فى الحمام استعان بيده الأخرى.. جذب أصابعه واحدا إثر الآخر، دمعت عيناه.

– هُوّ أنت يا أخضر. بركاتك يا أمي. سأرسل لك خمسين قرشا مع أول مسافر.

كثر زبائنه، اتسعت دائرة نشاطه، ذاكر لتلاميذ الابتدائى والإعدادى، ومع تلاميذ الثانوي... بعد ثلاث سنوات حصل على الثانوية العامة . واصل دروسه فى المعهد. والأيام تمر... كان ترتيبه الثالث على ثانوية الأزهر.

–٨–

بعد أيام سيكون اللقاء الأخير.

– سيكون كالأعوام السابقة.

– أربعة موالد. لم يصمد أحد منا أمام نبوت البرديسى .

– لكنه لم يظهر حتى الآن.

– أنصاره أكدوا أنه سيحضر السباق الأخير.

– ليس أمامنا إلا الانسحاب.

– حتى لا يتعرض أحد منا للمهانة، كما حدث العام الماضى .

– أبو عساف ترك البلد، ولم يعد بعد ذلك.

● ● ●

طفحت المدينة بالقادمين من برديس وما حولها من نجوع، دوت الهتافات، شقت الخيول والحمير والجمال شوارع المدينة، ارتفعت النبابيت، تعالت دقات الدفوف والمزامير.

– تقدم البرديسى، فارع الطول، رافعا نبوته، تكشف ساعد كالصخرة، دار فى الهواء، انتفخ ثوبه كأنه مظلة كبيرة.

– من يلاعب؟ من ينازل. أليس فى هذه البلد رجل واحد.

هكذا هتف رجال البرديسي.

وسط الحلبة متكئ على طرف نبوته، رابض كالأسد.

– النداء الأخير يا غجر.

بصعوبة شق الدرديرى الصفوف، تقدم نحو البرديسى قهقه الناس.
- صلى بنا العصر ياMولانا.
- اقرأ عدة يسين.
- سنجمع لك قرشين.
- صدق الله العظيم

فى هدوء شديد، خلع عمامته وجبته، ألقى إليه أحدهم نبوتا خاصا أعد لهذا اللقاء. وقف كالسد طولا وعرضا وضخامة، بدأ البرديسى كأنه قَزَم. أمام هذا الرأس الضخم، والشارب الكث كأنه.. قرنا جاموسة معكوفين. قبض على نبوته لاحت أشاجعه، نفرت عروقه، لم يكن يلبس فانلات اللعيبة، بدا ذراعه الأسمر كأنه قد من صلُب، طوحّ بفخذ كأنها جذع نخلة

بدأ البرديسى يحس خطورة الموقف. وليس من النزال بد
- كأنك لم تسمع عن البرديسى ياMولانا.
- شاهدت هزيمتك فى مولد القناوى.

وطلاب الأزهر ينشدون:

ومُبَرْطع رَغِب الحُفاة لقاءه   لا مُخْتشيا ولا متلوْمَ
جادت يداى له بعاجل خَبْطةَ بمُجَلَّبِ عَكَفِ العكوف مُعلّم
فكسرت بالبكسُ الأصم سنانه ليس الجِعَيص على العصا بمُحرّم

تصبب البرديسى عرقا قبل أن يبدأ. همس:
- أنت شاب ياولدى ولا أريد أن تكون نهايتك على يدي.
- شرف كبير أن تكون نهايتى على يد بطل كبير اسمه البرديسى.

رفع الرجل نبوته. هوى به على نبوت الفتى كأنما لطم به صخرة. تراجع دار حول الفتى...سدد عدة ضربات والفتى يقفز ويصول ويجول، وحملات البرديسى تطيش فى الهواء. صاحت النبابيت وصرخت تصك الآذان، حمل عليه بكل قوته والفتى لا ممعنا هربا ولا مستسلم. بدا يهاجم بكل عنف

والبرديسى صامد كالجبل. طار الفتى فى الفضاء هوى على نبوت خصمه. لم تقو أرجل الرجل على الصمود، كأن جبلا سقط على أكتاف البطل العجوز. خارت قواه. غاصت قدماه. جسا على ركبتيه.

ألقى الفتى نبوته، احتضن المعلم الكبير. قبل رأسه. صمت رهيب. حزن شديد.

تعالت هتافات الجرجاوية.

– أشار بيده أن كفوا.

– هذه ثانى مرة أهزم. كانت الأولى حدثا جللا، لم يحدث لأحد من قبل أو من بعد. فى مولد القناوى تحديت جميع القناوية بعد أن مات بطلهم أبو رشوان.

لم يجرأ أحد على النزال، نزل رجل ضخم الجثة، وانهال على تلطيشا، لم أوفق فى صد لطشة واحدة.. جعلنى مسخرة.. لم أتحمل السخرية، فانسحبت.. بعد أيام عرفت أن خصمى لم يكن رجلا. كان امرأة اسمها حليمة الدكر.

– ابتسم الفتى ولم يقل شيئا. ودع البرديسى تلميذه الجديد. نلتقى العام القادم .

– سأكون فى القاهرة.

– اذهب كل يوم جمعة إلى عرب المحمدى وسلم لى على سيد السمهودى.

● ● ●

فتح الباب. دخل رجل قصير نحيف على المكتب وضع حقيبة. فى هدوء تسلل خارج القاعه.. بعد دقائق فتح الباب ,انتحى جانبا. دلف رجل فى منتصف العمر على رأسه قبعة رقيقة، وعلى عينيه نظارة سوداء. بين شفتيه سيجار، لا يفارقه، بيد أنه لا يشعله أبدا. يده اليمنى فى جيب بنطالونه

الأسود. فاتحا زرارين من أزرار قميصه، كاشفا عن صدر عريض وخطته بوادر شيب.

همس الطلاب.

- فريد شوقي.

- استفان رستي.

- جارجوى بيك

- شيخ أزهر أمريكانى لتطوير الأزهر.

وضع القبعة والنظارة على المكتب ثم قال:

- أنتم أول مجموعة تدخل هذه الكلية الجديدة. كلية التجارة التى أنشئت ضمن مشروع تطوير الأزهر. وقد حرصنا على اختيار أفضل طلاب الثانوية. كما حرصنا على وضع أحدث المناهج والخطط، واخترنا لتنفيذ ذلك خيرة العلماء من القاهرة وعين شمس. ولا يكون تنفيذ إلا بالدقة والانضباط وتنفيذ اللوائح والقوانين. وأول ذلك احترام المواعيد والالتزام بها. فلن يسمح لأحد بالدخول بعد الأستاذ. ولن يسمح لأحد بالحضور إلا بالزى المناسب؛ حرصا على المظهر العام. عليكم أن تستبدلوا بزيكم الأزهرى الزى العصري. من أراد أن يحتفظ بزيه فليذهب إلى كلية أخرى.

همس الدرديرى:

- كسبنا صلاة النبى.

• • •

بعد أسبوعين تأمل العميد القاعة.

الحمد لله لم يلحظ شيئا:

كان محمود قد تسلل إلى المقعد الأخير. خلع عمامته زحلق نصفه تحت الكرسى، بدأ أقصر ممن أمامه، رأس عارية بين الرءوس.

– لم ير العميد شيئا. هكذا ستمضى الأيام إلى أن تتبدل الحال. ولكن كيف؟

قبل نهاية المحاضرة الأخيرة، تسلل حاجب العميد وبيده ورقة صغيره، قرأ: الطالب محمود محمد الدرديرى مطلوب لمكتب العميد.

حاول أن ينتزع نفسه من المقعد، تعثر، عاود الكرة تحسس رجليه بكلتا يديه، لمّ رجلا رفعها، ثم لم الثانية كأنما غاصت قدماه فى الرمال، فى وحل غزير، رفع رجله بصعوبة. أحس أنه فى حاجة إلى حمام.

– أيكون العميد أشد غلظة من البرديسي؟

طال انتظاره، دكت رجلاه كأنهما قضيبان من حديد سمرا فى بلاط الممر.

– هذا الملف خاص بك، العميد أشر عليه، من حقك أن تحول إلى أى كلية. راجع شئون الطلاب. هكذا قال سكرتير العميد. وأغلق الباب.

-٩-

حم القضاء، إعدام مبكر جدا ,تأبط حاضره ومستقبله، دنياه وأخراه. لا يدرى أى وجهة هو موليها. سار بجانب السور الغربى، يتساند عليه، دار حيث يدور. وجد نفسه فى قلب أكوام من القمامة والنفايات والكلاب الضالة. بضراوة هاجمه كلب شديد السواد، حاول أن يهرب فلم يمكنه الكلب، دار حوله سد عليه كل المنافذ

– أتكون نهايتك على يد كلب؟

بكل غلب الأيام، وقهر الزمان ,وظلم الإنسان، اندفع نحو الكلب تمكن من ضربه برجله ,ضربه ألقت به بعيدا... صرخ الكلب صرخة مدوية. استشعرت الكلاب الخطر، ولت هاربة.

من أكوام القمامة اندلق إلى الحوارى والأزقة، وسط طفح المجارى. يدفع عن نفسه رزار المياه القذرة أيقن أنه تاه.

- أريد أن أذهب إلى السيدة زينب؟

- فى أخر الشارع ميدان القلعة. اركب ترام رقم:٦

-١٠-

- عدت مبكرا ياشيخ محمود:

- رفدونى يا خال.

- قبل أن تكْمل شهرا، غدا سأذهب معك، ومعنا المعلم قناوى، المأمور صاحبه.

- لا علاقة للمأمور بذلك يا خال.

كل الحكومة حبايب المعلم:

- حتى الحكومة لا تفيد.

- النبوت ياولد أختي. خالك لا يزال بعافيته ,غدا الجمعة سترى نبوت خالك فى عرب المحمدي. وقد سمّعوا بمن هزم البرديسي. ويريدون أن يروك. وقد وعدتهم بذلك

- ياخالى الرجل الذى أحدثك عنه عميد.

- إذا كان عميداً ففى عمارة المعلم، قى باب الخلق أربعة لواءات.

● ● ●

جذبه من يده إلى مقهى القناوى.

- احك للمعلم حكايتك.

سمع المعلم الحكاية وابتسم.

- يا معلم محمد.

نظر إلى الشيخ وقال.

- هذا عمك محمد. ملّبس كل العمداء فى مصر.

- شوف طلبات الشيخ والحساب عندى.

فى قعر مظلمة دفع به، أشعل المصباح، مد بصره - سراديب لا نهاية لهاجحر ضب... بصعوبة تحرك.

- نصف طلاب وأساتذة دار العلوم، وكلية التجارة، ومعهد التعاون، ومعهد التربية، وكليات الأزهر وطلاب وطالبات المدارس. زبائن عمك بيكا. القصير، نطوله، والطويل نقصره، الواسع نضيقه والضيق نوسعه.

- ياأسطى سيد شوف طلبات البيه.

فى السرداب ترزى بلدى. وآخر إفرنجى، وثالث حريمى، ورفَّة ومكوجى.

- من عميدكم؟

- البرقوقي.

- زبون سقع..

- العميد!!

-١١-

- رجل نزيه يبدل بدله كل عام . يعطيها للمكوجي. ليتصدق بها. فى شارع قصر العينى فى نفس البيت الذى يسكن فيه العميد، وفيه مكتبه. أكبر مكتب محاسبة فى مصر، وأنا اشتريها

● ● ●

وأربح فيها كثيراً بصر- عبس- قَمْطَر.. كشر ,عقد حاجبيه ,رفعهما. خفضهما ,قلّب كفيه. بسمل حوقل. هو أنا ...أنا هو. البرقوقى دون غيره، زى السبت هو.. هو.

لولا أن الرجل أطول قامة، ومن يجرؤ على اقتحام درس البرقوقى إلا البرقوقى نفسه هكذا قال البرقوقى.

وضع الدرديرى قبعته وحقيبة كانت بيده ونظارة سوداء على المكتب، حرك قلمه الرصاص بين شفتيه.

كان الدرديرى ممثلا بارعا يتقن فن التقليد. قال مقلدا العميد:

- كانت محاضرتنا الأسبوع الماضى مقدمة فى علم المحاسبة. وإليكم أهم ما جاء فيها، وأخذ الدرديرى يشرح ويوضح، مقلدا العميد فى سكناته وحركاته ولوازمه، والعميد مذهول ينظر حوله فكأنه ينظر فى مرآة، تحسس جسده، ومحمود فى غاية الجد والأداء والجودة.

- موضوع محاضرتنا الأسبوع القادم...

ابتسم العميد غلبه الضحك، هوى الدرديرى على يده قبلها، حضنه العميد.

دوت القاعة بالتصفيق.

● ● ●

«اكتسب الدرديرى وضعا خاصا بين طلاب الكلية، فى العام التالى أصبح رئيسا للاتحاد بالإجماع.. ثم صار رئيسا لاتحاد طلاب الجامعة لمدة ثلاث سنوات بعد ذلك.

كان الأزهر معنيا بإنجاح مشروع التطوير، وكانت كلية التجارة باكورته، وعلى رأس المؤسسة شيخ فقيه مستنير، جرىء مقدام مؤمن بالتطوير أشد ما يكون الإيمان. اكتسب الإمام محمود شلتوت وضعا عالميا خاصا. كما أن رئيس الجامعة أستاذ الفلسفة، تشبع بثقافة الغرب وحضارة الشرق. فأمن بأهمية العلوم الحديثة فى نهضة الأمم، كان لديه مشروع نهضوى للنهوض بالأزهر وبمصر.

فتحت الأبواب أمام رئيس الاتحاد.. أبواب المشيخة، والرئاسة والعمادة.

● ● ●

هذا العام سيشهد الأزهر تخريج الدفعة الأولى، وقد أوصَى الإمام رحمه الله بالاحتفال بهذه المناسبة. كما أن رئيس الجامعة الجديد تحدث فى هذا فى اجتماع المجلس. لذا وجب الاستعداد من الآن، وأنا أعهد إليكم وأنتم اتحاد الكلية، أن تجمعوا المقترحات من الأساتذة ومن زملائكم. وتتصلوا

بالكليات المناظرة، وسيكون الاحتفال فى عيد العام القادم، بعد تخرجكم بعدة شهور، وسيدعى إليه كبار رجال الدولة والاقتصاد والمال والأعمال. عليكم أن تنظموا لقاءاتكم

• • •

بعد أداء الامتحان تفرغ كل العاملين بالكلية لإعداد مشروع الاحتفال، وضعت البرامج، طُبعت المطبوعات، وزعت الدعوات، نشرت الدعاية فى الصحف والمجلات

• • •

بسم الله.. باسم الوطن.. وباسم الأزهر نفتتح هذا العرس العلمى الحضارى النهضوى.. كلمة اتحاد الطلاب يلقيها الخريج محمود الدرديرى. دوت القاعة يالتصفيق. توالت الكلمات. فى نهاية كلمته قال العميد:

بشرى لطلاب هذه الكلية. لأول مرة خمس عشرة منحة فى سنة واحدة ولدفعة واحدة. وقد وقع الاختيار عليهم بمعايير علمية واضحة.

- الدرجات والتقديرات خلال مدة الدراسة.
- إجادة لغة أجنبية، ويفضل من يجيد لغتين.
- اجتياز الاختبارات التحريرية والشفوية.

كان محمود الدرديرى واحدا ممن وقع عليهم الاختيار.

• • •

كاد يسقط من على كرسيه، تنبه، فك تشابك يديه، اعتدل، فتح عينيه، لوح على المكتب... قرأ.

أ.د محمود الدرديرى عميد الكلية.

ابتسم وقال:

كان نفسى اكتب اسمك ياأمى حليمة الـ...

وتمضى السنوات...

• • •

-١٢-

السيد الأستاذ الدكتور عميد الكلية

يعد التحية. نحيطكم علما بأن مدة عمادتكم ستنتهى آخر هذا العام، وأن الجامعة بصدد تطبيق القانون الجديد الذى يقضى بأن يكون العميد بالانتخاب. رجاء إخطار الأساتذة بذلك.

– عدة سنوات لم ينافسك أحد. لم يتخيل أحد أن يكون للكلية عميد غيرك. سار هذا المكتب جزءاً منك، بل أنت جز منه، أنت وهو كيان واحد.. كنت أظن أننى سأدفن فيه.

فى المرآة صورتان، إشباح كهل... نضارة فحل.

– ها هى صورة أمى تتراءى من بعيد.. الكتاب . الأزهر. مركوب سيدنا. أصوات: أبو الروس. ابن القرعة. حليمة الدكر.

الجاه والمنصب. طلاء. ساح.. ذاب .. سقط القناع، انتزعت الثياب، وقف أمام المرآة كيوم ولدته أمه. حاول أن يستر عورته. شلت يمينه ،غلت شماله... أزفت الآزفة، قامت القيامة.

لا حاجب.. لا سيارة لا...

هرول... مد يده. لامس باب الترام، دفعته عجوز، تزحلق... سقط: نفض جلبابه، مشى كثيرا. طال المشي. المساكن.. المقابر. صراخ.. عويل.. نباح: قهوة المعلم... بكيا... بكيا.

لم يتأخر قط عن مواعيده– لم يدخل مكتب العمادة صبيحة يومه هذا– زار كل الأقسام. حضر الاجتماعات. وزّع صورا من الخطاب. لم يفاتح.. لم يناقش.

-١٣-

– بدأت التربيطات ياسيادة العميد.

– ماذا تعنى؟

- الانتخابات تربيطات، ووعود، ومواثيق وعهود.
- الدكتور عباس اختار وكلاءه:
- مولانا الشيخ جليل عمايم حلفنا على المصاحف.
- عزومات: كباب وكفته. سجائر مستوردة.
- زيارات فى المنازل.
- إعارات... انتدابات.. ترقيات.

عدد الأساتذة عشرون. الذين أعلنوا ترشحهم خمسة غير سيادتكم.
- كل مرشح حلف، الباقون ووعدهم جميعا بالوكالة.
- كيف علمت؟
- حضرت كل الولائم، فأنا صديق للجميع.
- ويأتيك بالأخبار من لم تزود.
- مولانا أقسم أنه سيغدينا غدا. ونسى أننا فى رمضان.

●●●

- أقفل باب الترشح ولم تربط مع أحد ياسيادة العميد.
- خدماته السابقة كافية.
- أغلبهم تلاميذه.
- عصر الأستاذ والتلميذ انتهى.
- الانتخابات تنافس شريف.
- من يعتقد ذلك عليه أن يبحث له عن بلد آخر.

●●●

تقدم من تقدم، علّقت الكشوف. خلت تماما من اسم الدرديرى. اقتحم الطلاب مكتبه. هتفوا:

لا عميد إلا أنت.
- يادنيا دورى دورى

لا عميد إلا الدرديرى.
ياكلية ثوري ,ثوري.
لا عميد إلا الدرديرى

• • •

أنت الإمام. الملاك الطهور.
علمك علم الدهور
حلمك كسر رأس كل مغرور
لبسوا الحرير:
ولبست الدمور والكستور
-فرشوا المراتب.
ونمت على الحصير.
- سكنوا القصور.
وعشت في بولاق الدكرور.
أداروا المواتير.
وتشعبطت فى الحناطير.
جمعوا الدراهم
كنزوا الدنانير
وأنت تعد الملاليم.

• • •

سكتت الأسود.
ونهقت الحمير.
نامت تيجان المجد.
سقطت أكاليل الزهور.
تراقصت على رءوس الأفسال الطراطير.

● ● ●

يابن البتول وأم المؤمنين.

أبوك غال فى الأولين وفى الأخرين.

– وأمك سيدة نساء العالمين.

ابتسم الدرديرى.

وقال:

– الأستاذ والد ومعلم ومربى، وإذا لم نكن لكم أباء، فلن تكون لنا أبناء، وعلى الوالد أن يسلم الراية مختاراً، قبل أن تلفظه الحياة، لقد قدّمت ما استطعت، ولم أفِ هذه الكلية بعض حقها، لأنها أطعمتنى من جوع، وأمنتنى من خوف، وجاءت بى من بدو الصعيد إلى كرسى العميد. بعد أن كاد الفقر يطمس كل موهبة، ويستل كل منفعة.

لم يكن أمام أمثالى. من أبناء الفقراء. ممن أتاهم الله بسطة فى الجسم. ورجاحة فى العقل، وجرأة فى القول والفعل. لم يكن أمامهم من طريق سوى طريق الشر. وقد دعيت إلى ذلك مرارا من أقران لى. بيد أن حفظ القرآن حال بينى وبين الشر. إن مركوب شيخ الكتاب الذى ألهب ظهرى، لم يفارقنى لحظة، كلما هممت بخطأ أحسست وقعه يلحس قفاى. لقد حلمت – وأنا فى البعثة فى بلاد الفرنجة أننى بصحبة فتاة، فإذا بمركوب الشيخ يعبر المحيطات، وينهال على، فقمت مُفزّعا، وآلام الضرب المبرِّح تعصف بجسدى كله.

الحياة تطور وإحلال وتجديد، ومن لم يأت طوعا، سيأتى كرها. وقد أخذت حظى كاملا وأعطانى الله أكثر مما استحق، ولم تعد لى من أمنية غير أن تقر عينى بكم، إن أعظم ما يتمناه المعلم أن يرى تلاميذه فى ثوب علمى حضارى يفوق ما كان عليه أستاذهم، إن الأستاذ الذى لم يعد تلاميذه لعصر غير عصره، وزمان غير زمانه، عليه أن يبحث له عن عمل آخر غير

التعليم، وفقكم الله.

-١٤-

فى الجانب الآخر، دوّت هتافات:

- عباس... عباس.

- فى وجه العدا عباس

- للخير مفتاح للشر ترباس.

الوجه نور.. والقد مياس.

فى حكمته حار الوسواس الخناس.

من الجنة والناس.

أنت العلم والأدب.

والطبيب الآس.

لكل طالبٍ كسوةٌ ومداس.

لكل شيخ جبة ولباس.

ياابن الكرام من أهل بلقاس.

● ● ●

عباس.. عباس.

إذا احتدم الوغى وخاف الناس

أنت المفتاح والقفل والترباس.

عباس عباس

● ● ●

كان الشيخ عبدالباسط العائد بعد عشرين عاما من العمل فى دول الخليج، اكتسب خلالها خبرة بالمال والأعمال، فقد كان صندوق أمانات

بلدياته، يحفظون عنده كل مدخراتهم، تاجر فى العملة والأرض والعقارات. اشترى بفلوسهم. وباع لهم. عمل مستشارا. دينياً لعدة شركات توظيف أموال.

أنفق الشيخ بغير حساب.

- كلنا معك.

- لن يتخلف احد .

- ما قدمت لا يقاوم.

ستكتسحهم جميعا.

حين ظهرت النتيجة وقع الشيخ مغشيا عليه.

- لقد أطعمتهم وكسوتهم . حتى سراويل النسوان ياولاد الكلاب. والله لأستردن كل شيء: الساعات والأقمشة المستوردة، وكل الهدايا.

- لقد أنفق الشيخ كثيرا- لم يدفع شيئا من جيبه.

- البركة فى طلاب الخليج. العشرة أحسن من عمارة كما يقول الشيخ عمايم.

● ● ●

لقد أنفقت مالا لبدا. ولن أجلس أقلب كفى على ما أنفقت فيها.. سأسترد كل شىء، والسيئة بعشرة أمثالها يالصوص.

-١٥-

-يتشرف السادة أعضاء هيئة التدريس بدعوة حضراتكم لحضور الحفل الذى سيقام ترحيبا بسيادة العميد الجديد.

افتتح الشيخ عمايم حفل التتويج.

بسم الله العلى المجيد. وبسم قداسة العميد نفتتح هذا اللقاء السعيد

احتفاء بمعالى العميد، ذو البأس الشديد، والعمر المديد، والبصر الحديد الفعال لما يريد يعلم دبة النمله. وزنة النحله، وطلعة النخلة. الحسيب النسيب، سبط الحبيب المحبوب.

لقد انتزعت من كل جماعة أيهم أشد عتيا. فكانت بيعتك علينا حتما مقضيا. وجاءوا لساحتك ركعا جثيا، وأنت خيرهم مقاما وأحسن نديا، لقد كانوا أحسن أثاثا ورئيا. بيد أنهم كانوا أضعف جندا. فزاد الله الذين اهتدوا بك هدى، فهم خير عند ربك ثوابا، وخير مردا. لقد خسر الذين أنفقوا مالا وولدا، أما الذين نقضوا العهد فتفرقوا شيعا، وآتوك فردا، فردا.

– حين أمسكت بالبطاقة، نهرتنى نفسى اللوامة ,هاتفه.. ولا تزكوا أنفسكم " فلم تطاوعنى يمينى، فسمعت هاتفا يهتف باسمكم: ياعبدالله. اختر حبيب الله، وإذا بنور يضيء باسمكم الأكرم، وجدكم الأعظم، بانى الحرم، مشيد الهرم، حافر زمزم (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) ولا أهل لها سواك.

سيادة العميد: إن جامعتنا لتباهى بكم جامعات الأمم فى الدنيا والآخرة، بأنكم العميد.

أنت الأمام الذى من قبل سابقه ألقىَ إليك مقالَيد النّهىُ البشر
ما آثروك بها إذ بايعوك لها لكن لأنفسهم كانت بك الإثَر
أتتك العمادة منقادةً كما أتى ربه موسى على قدر

● ● ●

– أقر وأعترف بأن ترشيحى ضدكم . كان رجسا من عمل الشيطان، سأصوم ستين يوما، وأطعم ستين مسكينا، وأعتق ستين رقبة، وأحج ستين مرة، وأجاهد فى سبيل الله فى العتبه. وجامعة الدول، وميدان لبنان. ولن أعود لمثلها أبدا، عسى الله أن يغفر لى خطاياى.

– بكل ذرة من كياننا سيادة العميد نصغى إلى قولكم المتين، الذى تعجز

عن الإتيان بمثله قرائع المبدعين، وأقلام الكاتبين، وألسنة المتقولين، فمهما تقول هؤلاء، وأدعى أولئك فأنت أستاذ الأجيال، وصاحب مدارس فى الآداب والفنون والقصة، والتفسير والحديث، وعلوم اللغة والاقتصاد، والتطريز والتدبير، والطيور والعصافير، والخيل والبغال والحمير.

قال العميد:

تعلمون جميعا أننى بعيد كل البعد عن شهوات الدنيا، وزينة الحياة، معرضا عن دنيا الناس، ولولا رجاء خاص من كل علماء المسلمين، وقادة الرأى والفكر فى العالم، ما قبلت شيئا من ذلك، لكن خدمة الإنسانية فرض عين على أمثالى.

● ● ●

قال الدكتور عبد الباسط:

إن العلماء ورثة الأنبياء، وقد أمرنا الله بالتبليغ، كما أمروا، وأنت يا سيادة العميد الخاتم الذى ختم به جيل العظماء من العلماء. وقفل بكم باب الاجتهاد، فطوبى لمن شهد عصركم، فأنت المعلم والقائد، أنت خير من اخترنا: القوى الأمين، الصادق الوعد، الناجز العهَد.

إن ما تم من اقتراع، ماهو إلا إجراءات وظيفية. بيد أن عمادتكم تكليف من السماء. يؤتى الملك من يشاء، وقد ألبسكم الله ثوبا ربانيا، فما كان لبشر أن ينتزعه. لقد وهبكم الله ملكا لن يكون لأحد من بعدكم. ونحن نعاهدكم على السمع والطاعة. لنا عليكم الريادة والقيادة، والتوجيه، فإن وجدتم فينا اعوجاجا فقوموه بما ترونه مناسبا أو غير مناسب.

- بالروح بالدم نفديك يا عميد.



-١٦-

- فى الانتخابات القادمة لن ينافسك أحد.

- بايعناك مدى الحياة. وبعد الحياة. لا عميد إلا إياك. لا عميد بعدك. أنت الأول، وأنت الأخر. المانح والمانع .

- لن يرقى أحد من أعدائك بعد اليوم. أما الذين سعدوا بالترقية بفضلكم، ففى مجالس التأديب الكفاية.

قال العميد:

استغفر الله. لن أقف فى طريق أحد، وسأبذل قصارى جهدى لخدمة عباد الله الصالحين. واصل الشيخ عمايم حديثه:

- بعض الموظفات تطوعن للخدمة. وقد أعدت توزيعهن على المكاتب بعناية قالت إحداهن:

- الدكتور عبد الباسط يده طويلة.

- وبعض الطالبات كذلك.

- كثير منهن منقبات.

- منقبات بالنهار. سافرات بالأسحار. بين صلاحهن وطهرهن ,وبغيهن وفجورهن ,شارع واحد

- عيوننا عليهن فى بين السريات والدقي، وجامعة الدول.

- التقارير الأمنية تصلنى كل يوم.

● ● ●

-١٧-

لم يشعر الدكتور عمائم بتغير الزمان، وظلت ليلى فى وجدان الكهل منذ أحبها فى السنة الأولى. تقدم لخطبتها بعد أن عين معيدا.

كان والدها يملك مطعما بميدان السيدة.

- ابنى الدكتور جليل. زميل كريمتكم فى الكلية، ويريد أن يتقدم لخطبتها.

- وماذا يعمل ابنكم؟

- معيد؟
- لم أسمع عن هذه الصنعة قبل ذلك.
- معيد يا معلم يعنى مدرس فى الجامعة.
- شغلانة أبهة، جعيصة قوى، كلام فى التلفزيون والإذاعة، والجرايد. الدكتور. عاد. قال... الدكتور رايح جاى. فلوس كثيرة قوى
- كم دخل ابنك فى الشهر يا حاج؟
انجعص الوالد، وضع رجلا على أخري. تنحنح. قرأ المعوذتين. من شر حاسد إذا حسد.
- بعون الله وفضله. نظر يمينا وشمالا. تأكد أن أحدا لا يسمعه. مد بوزه. قرب شفتيه من أذن المعلم همس.
خمسة وعشرين جنيها:
انتفض المعلم.
- كم؟
- ٢٥ جنيها بالصلاة على النبي.
شرق. كح. سعل طويلا. كاد نفسه ينقطع. كاد يلطم الرجل، لكنه تمالك.
هم الغلام بكوب الماء. لملم نفسه. استعاد هيأته. صمت طويلا.
- ما أسمك يا غلام؟ العمال عددهم كثير، هذا الغلام مستجد، لم أعرف اسمه بعد
- خدامك حسين النوبى. جئت من النوبة منذ شهرين.
- كم يوميتك يا ولدى؟
- الحمد لله يا معلم فضلة خيرك. جنيهان ونصف فى اليوم ,غير البقشيش، والأكل والشرب والسكن والكسوة فى الأعياد.
- فرصة سعيدة يا حاج شرفت يا دكتور.

● ● ●

ظلت ليلى الدسوقى فى وجدان الشيخ منذ أن عرفها فى السنة الأولي.

وتعلقت به فى السنة الثانية. لتفوقه. وشاعريته. ووسامته. يجوبان الشوارع والكورنيش، والحدائق. والفتى الأزهرى القادم من مقابر الفراعين. من أقصى الجنوب الذى لم يحادث امرأة قط، يمشى على استحياء، خشية أن يراه أحد، وهو يريد أن يحافظ على عذريته، وفتاة (شارع السد) تدفعه دفعا. كانت بنت بلد شهامة وجدعنه وأنوثة.

عرف معها طريقه إلى الجيلاتى، والسجق ,والحواوشى والكباب والكفتة ,والسينما والمسرح. والنادى الأهلى، كانت هداياها لا تنقطع. ولم يكن للفتى من رزق غير مكافأة التفوق، ووزارة الأوقاف والمجلس الأعل، وما ينشره من أشعار. كانت تغدق على رجلها بغير حساب. لم يدر بخلدها أنها ستكون لغيره.

ظلت ليلى الدسوقى فى وجدان الكهل، فى كل عام له ليلاه، يلهث وراءها، ناسيا كر الليالى، فالمكان. هو.. هو والفتاه ليلى مهما كان اسمها، يتحايل الكهل أوصلينى للمحطة، نتمشى قليلا، هذا المطعم يقدم طعاما جيدا، راجعى معى هذا البحث، اقفلى الباب لأن المكتب مكيف. هَّم يقبلها. كانت فضيحة. تدخل العميد لدى أهل الفتاة سوى الموضوع. رجع الشيخ إلى صباه.. صباه لم يفارقه. لا يزال الكهل يركب أفراس الصبا ورواحه، ولم يصح قلبه عن ليلاه.

-١٨-

- كم عدد المتقدمين؟

- ثلاثة لدرجة أستاذ واثنان لأستاذ مساعد.

- أين أوراقهم؟

- ستعرض على سيادتكم الأسبوع القادم.

بعد أسبوع اجتمع العميد بهؤلاء المتقدمين.

– شرف عظيم لهذه الكلية أن يكون بها هذا العدد من الأساتذة. وسأبذل غاية جهدى ورفع الظلم، ولن أسمح بالغبن، فلن يظلم أحد مادمت بين ظهرانيكم......

وقد منحكم، جميعا، رجة النشاط كاملة.

– وأنا على ذلك من الشاهدين. وقرأ الشيخ عمايم عليهم درجات النشاط.

– معذرة سيادة العميد. كنا نظن بك الظنون وأننا لن نرقى فى عصركم. وبخاصة الذين لم يكونوا معك.

– استغفر الله." اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية".

– سيادة العميد سيتصل باللجان. وله عندهم خاطر كبير.

– كلهم تلاميذه.

– لا أعرف أحدا فى التشكيلات الجديدة.

– أنت تعرف يا سيادة العميد أن بعضنا ليس لديهم فرصة لتقدم السن.

– هذا من عيوب الغربة الطويلة.

– بالتوفيق إن شاء الله. همس: لن تنالوها حتى بعد موتي.

قبل أن تصل البحوث لجان الترقية ,كانت تليفونات العميد ترن فى كل البيوت.

● ● ●

-١٩-

– كيف استطاع سيادة العميد أن يخفى علينا هذا الأمر.

– أى أمر يا دكتور؟

– أمر ابنته التى تفوقت على الجميع، دون أن يعرف أحد أنها ابنة العميد. تتصور أنها الأولى على جميع طلاب الكلية منذ نشأتها حتى اليوم. لم تنقص درجة واحدة خلال السنوات الأربع.

- كلنا كنا نعرف أنها ابنته، وتظاهرنا بغير ذلك.
- أنا لم أكن أعرف.
- اتق الله يا مولانا.
- الدكتور عمايم، الحبيّب ,تشعبط فيها أول الأمر، قبل أن يعرف أنها ابنة العميد. البنت طالعة لامها.
- وهل رأيت أمها؟
- مرة واحدة، خارجة معه من الجامعة الأمريكية.
- كلنا قمنا بالواجب.
- الرجل يستحق كل خير.
- لم يعد الأمر خافيا بعد ظهور النتائج. وتم التعيين
- لابد من الاحتفال بهذه المناسبة الكريمة.

●●●

قبل أن يحضر العميد. كانت قاعة مجلس الكلية قد ملئت بالزهور والورود، وأطباق الحلوى. وقد أشرف الدكتور عمايم بنفسه على القاعة. وإعداد الكلمات.

- ألف ألف مبروك ياسيادة العميد.
- هذه الشبلة من ذاك الأسد.

همس هامس:

- ماذا تسمّى أنثى الأسد يا مولانا؟
- لقد فاقت العالمينا.

المتقدمين والمتأخرينا.

أضاءت بها الليالي.

وأشرقت السنينا

فاستحقت كأبيها

الرتب والنياشينا.

سليلة الأتقياء الصالحينا.
الأطهار القديسنا.
المسلمين الكافرينا.
أضاءت كفورا من عهد خوفو لم تر القنديلا.
أبوكم عال وجدكم مينا.
سلالة الطهر آخر المرسلينا
جدكم محمد خاتم النبينا.

لم يعط أحد للعميد فرصة، كلما هَمَّ بالكلام دوت الهتافات، تعالت الأناشيد هذا يوم النصر، هذا يوم الفتح. فتح الفتوح.

وقف الدكتور أبو رُغال شاعر الكلية. الحائز على قلادة البغالة. ووسام الرذالة.

زينب .. يازينب أنت العلا وكل الورى أرنبُ
خلق عال ومعطف كأنما ذر عليه الزرنب
نجوم تحوم هنا، وهنا إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
ذكاء عمرو، وحلم معاوية ومن أبيكم الروح والقلب
روضناه فلم يستجب وظل العقل منه كأنه شبشب
لكن الهوى متأجج والقلب فيكم عاكش مكلب
يضرخ داعيا دامت أيام العميد أيام أبى زينب
من فى الورى مثلك أصبحت للدنيا مثلا يضرب
فى كل جلسة ترينا ما يبهر وما يستغرب
والمجلس يرتج حين تقوم فينا تخطب
المنصف ينشكح والمغرض أرنب ,أو ثعلب
عفوك علم المخطئ وتوب المذنب

عاشت أيامك دامـت لياليك أبا زينب.

● ● ●

– قال شاعر آخر:

وبيضاء مثل الرئم لو شئت صبت وأنـا العجوز الأشيب

دنـــوت منها فقالت لا تصدق فأنا بك ألهو وألعب.

وقلب الشيخ بين الجد واللهو يتذبذب.

فقالت:

أغرب قبل أن تصفع على قفاك.

ياابن الكلب وتضرب.

فقلت لها: نقيع براطيشك عسل يستحلب.

● ● ●

الدكتور محمد أحمد المهدى حفيد المهدى الكبير، مؤسس الطريقة المهدية بأقصى الجنوب، بدأ نبوغ الطفل مبكرا، أرسل مبعوثا إلى فرنسا قبل سن العشرين. هناك حقق تفوقا كبيرا، نبغ فى مجال تخصصه، نشر بحوثا بالفرنسية والانجليزية والأسبانية، ذاعت شهرته قبل أن يعود إلى بلاده. فى مصر صفقت له قاعات الجامعة الأمريكية. والمركز الثقافى الفرنسي.

كان الرجل قصير القامة، نحيفا ضئيلا، ذو رأس كبير وجبهة عريضة. وجنتان بارزتان، وعينان واسعتان جاحظتان، شعر حاجبيهما غزير فاحم، أذنان عريضتان وأنف أفطس قليلا، كأنما ركبت للرجل القصير رأس أسد مبتسم بالفطرة، تقتحمه عين أى راء. فإذا تحدث فى العلم، دون غيره، تضاءلت أعناق العماليق، وطأطأت رءوس المتطاولين.

– فى فرنسا تسود علاقات الحب والتعاون والتقدير، لا يسألون المرء عن دين أو جنس أو لون. البحث العلمى جماعى لا أحد يعمل منفردا، يرأس

الفريق أكفؤهم، تقوم الجامعة بتقديم كل عون. لا حقد ولا حسد.. فى العلم التنافس الشريف البناء يسود الحياة العلمية، كنت أصغر من تولى رئاسة قسم فى السربون. وبه من الفرنساويين عشرات العلماء.

– ياسيادة العميد جامعاتنا فى الدراسة وبين السرايات وعين شمس الغربية.

●●●

دخل الوكيل وبصحبته فتاة. اسبهل الجميع، حوْقل من حوقل، سبح من سبح، جحظت عيون ,فتحت أفواه، سقطت أكواب ,شرقت حلوق .

-والله ما هذه من البشر.

– ولا من الحور العين

ممشوقة القد، ملفوفة العود ,خرطها الخراط بعناية. جسد الفستان جسدها، فستان سهرة يكشف أكثر مما يستر، زاغت الأبصار، بلغت القلوب الحناجر، التفت الساق بالساق.

هتف الشيخ عمايم الله أكبر ولله الحمد: ووقع مغشيا عليه.

نظر الدكتور عبد الودود إلى وجه العميد. وهم أن يقول الخالق الناطق لولا أنه لمح وجه الفتاة فلم يكمل.

تقدمت الفتاة.

اسمى زينب محمد أحمد المهدي:

هتف الجميع الله أكبر عاش العميد.

ظل محتفظا بسره وسركم. إلى أن كانت النتيجة النهائية وتم تعيينها، فلم نستطع أن نكتم فرحتنا بكريمة العميد فكان ما رأيتموه.

قال العميد: ألا تزال تقول كريمة العميد بعد أن تكشف لكم كل شيء ألم تسمعوا عن تشابه الأسماء. ألم يلفت نظركم شكلها الأجنبي. لبسها الغالى.

من منكم يستطيع دفع ثمن فستان واحد مما شاهدتم. والغريب أنكم تقولون الخالق الناطق. هل عميت الأبصار، وختم على البصائر.

– قال أحد الزملاء: العميد تزوج من فرنسية.

والبنت لأمها.

– قال العميد:

–ألم يطلع أحد منكم قط على الأوراق الرسمية. وينظر فى الحالة الاجتماعية للمدعو محمد أحمد المهدي. ليعرف أنه لم يتزوج قط.

بهت الجميع وانصرفوا مطأطئ الرءوس.

● ● ●

أكملت الفتاة:

– هذا والدى محمد أحمد المهدى المستشار الثقافى لسفارتنا فى باريس ، وهذه والدتى مدام أنجى دانيال.

● ● ●

بعد اللقاء هم الجميع بالانصراف ، استوقفهم العميد .

– أعطونى تفسيرا لكل ما حدث.

طأطأ الجميع.

– لن يغادر منكم أحد قبل أن أعرف الحقيقة.

– تلعثم الجميع.

– قل الحقيقة: أنت يادكتور عمايم أشرفت على كل شيء وأريد أن أسمع منك.

– عفوا سيادة العميد. منذ السنة الأولى اعتقدنا أن زينب محمد أحمد المهدى هى كريمتكم. وأشهد الله أننا لم نجاملها ، ولم نشعرها بأننا نعرفها أو أنها ابنة العميد. وظل كل منا يكتم سركم طوال سنوات دراستها ولم يكاشف واحد منا الآخرين.

(تمت)

جامعة الفيوم
كلية دار العلوم
قسم الدراسات الأدبية
السيرة الذاتية

المحتوى

الصفحة

المؤلف فى سطور

الاسم : أبو القاسم أحمد رشوان موسى

تاريخ الميلاد : ٧ / ٦ / ١٩٤٠

العنوان ٦ أكتوبر الحى ٤ المجاورة ٨ رقم ١٦٦٨

تلفيون : ٣٨٣٤٣١٣٤-٠١٩٤١٢٢٧٤٩

الوظائف التى عمل بها :

١- تدريس اللغة العربية والتربية الإسلامية فى مدارس مصر ١٩٦٥- ١٩٦٧.

٢- تدريس اللغة العربية والتربية الإسلامية فى مدارس الكويت ١٩٦٧-١٩٧٦.

٣- مدرس أول بمدارس الكويت : ١٩٧٦-١٩٨٦.

٤- خبير فنى بإدارة الكتب والمناهج بالكويت : ١٩٨٦-١٩٩٠.

٥- عضو هيئة التدريس بكلية دار العلوم بالفيوم : ١٩٩٠ إلى الآن .

٦- أستاذ مشارك بكلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية بإسلام آباد : ١٩٩٣-١٩٩٩.

٧- رئيس قسم الدراسات الأدبية والنقدية بكلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية بإسلام آباد: ١٩٩٦-١٩٩٩.

٨- مستشار رئيس الجامعة الإسلامية بباكستان لشؤون الطلاب : ١٩٩٦-١٩٩٩.

٩- رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم بالفيوم : ١٩٩٩-٢٠٠٥.

١٠- عضو مجلس كلية دار العلوم بالفيوم ١٩٩٩وإلى الآن .

١١- عضو مجلس الدراسات العليا كلية دار العلوم بالفيوم ١٩٩٩-٢٠٠٥.

الشهادات والدرجات العلمية :

١- ليسانس دار العلوم ١٩٦٥ جامعة القاهرة.

٢- ماجستير فى الأدب العباسى كلية دار العلوم جامعة القاهرة ١٩٧٤.

٣- دكتوراه فى الأدب المسرحى كلية دار العلوم جامعة القاهرة ١٩٨٠.

٤- أستاذ مساعد فى الأدب القديم كلية دار العلوم جامعة الفيوم ١٩٩٧.

٥- أستاذ بكلية دار العلوم جامعة الفيوم ٢٠٠٢ إلى الآن .

الإنتاج الأدبى

الكتب والبحوث :

١- محمد بن عبد الملك الزيات حياته وأدبه.
٢- مصر القديمة فى المسرحية المعاصرة.
٣- تاريخ الأدب الجاهلى .
٤- نصوص من عصر صدر الإسلام .
٥- تدريس النصوص فى المراحل التعليمية .
٦- دراسات فى الأدب القصصى .
٧- دراسات فى الأدب المسرحى .
٨- طرق الأدء الجامعى وتقييمها .
٩- التربية الإسلامية والتحديات المعاصرة .
١٠- الأطر الفكرية فى شعر شوقى .
١١- الهجاء الفنى فى الشعر القديم .
١٢- لوحات من شعر الطلل الجاهلى .
١٣- استدعاء الرمز المكانى فى الشعر القديم .
١٤- قراءة فى أشعار المخضرمين .
١٥- استخدام نظرية النظم الشفاهى فى الشعر الجاهلى .
١٦- صحوة القلب فى الشعر القديم .
١٧- الرسم بالأصوات .
١٨- الفرس والقلق الحياتى فى الشعر الجاهلى .
١٩- قراءة فى شعر الخيل .
٢٠- فن المدح عند زهير بن أبى سلمى .
٢١- توظيف الموروث الشعرى فى عينية أبى ذؤيب .
٢٢- التفسير الرمزى للشعر الجاهلى .
٢٣- جدلية الخطاب الأسرى فى الشعر القديم .
٢٤- الشعر الجاهلى قضايا وموضوعات .
٢٥- محاولا التجديد فى شعر صدر الإسلام .
٢٦- معلقات العرب (مكانتها الاجتماعية والفنية الجزء الأول .
٢٧- معلقات العرب (مكانتها الاجتماعية والفنية الجزء الثانى).
٢٨- مختارات من شعر الدولة الأموية .